

رؤية مستنيرة وعصرية لحقائق الإيمان
والعلم والشريعة والبيان في كتاب الله

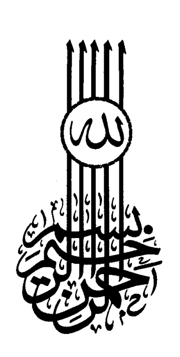
العدد الثالث ١٤٠٠ هـ ١٩٧٩ م — الطبعة الثانية

إعداد: عبد الفتاح عساكر

يصدرها المركز الثقافي
المقاولون العرب
عثمان أحمد عثمان وشركاه
٣٤ ش عدلي القاهرة

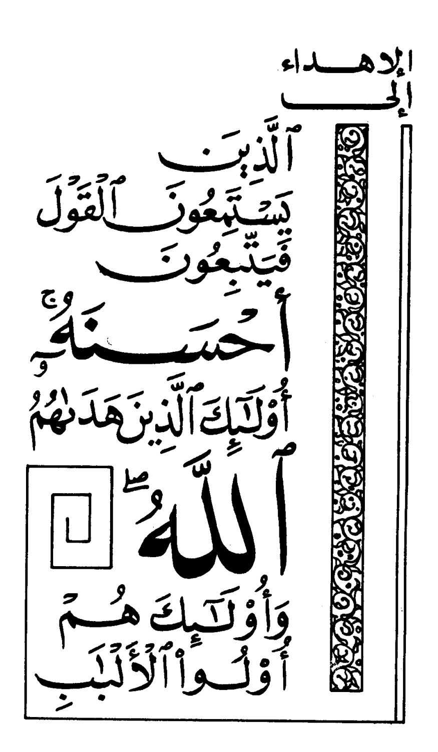
الكتب التي صدرت عن المركز الثقافي

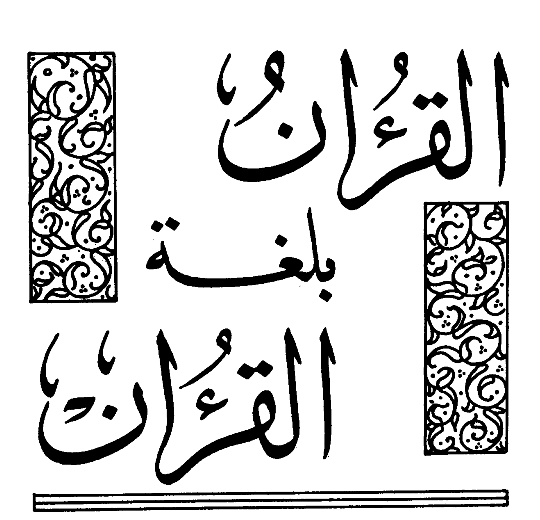
العدد	الطبعة	التاريخ	السنة
العدد الأول	الطبعة الأولى	١٢ ربيع الآخر	١٣٩٣
		١٥ مايو	١٩٧٣
	الطبعة الثانية	٢٠ رمضان	١٣٩٤
		٦ أكتوبر	١٩٧٤
	الطبعة الثالثة	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد الثاني	الطبعة الأولى	١٢ ربيع أول	١٣٩٤
		١٥ أبريل	١٩٧٤
	الطبعة الثانية	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد الثالث	الطبعة الأولى	١٤ رجب	١٣٩٥
		٢٣ يونيو	١٩٧٥
	الطبعة الثانية	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد الرابع	الطبعة الأولى	٢٥ رجب	١٣٩٦
		٢٣ يوليو	١٩٧٦
	الطبعة الثانية	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد الخامس	الطبعة الأولى	٦ شعبان	١٣٩٧
		٢٣ يوليو	١٩٧٧
	الطبعة الثانية	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد السادس	الطبعة الأولى	١٠ رمضان	١٣٩٨
		١٤ أغسطس	١٩٧٨
العدد السابع	الطبعة الأولى	١ رمضان	١٣٩٩
		٢٥ يوليو	١٩٧٩
العدد الثامن	تحت الطبع		
العدد الأول لأبناء العاملين	الطبعة الأولى	١٨ شعبان	١٣٩٨
		٢٣ يوليو	١٩٧٨
العدد الثاني لأبناء العاملين	الطبعة الأولى	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩



يقدم المركز الثقافى بشركة
المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه
هذه الطبعة احتفالا باستقبال
القرن الخامس عشر الهجرى




الإهداء
إلى
الَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ
اللَّهُ
وَأُولَٰئِكَ هُمْ
أُولُو الْأَلْبَابِ


القرآن
بلغة
القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ

بسم الله الرحمن الرحيم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ

بسم الله الرحمن الرحيم وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ
عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ
فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝

بسم الله الرحمن الرحيم وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝

بسم الله الرحمن الرحيم حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الثانية

بفضل الله وتوفيقه، يسر المركز الثقافى بشركة « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » ،أن يقدم هذه الطبعة الثانية من العدد الثالث من هذه السلسلة الطيبة « مع القرآن الكريم — رؤية مستنيرة وعصرية لحقائق الإيمان والحياة » .. هذه الطبعة التى توافق نهاية القرن الرابع عشر الهجرى ، وبداية استقبال المسلمين للقرن الخامس عشر ، ليكون صدور هذه الطبعة جزءاً من نصيب شركتنا من الاحتفال بهذه المناسبة التاريخية غير العادية ، وحيث ندعو الله معها أن يكون هذا القرن

الهجرى المقبل ، قرن اليقظة الإسلامية الشاملة ، لأرجاء الوطن العربى ، والعالم الإسلامى .

هذه اليقظة كما نترقبها ، وندعو الله بها ، تقترن بالضرورة بانقشاع غيوم الشيوعية الإلحادية ، وتراجع موجة النزعات العلمانية الانحلالية ، تحت شمس الإسلام المشرق على بلادنا . هذه الغيوم والنزعات التى هى — كما نراها — عملة واحدة ذات وجهين ، فى فتنة وغزو شبابنا المسلم ، الذى هو أمل الحاضر ، وقوتنا للمستقبل . .

إننا لانملك إلا أن نحمد الله حقاً ، وأن نحمده كثيراً ، على ما هدانا إليه من الدعوة الصادقة المستنيرة لدينه ، بهذا الكلم الطيب ، الذى يصعد فى بحوث المفكرين الإسلاميين إليه ، وبهذا العمل الصالح ، الذى نرجو أن يتقبل جهاد شركتنا به ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . .

إننا نحمد الله ، ونحن نرى بأعيننا ، أن ثمار وعبر هذه التجربة الرائدة ، التى بدأناها منذ سبع سنوات ، قد وجدت الوقت

الكافى لتصل إلى بعيد فى أرجاء الوطن الإسلامى ، وفى أنحاء العالم الإنسانى ، تصل إلى من كانوا يبحثون عن مثلها ، وإلى من أصبحوا يستبشرون ويتمسكون بها بعد أن اطلعوا عليها ، من أبنائنا العرب المسلمين ، فى ألمانيا وإنجلترا وأمريكا وغيرها ، طلاباً ومدرسين وتجاريين . فهم يكتبون إلينا بأصدق الرجاء، أن نرسل إليهم جميع ماصدر من كتب هذه التجربة المضيئة على طريق الثقافة القرآنية المستنيرة المنشودة . .

إننا نحمد الله ، ونضاعف له الحمد والثناء ، ونحن نجد منه العون والأزر ، لنلبى حاجة المقبلين على العلم النافع ، والفكر الراشد ، والثقافة الهادية ، قائمين على التوالى بطبع الأجزاء التى سبق صدورها ، من هذه السلسلة المباركة ، تلبية لحاجة هؤلاء الأبناء الأعزاء والأخوة الأصدقاء ، بينما نواصل بفضل الله إصدار الأجزاء الجديدة منها ، وإثراء بحوثها ، ومد فروعها ، حتى تصل بثمارها وعبيرها إلى بعيد . . إلى كل من يطلبها ، ومن يفيد منها ، ومن يعتز بها ، مصدراً معاصراً غنياً حياً للثقافة الإسلامية القرآنية الأصيلة ، غير المستوردة ، وغير

المتناقضة مع العلم ، ولا مع التقدم ، ولا مع الحياة . .

وهكذا سنمضى بمشيئة الله ، وبتوفيق من الله ، علامة فى فضل الله علينا على الصدق ، وبرهاناً على الأصالة ، وبشيراً بصحوة المسلمين بدينهم الحق ، ومع مشارق القرن الخامس عشر الهجرى ؛ لنسهم فى بناء مجتمعنا السليم ، المؤمن ، بشريعة الله ، وبأخلاق القرآن ، وبعلوم العصر ، وباتجاه التقدم ، وتحت راية السلام .

والله الموفق

القاهرة فى { ١ من المحرم ١٤٠٠ هـ
٢١ نوفمبر ١٩٧٩ م }

عبدالفتاح عساكر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

مع حمد الله ، وبتوفيق منه ، وعلى نفس الطريق الواسع ، وتحت ذات الشعار الذى رفعناه من قبل : « ثقافة عصرية مستنيرة لكل الناس أساسها القرآن الكريم » نقدم هذا الكتاب الثالث من سلسلة الكتب « مع القرآن الكريم » التى يجريها سنوياً المركز الثقافى بشركتنا «المقاولون العرب» عثمان أحمد عثمان وشركاه ، وهو الكتاب الذى يتضمن البحوث النموذجية عن المسابقة الثالثة التى تم الإعــلان عنها بين العاملين فى رمضان ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

إنه بصدور هذا الكتاب الثالث يتأكد بفضل الله أن هناك واقعاً ينمو نمواً مطرداً لهذا المنهج الثقافى القرآنى التربوى الذى التزمت به شركتنا « المقاولون العرب » تجاه عامليها وأبنائها ، وأن هذا المنهج الذى أثبت أصالته وجدارته بالإقبال عليه بين الزملاء العاملين بالشركة ، وبين غيرهم من القراء المنتظمين والمتزايدين خارج الشركة ، ليس فكرة طارئة لم يلبث القائمون بها أن يتراجعوا عنها ، وليس عملا تنقصه الدراسة والتمحيص فلا يلبث أن يتعثر وتقعد به العراقيل .

فمنذ أقرت شركتنا مبدأ التثقيف الدينى الذاتى للعاملين بها من طريق هذه المسابقات القرآنية ، ومنذ بدأت المسابقة الأولى فى رمضان سنة

١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م ونجحت تماماً ، وهذا المنهج التربوى القرآنى يتطور برعاية دائمة من جميع العاملين فى « المقاولون العرب » عثمان أحمد عثمان وشركاه ليسير من حسن إلى أحسن ، وراء هدف واضح ومحدد وهو تنمية وتأسيس قابليات ومهارات العاملين الفنية على أساس الإيمان ، وتمكينهم فى ضوء ثقافة قرآنية عصرية مستنيرة من الرؤية الإنسانية الشاملة لحقوق الوطن ، وحركة العالم ، وطبيعة العصر ، ذلك أنه لايمكن الفصل بين العقيدة والإنتاج ، ولا بين الوظيفة والعضو ، وبهذا يتم لهؤلاء العاملين – مع تكامل الشخصية حول الاعتقاد والعمل – وتحصينهم أيضاً ضد وساوس وتسللات المذاهب والأفكار المستوردة التى تصبح مواجهتها ممكنة لهم ببرهان أقوى ، ونظرة أبعد ، وثقافة أعمق ، ونظرية أصدق فى فهم وتفسير الحياة والوجود والمستقبل وهى الإيمان .

ولئن كان من الممكن أن يقال إن هذه الأهداف نفسها هى ماتسعى إليه مؤسسات الدعوة الإسلامية فى الأزهر ، وفى وزارة الأوقاف ، وفى الجهود الاختيارية لبعض الجمعيات الدينية والمجلات الإسلامية – فالحقيقة أن الفارق يبدو واسعاً بين أساليب التكرار التقليدية للقديم ، والتى لاتزال تتشبث بها ولاتخرج عنها بعض هذه الجهات – وبين هذا المنهج السليم الذى تلتزمه هذه التجربة التثقيفية فى الفهم المتبصر لحقائق القرآن الكريم ، والعصرى فى التعبير عن هذا الحقائق ، والعالمى أيضاً من حيث إن هذا المنهج يكشف ويعبر عن هذه الحقائق القرآنية من خلال

رؤية شاملة لحركة العالم المعاصر ومشكلاته ، ومع مواجهة واعية بالبرهان العلمى لمذاهبه الاجتماعية السائدة . . شرقية كانت أو غربية .

من أجل هذا استطاعت هذه التجربة أن تعبر عبورها المتواصل بالنجاح إلى كثير من البلاد العربية ، والشعوب الإسلامية ، بل إنها عبرت المحيطات حتى وصلت إلى رابطة معلمى اللغة العربية بجامعات أمريكا ، وإلى عدد من أساتذة هذه اللغة بجامعة متشجان بمدينة آن أربر ، وحتى بلغت من هذا الطريق إلى المركز الإسلامى بمدينة ديترويت ولاية ميتشجان ، وإلى المركز الإسلامى بمدينة توليدو ولاية أوهيو ، وإلى دار المسلم بمدينة آن أربر التى يشرف عليها الدكتور عثمان أحمد عثمان .

لقد وصل الكتاب الأول والثانى من البحوث النموذجية لهذه المسابقات القرآنية إلى هذه المراكز من تجمعات المسلمين الحيوية فى قلب أمريكا التى تكاد تسيطر عليها الصهيونية ، وقد تزايد الطلب على نسخ من هذا الكتاب بعد أن تبين لعدد من العلماء هناك قدرة هذه التجربة ومنهجها وموضوعاتها على إضاءة الطريق الصحيح والمطلوب للثقافة الإسلامية القرآنية الهادفة ، والمدونة بلغة ومدركات هذا العصر ، ليس فقط للمسلمين والعرب المتناثرين بولايات أمريكا وإنما للطلبة الأمريكان أيضاً ، الذين زاد إقبالهم بعد انتصار ١٠ رمضان — ٦ أكتوبر على أقسام الدراسات العربية والإسلامية بالجامعات الأمريكية ، حيث تم بالفعل ترجمة بعض موضوعات الكتاب الثانى حول العلم وحقوق الإنسان فى الإسلام فى محاضرات الأساتذة المسلمين ببعض هذه الجامعات ، كما

يتحدث عن ذلك أحد الأساتذة العرب بأمريكا فى رسالته التى نشرناها فى نهاية هذا الكتاب .

الفرق واسع إذن بين هذا المنبر القرآنى العصرى لثقافة إسلامية مستنيرة تزداد حاجة الشباب إليها ، وبين المنابر التقليدية الأخرى التى لاتزال تستند إلى سيوفها الخشبية التذكارية ، كما لاتزال تعتمد على الكتب التى لم تؤلف إلا فى عصور ضعف المسلمين ، وتفرقهم ، وانتشار البدع والخرافات بينهم ، وهو فرق يدركه غالبية الشباب والمثقفين لأول وهلة . بل إنه هو الفرق الذى أشار إليه وزير الداخلية حين صرح فى حديث له حول موجة الانحراف باسم الدين ، فتكلم عن أسفه لفشل الخطباء من علماء الدين ونجاح الأفاقين . . هذا الفشل الذى نراه فى الحقيقة فشل المنهج الذى يأخذ به العلماء أكثر مما هو فشلهم بالذات . . هذا المنهج الذى يتكلم فى عصر بلغة عصر آخر . . بينما الإسلام صالح بمبادئه ودعوته وثقافته لكل عصر لا تتحقق الدعوة الناجحة إليه ، أن نفهم الإسلام من الطريق الصحيح لفهم القرآن وهو العلم بلغة القرآن . . والآخر هو أن نعيش العصر الذى نتكلم فيه إلى المسلمين عن هذا الإسلام الذى فهمنا عصره النبوى الأول ، من أصول ذلك فى الكتاب والسنة .

كذلك فإنه من الإنصاف أن لانضع على كاهل هؤلاء العلماء المجاهدين بقدر علمهم كل المسئولية عن « الدعوة الفاشلة » أو عن هذه « الرؤية المعتمة » التى ينظر بها الشباب المعاصر فى غالبيتهم إلى آفاق الدين والإيمان والقرآن . . إن علينا أن نتذكر مسئولية جميع أجهزة الإعلام . . وأن

نتذكر أيضاً هذه السوق السوداء التي راجت للتجارة بالدين ، وانتشرت بها هذه الكتب الرخيصة فى ميزان العلم والحق ، يتنافس بها مؤلفون يتكلمون فيها بغير علم ، وبغير تورع ، عن العلم فى القرآن ، أو الإعجاز فى القرآن ، ممن ثبت أنهم لايحسنون الكلام باللغة العربية ، فضلا عن تلاوتهم السوية ، أو فهمهم السليم لكتاب الله .

والآن . . فإن هذا الكتاب الثالث الذى نقدمه ونقدم له لم يخرج عن المنهج الذى التزمناه ، فتحنا به الميادين الجديدة للنظر الشامل ، والفهم السليم للقرآن الكريم . . والموضوع الأول فى هذا الكتاب وهو « مع القرآن الكريم حول أسمائه وصفاته » إنما هو مثال على الكثير من هذه الحقائق الغائبة فى ثقافة المسلمين المعاصرة . . فلماذا غلب اسم القرآن من بين أسمائه الكثيرة عليه ؟ . . وماهى دلالات ومعانى أسمائه وصفاته فى مجال الدعوة الإسلامية وأركانها . . لاشك أن الإجابة النموذجية حول هذا الموضوع ، والتى يتولاها عالم من ألمع علماء مجمع البحوث الإسلامية وهو أستاذنا الشيخ عبد الجليل عيسى . إنما تسد فراغاً كان محققاً وجوده فى ثقافة ومدارك عدد كبير من مسلمى عصرنا .

كذلك فإن الفكر الاقتصادى كما ينبغى تأصيله على مبادىء الإسلام فى بناء مجتمع العدالة الاجتماعية والسواسية فى العصر الحديث هو أحد الميادين المفتوحة أمام الفكر الإسلامى . وقد اشتمل القسم الثالث من الإجابات النموذجية فى هذا الكتاب على قدرها من هذا التأصيل للاقتصاد الاسلامى وقد أوفاه حقه من التعريف والتحديد والشرح والبيان الأستاذ عبد المغنى سعيد أحد علمائنا المتخصصين فى الاقتصاد ، والذين يسهمون فى نفس

الوقت فى إثراء الفكر الإسلامى بالكثير من الكتب الحية والمستنيرة التى تدعو للاسلام وتدافع عنه ضد خصومه على نطاق واسع .

كذلك كان من الموضوعات الجديدة فى هذا الكتاب دراسة هامةحول « القرآن الكريم والبيان » وفيها بيان مفصل عن أثر هذه اللغة العربية التى اتسعت للخلود بالقرآن الكريم ، فى نقل معانيه ، والدلالة عليه ، والتأثير به . فاللغة العربية كانت ولا تزال من صميم الدين فى الإسلام، وهى شرط لصحة الفهم ، وصحة العبادة ، الأمر الذى يوجب علينا أن نستعيد إدراك أهمية اللغة فى حياة المسلمين وبخاصة أبناء الأمة العربية الذين عاشوا أمجادهم وحضارتهم وقوميتهم بهذه اللغة التى حملت إليهم الإسلام ، وحملتهم إلى ذروة العزة بالإسلام . ومن الشعور الأمين بأهمية اللغة العربية فى حياتنا تتعزز الدعوة إلى تقوية وتعزيز برامج تعليم اللغة العربية فى جميع مراحل التعليم ، والدعوة أيضاً إلى الاستزادة المستمرة من تعلمها من أجل هدف القراءة الصحيحة والفهم السليم للقرآن الكريم بين جميع المتعلمين والمثقفين الذين لايزال أكثرهم مع الأسف يتكلم اللغة العربية — لغته الوطنية والقومية— برطانة أجنبية .

ولقد أوفى موضوع « البيان » حقه الأستاذ عبد الكريم الخطيب أحد أحد العلماء المتخصصين فى أصول لغتنا ، وصاحب أحد التفاسير الذائعة بصدقها وخلوها من التزيد فى فهم القرآن الكريم . كما شارك فى معالجة موضوع « البيان » ببحث إضافى ممتع أستاذ متخصص فى فقه اللغة العربية مقارناً باللغات الأخرى ، وهو أستاذ الثقافة الإسلامية حالياً بجامعة الرياض الأخ الدكتور رشاد محمد خليل .

هذا غير الموضوعات الأساسية المستمرة حول « العلم » و « الشريعة » و « القومية العربية » والتى لا تزال الإجابات عنها وحولها تقدم إضافات جديدة فى مجال ثقافة القرآن الكريم وعلومه وقد استهلت الإجابة عن « القومية العربية » بمقدمة أساسية تضمنت بيان الأهمية التى حفل القرآن الكريم وتاريخ ظهور الإسلام بشأن هذه القومية العربية المؤمنة التى هى القاعدة والأساس لمفهوم الدعوة الإسلامية فى الوطن العربى .

* * *

على أنه فى هذا الكتاب الثالث ، كما حدث فى الكتابين الأول والثانى ، قد يجد بعض الناس بعض ما يخالف آراءهم الموروثة بحكم العادة ، وليس بحكم الحقيقة والحجة واليقين العلمى ، وإلى هؤلاء نقول إن قلوبنا وعقولنا مفتوحة لنقد الآراء ومناقشتها وتمحيصها ، وأن الحجة العليا هى دائماً للنص القرآنى ، وللحديث الصحيح الذى هو دائماً تأكيد وتمسك وانتصار لهذا النص .

وفى باب « القرآن الكريم والعلم » حيث قدم الأستاذ أحمد موسى سالم دراسة علمية مؤيدة بالنصوص القرآنية القاطعة ، حول أهمية عدم الخلط فى المعنى بين كلمتى « الآية » و « المعجزة » كما نص عليهما استعمال القرآن الكريم ، وحول ضرورة تخليص قصة « الإسراء والمعراج » من الخرافات الموضوعة ، ووجوه الخلافات التى يحسمها القرآن الكريم حسماً لا إبهام فيه — فإن البعض من الناس قد يخالف برأيه الموروث بعض ما ورد بهذه الدراسة المؤيدة بالنص ، وإلى هؤلاء نقول إن الخلاف مع ثبوت النص ليس خلافاً ، وإنما هو تشبث إلى حين

بما لا سند له . وإن أعظم ما يقدمه الإيمان للمؤمن ، وما يمنحه النظر السليم بالإيمان إلى كتاب الله هو التنزه عن مجافاة النص القرآنى مع وجوده ، والتورع عن التعسف فى فهمه ، وعن هجر العلم الذى يقوم النص برهاناً عليه ، وأمراً واجب الطاعة من الله بالتزامه بعد فهمه .

على أننا مع كل التفاعل الصحى ، ومن أجل تنمية هذا التفاعل فى استخلاص الصحيح والباقى والعلمى من كتاب الله وثقافة القرآن — نؤكد أن صدق الاجتهاد ينفى التعصب للرأى ، وأن حب العلم فى ضوء الإيمان لا يعنى أن نبغض المخالفين لنا بل ندعو لهم ، ولا أن نندد بهم ، بل نطيل الحوار معهم ، ونتلطف فى الحديث إليهم ، ونرجو بكل قلوبنا أن تتحقق الهداية لهم . .

إننا — بهذه القلوب المفتوحة ، والمحبة ، والمبرأة من التعصب والمحاجة — نقدم مع عظيم الحمد لله هذا الكتاب ، ثمرة خالصة للجميع ، من جهد من أسهموا فيه من العلماء ، ومن عاونوا فيه من العاملين ، ومن تطوعوا بتشجيعه وتأييده من جميع فئات المواطنين فى مصر ، والوطن العربى ، والعالم الكبير .

إننا نقدمه للمتفقين والمختلفين معاً . . نقدمه للعاملين بشركتنا ولغيرهم . . نقدمه للمسلمين وغير المسلمين . . نقدمه ابتغاء وجه الله ، والحق . . بقلوب سليمة ، مفتوحة . . إلى كل من يتدبرون هذا القرآن بمثل هذه القلوب التى ليست عليهـــا أقفالها . . ولكل من يحاولون ذلك بالصدق والتفتح ، وسلامة القصد . والله يهدى الى سواء السبيل .

القاهرة فى { ١٤ رجب ١٣٧٥ هـ / ٢٢ يوليو ١٩٧٥ م }

عبدالفتاح عساكر

بحوث القسم الأول

مع القرآن الكريم

حول أسمائه وصفاته

يجيب عنه

الشيخ عبد الجليل عيسى

عضو مجمع البحوث الإسلامية

السؤال الأول :

فى كتاب الله أكثر من اسم للقرآن الكريم مثل : الفرقان ، الذكر ·· اذكر عشرة من أسماء القرآن التى وردت فى آياته ، واشرح معناها فى الآيات التى وردت بها ·

الإجابة :

نذكر من أسماء القرآن الكريم التى وردت فى آياته الأسماء العشرة الآتية ، ثم نعود فنشرح معانيها ، وهى : القرآن ، الفرقان ، البرهان ، الكتاب ، الذكر ، الحق ، النور ، الوحى ، التنزيل ، الهدى .

١ — القرآن :

قال فى لسان العرب : القرآن : التنزيل العزيز ، يقال : قرأه .. قرءاً . وقراءة .. وقرآناً ، الثلاثة مصادر .

وقال أبو اسحق النحوى ، يسمى كلام الله تعالى الذى أنزله على نبيه — صلى الله عليه وسلم — « كتاباً » و « قرآناً » و « فرقاناً » .

ومعنى القرآن : الجمع ، وسمى قرآناً ، لأنه يجمع السور فيضمها بعضها إلى بعض . وقوله تعالى :

« إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » (القيامة : ١٧)

أي : جمعه وقراءته .

« فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » (القيامة : ١٨)

أي : قراءته . وقال ابن عباس ، فإذا بيناه لك بالقراءة فاعمل بما بيناه لك .

ثم قال : وقرأت الكتاب قراءة ، وقرآناً ، ومنه سمى القرآن لأنه جمع القصص ، والأمر ، والنهى ، والوعد ، والوعيد ، والآيات والسور بعضها إلى بعض .

وقرأ على صاحبه السلام يقرؤه . أي : أبلغه . ويقال : أقرئ فلاناً السلام . أى : أبلغه .

قال الراغب : القراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل ، وليس يقال ذلك لكل جمع ، فلا يقال قرأت القوم : جمعتهم .

والقرآن فى الأصل مصدر ، نحو : غفران ورجحان ، وقد جاء بهذا اللفظ والمعنى اسماً على الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أن التوراة بمعنى (النور) اسم لما أنزل على موسى ، وكما أن الإنجيل بمعنى (البشارة) اسم لما أنزل على عيسى ، وبذلك يكون القرآن بمعناه اسما لكتاب الله الجامع لثمرة كتبه السابقة ، بل الجامع لثمرة جميع العلوم ، كما أشار سبحانه إلى ذلك بقوله :

« وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » (يوسف : ١١١)

وقوله :

« تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » (النحل : ٨٩)

٢ — الفرقان :

الفرق يقارب الفلق فى المعنى ، لكن الفلق يقال إعتباراً بالانشقاق، بينما الفرق يقال إعتباراً بالإنفصال ، يقول الله :

« وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ » (البقرة : ٥٠)

والفرق — بكسر الفاء — القطعة المنفصلة . ومنه الفرقة للجماعة المنفردة من الناس ، والفرقان أبلغ من الفرق — بفتح الفاء — لأنه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل فرقاً جليا بغير شبهة ، بينما الفرق يستعمل فى هذا المعنى وفى غيره .

وقوله تعالى :

« يَوْمَ الْفُرْقَانِ » (الأنفال : ٤١)

أى : اليوم الذى يفرق فيه بين الحق والباطل ، والحجة والشبهة .
وقوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا » .
(الأنفال : ٢٩)

أى نوراً وتوفيقاً على قلوبكم ، يفرق بين الحق والباطل .فالفرقان

هنا كالسكينة والروح – بالراء المشددة المفتوحة – مما هو الوجدان المصاحب ليقين النفس المؤمنة بالحق ، واطمئنانها إلى ثباته .

وقوله تعالى :

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » (الأنفال : ٤١)

قيل : أريد به (يوم بدر) ، وهو : أول يوم فرق فيه بالنصر بين الحق والباطل .

بهذا المعنى جاء (الفرقان) اسما على كلام الله تعالى لفرقه بين الحق والباطل فى الاعتقاد ، وبين الصدق والكذب فى المقال ، وبين الصالح وغير الصالح فى الأعمال ، وقد جاء ذلك عاماً فى القرآن والتوراة والإنجيل ، يقول الله تعالى :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ » (الأنبياء : ٤٨)

ويتعين « الفرقان » اسما للقرآن الكريم فى قوله تعالى :

« تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » (الفرقان : ١)

وقوله تعالى :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » (البقرة : ١٨٥)

٣ — البرهان :

ومن أسماء القرآن الكريم « البرهان » .

والبرهان هو : البيان للحجة ، المؤيد لها بالأدلة يقال : بره الرجل ببره — على وزن فتح — إذا كان أبيض خالص البياض . يقال : رجل أبره ، وامرأة برهاء ، إذا كانا أبيضين بياضاً ناصعاً مشرقاً ، ومن هنا جاء التشبيه ببياض الحجة وإشراقها كبياض الحق وإشراقه . فأصبح يقال : أبره الرجل ، أى : جاء بالبرهان الأبيض الناصع المبين على ما يقول . فالبرهان — أى الحجة المشرقة البيضاء بنور الحق هو أوكد الأدلة ، وهو الذى يقتضى الصدق أبداً لا محالة ، وفى هذا يقول الله تعالى :

« قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ » (البقرة : ١١١)

هذا برهان الناس على صدقهم كلما إحتاجوا إلى الدليل الذى لا يرد. وفى تقديم الدليل والبرهان يقال : أبره الرجل على قوله . ولا يقال : برهن ، وذلك رجوعاً إلى أصل المعنى فى جذوره ، وهو : البره ، بمعنى البياض .

من هذا البياض والإشراق للحجة سمى الله القرآن الكريم ، الدال بآياته على أنه كلام رب العالمين (برهاناً) وفى ذلك يقول :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا » (النساء : ١٧٤)

فى هذه الآية يجمع الله تعالى بين البرهان والنور المبين وصفاً للقرآن الكريم ، فالبرهان هو : النور المبين ، الذى يرى الناس فيه الطريق إلى الحق والحجة ، فلا تتفرق بهم السبل ، ولا تتشابه أمامهم المسالك ..

« وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ » (النور : ٤٠)

٤ – الكتاب :

وقال الراغب : الكتب – بسكون التاء : الضم ، يقول العربى : كتبت الأديم إلى الأديم ، أى : ضممت الجلد إلى الجلد بالخياطة ، والمقصود جلد القربة أو السقاء ، ومن ذلك جاء معنى « الكتابة » . وهو : ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط .

فالأصل فى الكتابة النظم بالخط ، ويستعار كل واحد منهما بالآخر ، ولهذا سمى كلام الله وإن لم يكتب (كتاباً) كقوله تعالى :

« الٓم ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ » (البقرة : ١–٢)

فالكتاب فى الأصل مصدر ، ثم سمى الشيء المكتوب فيه كتاباً من ورق أو غيره ، وفى قوله تعالى :

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ »
(النساء : ١٥٣)

فهم يعنون بذلك : صحيفة فيها كتابة .

ويقول الله فى الكتاب بمعنى المكتوب :

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ »
(الأنعام : ٧)

ويأتى الكتاب فى غير معنى الخط ، بل بمعنى الإثبات والتقرير والإيجاب والفرض وذلك فى مثل قوله تعالى :

« كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى » (المجادلة : ٢١)

وقوله :

« قُل لَّنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا » (التوبة : ٥١)

وقوله :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » (البقرة : ١٨٣)

أى فرضه عليكم .

ويقول الله فى اليهود :

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ » (آل عمران : ٧٨)

معنى الكتاب الأول : ما كتبوه بأيديهم من عندهم . ومعنى الثانى : التوراة . ومعنى الثالث : جنس كتب الله المنزلة .

وقوله تعالى :

« وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ»

(يونس : ٣٧)

فالمراد هنا ما تقدم من كتب الله غير القرآن الذى جعله الله مصدقاً لما سبق منها وقوله تعالى :

« وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتَابِ كُلِّهِ » (آل عمران : ١١٩)

يريد به : الكتب المنزلة كلها ، أراد بالكتاب الجنس ، فصح معنى الجمع .

ويأتى الكتاب إسما للقرآن الكريم فى قوله تعالى :

« الٓر • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ » (الحجر : ١)

وقوله تعالى :

« طسٓمٓ • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » (القصص : ١-٢)

٥ — الذكر :

يراد بكلمة : الذكر أحياناً : هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يجمعه من المعرفة ، وهو بهذا المعنى كالحفظ إلا أن الحفظ ، يقال إعتباراً بإحرازه ، والذكر يقال إعتباراً بإستحضاره.

وأحياناً أخرى يراد بكلمة (الذكر) حضور المعنى على القلب ، أو على اللسان ، وكل منهما نوعان : ذكر عن نسيان،وذكر لاعن نسيان، بل عن إدامة الحفظ والتذكر ، وكل قول يقال له ذكر ، فمن الذكر باللسان قوله تعالى :

« لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » (الأنبياء : ١٠)

وقوله :

« وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ » (الأنبياء : ٥٠)

ومن الذكر بالقلب قوله تعالى :

« فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ » (البقرة : ١٩٨)

وقوله :

« وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ » (البقرة : ١٩٨)

ويأتى الذكر تخصيصاً بأنه قول الله وكلامه المذكر به . والواعظ بحكمته فى مثل قوله :

« إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » (ص : ٨٧)

وذلك حيث نجد كلمة (ذكر) وهى مصدر تقوم بعمل اسم الفاعل وهو (مذكر) كما يقال : رجل عدل . والمقصود رجل عادل .

ومن هنا يأتى « الذكر » اسما لكل كتاب منزل وذلك فى مثل قوله تعالى :

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » (الأنبياء : ١٠٥)

أى من بعد الكتاب الذى نزل قبله وهو التوراة .

ويحمل القرآن الكريم من أسمائه اسم (الذكر) وذلك فى قوله تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الحجر : ٩)

وقوله :

« أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِى » (ص : ٨)

وقوله :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » (فصلت : ٤١)

٦ — الحق :

أصل الحق : المطابقة والموافقة لحكمة الخالق ، سواء فى حركة الأشياء والموجودات ، أو فى قول الإنسان وعمله .

والحق بهذا المعنى يقال على أربعة أوجه :

الأول — يقال للذى خلق الأشياء والأحياء بسبب ما تقتضيه الحكمة ، وهو الله الذى من أسمائه (الحق) وذلك حيث يقول سبحانه :

« ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » (الأنعام : ٦٢)

وحيث يقول :

« فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ » (يونس : ٣٢)

الثانى — يقال لفعل الله الذى خلق كل شىء وحركه بمقتضى الحكمة: إنه كله حق ، وذلك حيث يقول سبحانه :

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا » (يونس : ٥)

إلى قوله تعالى :

« مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ » (يونس : ٥)

وفى مثل قوله عن يوم القيامة :

« وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ »
(يونس : ٥٣)

الثالث — فى الاعتقاد المطابق لما عليه الأشياء كما هى فى مقتضى حكمة الله ، وذلك كاعتقاد المؤمن أن البعث والحساب ،والثواب والعقاب ، والجنة والنار — حق .

وفى هذا يقول الله تعالى :

« فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ »

(البقرة : ٢١٣)

الرابع — يقال للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، وبقدر مايجب ، وفى الوقت الذى يجب ، وذلك كقولنا : فعلك حق ، وقولك حق . يقول الله تعالى :

« وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » (غافر : ٦)

فهى لا تحق — كما ذكرنا — إلا بحسب ما يجب ، وبقدر ما يجب. وفى الوقت الذى يجب ، ومثل قوله تعالى : عن يوم القيامة :

« الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ » (الحاقة : ١، ٢)

وهذا كله من الحق .

ولما كان الحق بهذه المعانى هو غاية المؤمن ، ومدار قوله وعمله ، فقد ورد فى المخاصمة فى الحق قولهم ، حاققته فحققته ، أى : ظهرت بالحق ومن أجل الحق عليه .

من أجل هذا حمل القرآن الكريم اسم (الحق) من بين أسمائه ، لأنه قول الله الحق ، والهادى بالحق إلى الحق ، وذلك حيث يقول تعالى :

« وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ »

(محمد : ٢)

ويقول سبحانه :

« وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ » (الرعد : ١)

٧ — النور :

النور ضد الظلمة ، وهو الضوء المنتشر الذى يعين على الإبصار وهو نوعان : دنيوى ، وأخروى ، فالدنيوى نوعان أيضاً : نور محس يقع على العين ، فتعكس الأشياء والموجودات ، وهى تبصرها ، ونور تعقله البصيرة ، وراء البعد ، وهو ما انتشر وحضر على القلب من نور العقل ، ونور القرآن .

فمن النور الذى يعين على البصر : نور الشمس والقمر فى قوله تعالى :

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والْقَمَرَ نُوراً » (يونس : ٥)

ومن النور الإلهى الذى تعقل به البصيرة ، أسباب الهدى والحق قوله عن الإيمان والحياة :

« أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فى النَّاسِ » (الأنعام : ١٢٢)

وقوله عن الهدى إلى الإسلام :

« أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رَّبِّهِ » (الزمر : ٢٢)

ومن هذا النور كتاب الله الذى يهدى به . والذى كان واحداً من أسماء القرآن الكريم . وذلك فى قوله تعالى :

« قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ » (المائدة : ١٥)

وقوله تعالى :

« فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا » (التغابن : ٨)

أما النور الأخروى ففى مثل قوله تعالى فى وصف حال المؤمنين يوم القيامة :

« يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (التحريم : ٨)

٨ – الوحى :

والوحى كذلك من أسماء القرآن الكريم . وقد جاء هذا نصاً فى قوله تعـالى :

« قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ » (الأنبياء : ٤٥)

وفى قوله سبحانه :

« وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » (طه : ١١٤)

وأصل الوحى : الرسالة ، والإلهام ، والكلام الخفى ، والإشارة العاجلة اللامحة ، التى تقوم مقام القول الصريح ، وذلك بأن تكون هذه الإشارة (رمزاً) يفيض به (الأمر) المراد فى نفس الموحى إليه ، وإدراكه بغير هيئة الكلام المعروف فى ألسنة البشر ، وقد تختلف أشكال هذه الإشارة ، بحيث لا يفهمها إلا المقصود بها .

ولهذا يسمى الله كل ما يلقيه إلى أنبيائه ورسله : وحياً ، إذ لا يفهمه ولا يعرف دلالته إلا الموحى إليه من ربه ، فإن اشتمل الوحى على الأمر بتبليغه قام المأمور به بذلك ، وإلا أمسك عن تبليغه ، واعتبره أمراً خاصاً به . وفى هذا يقول الله عن عامة كلامه للبشر :

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ » (الشورى : ٥١)

وكما يقول سبحانه :

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ » (النساء : ١٦٣)

وقد يكون الوحى من الله تعالى لغير الأنبياء ، كما فى قوله تعالى :

« وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » (القصص : ٧)

وقد يكون بمعنى الإلهام لما دون الإنسان من الحيوان وذلك فى قوله تعالى :

« وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » . (النحل : ٦٨)

كما سمى الله أمره إلى السموات لتتحرك وتدور بأجرامها ونجومها ومجراتها بعلمه وسننه (وحياً) منه فيها ، وذلك فى قوله تعالى :

« فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » (فصلت : ١٢)

وعلى هذا كان إطلاق لفظ الوحى على كلام الله للأنبياء ، وعلى القرآن الكريم ، لأن الله سبحانه عندما اختار أفضل كلام البشر بياناً عن الهدى والحق والمعروف والبشير والنذير ليجعل كلامه من جنسه فهو قد أوحى فى هذا الكلام — كما هو ظاهر فى القرآن الكريم — علمه تعالى ، وحكمته ، وشرعه ، وحكمه ، وبشائره ، و نذره ، ثم جعل من هذا الكلام الذى فيه أوحى به (كلامه) تعالى الذى يعلو به على كل كلام ، والذى تتسع حكمته لاحتواء كل حكمة ، والذى يقترب نواله وهديه لكل عقل ، ولكل قلب . . فى كل أمة وجيل وعصر .

وهكذا كان القرآن الكريم ولا يزال هو هذا الوحى المشرق فى كتاب الله . الخالد فى حكمه ، والثابت فى علمه ، والمحفوظ فى وعده ، كما تلقاه النبى — صلى الله عليه وسلم — بالصورة التى لم يطلع عليها من البشر غيره ، وكما سجل الله بها أحد أحب أسماء القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى » (النجم : ٤)

٩ — التنزيل :

ومن أسماء القرآن الكريم التى تشرق ببعض جوانبه (التنزيل) . وذلك فى مثل قوله تعالى :

« وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (الشعراء : ١٩٢)

والتنزيل من النزول ، والنزول فى معناه العام : الحلول بعد رحلة ، ويقال : نزل الرجل القوم ، أو نزل بهم ، أو نزل عليهم ، إذا حل بدارهم ضيفاً .

والمنزل : المنهل ، والدار ، والمنزلة : المكانة والدرجة . والنزل : بضم النون والزاى — هو : ما يقدم للضيف من طعام ورعاية ، وهو أيضاً العطاء والبركة ، ومن هذا قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » (الكهف : ١٠٧)

أى منزلا وقرى وإكراماً وفضلا وبركة من الله تعالى .

والله سبحانه أنزل القرآن إنزالا ، أى : إستقر به بعد رحلة الوحى عند النبى صلى الله عليه وسلم ، ليبلغه وينذر به ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » (ص : ٢٩)

وفى قوله :

« إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (يوسف : ٢)

والله سبحانه نزل القرآن تنزيلا ، والمقصود أنه نزل به فى مهلة وأناة ، ليكون للنبى اطمئنان إلى وعيه وحفظه ، كما نزل ، وفى ذلك يقول تعالى : لنبيه :

« لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » (القيامة : ١٦، ١٧)

وكذلك فإن المقصود من الأناة والمهلة فى معنى التنزيل واضح فى قوله تعالى :

« وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا » (الإسراء : ١٠٦)

أى نزله الله بعد الدعوة تنزيلا مطمئناً ، متابعاً للأحداث ، وملاحقاً للمدعوين ، مشرقاً عليهم من كل جانب ، وفى كل موقف ، وعند كل حاجة أو مسألة ، حتى أتم الله به النعمة على المؤمنين ، وأكمل به الدين ، ليستقر قرار « التنزيل » بعد ذلك فى صدور المسلمين ، وفى حياتهم ، إذ هو كما قال تعالى ، وكما سيبقى :

« تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » (فصلت : ١)

١٠ ـ الهـدى :

الهداية : لطف الدلالة إلى الخير والحق ، ومنه الهدية ، وهى : لطف الدلالة على الود والحب . ومن المعانى الأولية للهدى أنه : (النهار) ، إذ تكون فى ضيائه الهداية إلى الطريق الصحيح ، وفى هذا المعنى الحسى يقال : هداه الله الطريق ، وهداه له ، وهداه إليه ، ومن هذا الأصل يتسع المعنى ليصبح الهدى فى عمومه وشموله إلى الله ، وإلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم فى رحلة الحياة .

ومن معنى الهداية إلى الطريق فى السفر والسير والطيران تأتى كلمة « الهادى » و (الهوادى) لحيوانات والطيور التى تتقدم كالدليل المرشد أسرابها وجماعاتها لتهديها إلى المسار الصحيح فى رحلاتها وسعيها وهجرتها . والهوادى من الإبل : المتقدم منها أمام قطعانها ، والهدى منها : ما سيق إلى مكة من الإبل فى مواسم الحج قربى إلى الله .

وأما الهداية من الله للإنسان فهى على أربعة أوجه :

الأول : الهداية الفطرية ، التى أودعها الله بفطرة الحق فى عموم البشر ، من العقل والفطنة ، والمعارف الضرورية ، التى يدرك بها الإنسان فى مطالع مسئوليته ورشده فارق الصواب من الخطأ ، والحق من الباطل ، والنافع من الضار ، وفى هذه الهداية بالحق يقول الله :

« وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى » (الأعلى : ٣)

الثانى : الهداية التى جاءت على ألسنة الرسل ، ونزلت بها كتب الله وشرائعه ، وفى هذه يقول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » (يونس : ١٠٨)

الثالث : التوفيق بالهداية لمن يخصهم الله بالهدى ، وهو المعنى المقصود فى قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » (محمد : ١٧)

وقوله تعالى :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (العنكبوت :٦٩)

الرابع : الهداية فى الآخرة إلى الجنة وهى المقصودة فى قوله تعالى :

« وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِرَاطِ الْحَمِيدِ » (الحج : ٢٤)

وهذه الأوجه الأربعة من الهداية مترتبة بعضها على بعض ، فمن لم يحصل له الوجه الأول منها وهو هداية الفطرة ، لا يصح له الثانى . ومن لم يبلغ الهداية الثانية ، لا يدرك الثالثة والرابعة ، وهذه الهداية بأقسامها كلها قد اختص الله وحده بها . فالهدى من الله وليس من الرسل ، أو الدعاة ، أو الأئمة ، أو غيرهم ، وإنما هم مبلغون لما تكون الهداية به وإليه من الله سبحانه وتعالى .

وذلك واضح فى قوله تعالى لنبيه — صلى الله عليه وسلم :

« لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ »
(البقرة : ٢٧٢)

وفى قوله سبحانه وتعالى :

« إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ »
(القصص : ٥٦)

ويوجه الله العباد إلى أن يتحروا أسباب الهداية لذلك تجاوباً مع ما أودع فى فطرتهم من طلبها وذلك حيث يقول :

« مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » (الإسراء : ١٥)

فإن الاهتداء هنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية ، ومن الاقتداء بالمؤمنين العاملين ، ومن تحرّيها عند الصادقين من أهل العلم ، ومن مباشرة فهم القرآن الكريم بالمداومة على تلاوته ، وحسن الإنصات إليه ، ومن التفكر فى خلق السماوات والأرض ، وفى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وبذلك يضيق طريق المعصية وراء المؤمن ، ويتسع أمامه طريق الهداية ويزداد هدى الله له إشراقاً فى حسه ونفسه وعمله .

ولم يكن عجباً بعد ذلك أن يكون (الهدى) من أسماء القرآن الكريم وذلك فى مثل قوله تعالى :

« الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »

(البقرة : ١–٢)

وفى قوله تعالى :

« وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ » (الجن : ١٣)

وفى قوله :

« وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ » (النجم : ٢٣)

* * *

السؤال الثانى :

اذكر عشر صفات مما ورد فى كتاب الله عن القرآن الكريم ، واشرح معناها فى الآيات التى وردت بها .

الإجابة :

نذكر من صفات القرآن الكريم التى وردت فى آياته الصفات العشر الآتية ، ثم نعود فنشرح معانيها وهى : العربى ، المبين ، العجب ، المبارك ، ذو الذكر ، المصدق ، الحكيم ، العزيز ، الكريم ، المجيد .

١ — العربى :

صفة (العربى) هى أولى الصفات الأساسية للقرآن الكريم كما وردت فى كتاب الله من حيث إنها هى الصفة التى تحدد من أول الأمر هـذا الارتباط الوثيق بين القرآن بوصفه كلام الله ، وبين الأمة العربية التى نزل بلسانها ، والنبى العربى الذى نزل عليه ، والحق المبين الذى نزل به . وهو ارتباط قائم بين أطراف الدعوة فى صفة (الوضوح) الذى هو بطبيعة الحق أول ما يميزه بين الناس .

فالعربى فى صفة القرآن فى قوله تعالى :

« قُرْآنًا عَرَبِيًّا » (يوسف : ٢)

تعنى : الفصيح البين من الكلام ، وتعنى المفصح المبين . والإعراب يعنى الإبانة والبيان . ولو لم يكن القرآن (عربياً مبيناً) ما كان حجة للحق المبين . . على أهل البيان ، وهو ينزل بلسانهم ، على رسول منهم .

فى هذه الحجة الظاهرة يقول الله لمن أنزل عليهم :

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ » (فصلت : ٤٤)

ويقول فى نزوله عربياً ، من جنس كلام الرسول :

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (الدخان : ٥٨)

ويقول أيضاً :

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ » (الشعراء : ١٩٨ - ١٩٩)

ويقول الله فى صفة الحق الذى نزل به هذا القرآن ، وأنه عربى مبين

« وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِياً » (الرعد : ٣٧)

أى حاكماً بالقول ، يحق الحق ، ويبطل الباطل بغير إبهام . ويقول سبحانه أيضاً :

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »

(الزمر : ٢٧ ، ٢٨)

٢ ــ المبين :

ويصف الله القرآن تأكيداً لأنه (عَرَبِيٌّ) بأنه (مُبِينٌ) وذلك حيث يقول سبحانه :

« طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ » (النمل : ١)

وحيث يقول :

« قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ » (المائدة : ١٥)

والبيان هو الكشف عن الشيء وإظهاره بأداة اللغة الصالحة لذلك ، وهو أعم من النطق فى كلام الإنسان . ويرى البعض أن البيان على وجهين : أحدهما بيان بقصد التعجيز ، وهو ما كان يطلبه المشركون من رسلهم من الآيات الدالة على صدق دعوتهم وذلك فى مثل قوله تعالى :

« تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » (إبراهيم : ١٠)

والآخر : بيان بالاختيار ، وهو إما أن يكون نطقاً ، أو كتابة ، أو إشارة وذلك فى مثل قوله تعالى :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »

(النحل : ٤٤)

ويسمى ما يشرح المجمل والمبهم من الكلام (بياناً) ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » (القيامة : ١٨)

٣ ـ العجب :

وجاء فى صفات القرآن الكريم قوله تعالى :

« إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ »

(الجن : ١ ، ٢)

العجب والتعجب حالة تعرض للنفس ، أمام شىء أو أمر مثير ، لا يعرف سببه .

يقال : عجبت عجباً ، ويقال للشىء الذى يتعجب منه : (عجب) كما يقال لمـــا لم يعهد مثله : (عجيب) وفى بيان هذا المعنى يقول الله تعالى :

« أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ » .

(يونس :٢)

وقوله تعالى :

« وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ » (الرعد : ٥)

وقوله تعالى :

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » (الكهف : ٩)

وأما قوله تعالى :

« أَجَعَلَ ٱلآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » (ص:٥)

فإن المعنى : عجيب جداً . وذلك مثل قولهم : رجل طوال – بضم الطاء – على وزن (عجاب) . أى : طويل جداً .

٤ – المبـــــارك :

ويصف الله القرآن الكريم بأنه (مبارك) وذلك فى قوله تعالى :

« وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ » (الأنعام : ١٥٥)

والمبارك من البركة ، والبركة معناها : ثبوت الخير الإلهى فى الشىء .
وذلك فى مثل قوله تعالى :

« لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ » (الأعراف : ٩٦)

وقوله تعالى :

« وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا » (ق : ٩)

وأصل البركة من برك البعير ، أى : ألقى بركبه ، ونزل بصدره ، فهى هنا تعنى الاستقرار والاطمئنان ، اللذين هما أصل كل زيادة ونماء .
وصدر البعير الذى هو أول ما يبرك به يسمى (البرك) . فإذا ما برك البعير بصدره ، أعطى ذلك من معانى الاستقرار حال الالتزام والثبات .
ومن ذلك جاء قولهم (ابتركوا فى الحرب) . أى ثبتوا ، ولازموا موضع القتال وما يلزمه .

فالمبارك فى صفة القرآن الكريم هو : ما فيه الثبوت والاستقرار لكل ما فيه من الحق والخير . وهذا معنى قوله تعالى :

« وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ » (الأنبياء : ٥٠)

وقوله تعالى :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » (٢٩ ص)

وأما قوله تعالى على لسان عيسى بن مريم :

« وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ » (مريم ٣١)

أى جعله موضعاً للخيرات الإلهية ، وقوله تعالى :

« إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ » (الدخان : ٣)

وقوله تعالى :

« رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكاً » . (المؤمنون : ٢٩)

فالمعنى فى الآيتين : أى حيث يوجد ويكون الخير الإلهى .

وأما قوله تعالى :

« تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّماءِ بُرُوجًا » (الفرقان : ٦١)

فهو تنبيه على ما يفيضه علينا سبحانه من نعمة بواسطة أجرام السماء وميزانها فى بروجها ، ومثل ذلك قوله تعالى :

« فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » . (المؤمنون : ١٤)



وقوله :

« تبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفرْقَانَ » . (الفرقان : ١)

فمعناه كله التنبيه على اختصاصه تعالى بنعمة الخلق ، وخيرات القرآن، وكل ما جاء ذكره من هذه الخيرات بعد قوله تعالى : (تبارك) .

٥ – ذو الــــذكر :

ويصف الله القرآن الكريم بأنه (ذى الذكر) وذلك فى قوله تعالى :

« صٓ وَالْقرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » . (ص : ١)

أى : القرآن صاحب الصيت العالى ، والشرف الرفيع . كما أن من معانى الذكر : التذكير والعظة بكلام الله ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِين » (ص : ٨٧)

وقوله تعالى :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فهَل مِن مُدَّكِرٍ » (القمر : ١٧)

أى يسرناه للتذكير بالحق . والعظة به .

وكلمة (ذو) يتوصل بها فى اللغة العربية إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع ، وهى تثنى وتجمع ، و تذكر وتؤنث . يقال فى المؤنث : ذات ، وفى المثنى : ذواتا ، وفى الجمع ذوات ، ولا يستعمل شىء منها إلا مضافاً فى مثل قوله تعالى :

« وَلَـٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » (البقرة : ٢٥١)

وقوله تعالى :

« ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى » (النجم : ٦)

وقد استعار أصحاب المعانى (الذات) فجعلوها تعنى (عين الشيء) ، جوهراً كان أو عرضاً ، واستعملوها مفردة ومضافة إلى المضمَر ، وبالألف واللام وأجروها مجرى النفس والخاصة ، فقالوا : (ذاته) بمعنى نفسه وخاصته ، وليس ذلك من كلام العرب .

وتأتى كلمة (ذو) على وجه آخر فى لغة كانت لقبيلة طيء حيث جرى استعمالها فى موقع استعمال (الذى) ، وكانوا يأتون بها فى حركات الإعراب . وفى الجمع والتأنيث على لفظ واحد فيقولون : هذه بئرى ذو حفرت ، وذو طويت ، أى : التى حفرت ، والتى طويت .

٦ – المصـــدق :

الصدق أصله يكون فى القول ، ويعنى المطابقة بين القول والضمير وحال الخبر معاً ، والكذب بخلاف ذلك والصدق فى القول يشمل ما كان من خبره ماضياً ومستقبلا ، أو وعداً أو وعيداً ، أو غير ذلك . والصدق بهذا المعنى يأتى فى مثل قوله تعالى :

« وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا » . (النساء : ١٢٢)

وقوله :

« وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » . (النساء : ٨٧)

والصديق — بتشديد الدال — من أكثر من الصدق : وقيل : بل يقال لمن لم يكذب قط .

وقيل : بل لمن صدق قوله واعتقاده ، وحقق صدق فعله صدق قوله، وفى هذا المعنى يقول الله :

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا » (مريم : ٤١)

ويقول سبحانه :

« وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ » (المائدة : ٧٥)

وقد يستعمل الصدق ونقيضه فى كل ما يحق ويحصل فى الاعتقاد ، نحو : صدق ظنى أو كذب . كما يستعملان فى أفعال الجوارح فيقال : صدق فى القتال ، إذا أعطى القتال حقه . وفعل للنصر كل ما يجب . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى :

« رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » (الأحزاب ٢٣)

أى : حققوا العهد بما أظهروه من أفعالهم . وقوله تعالى :

« لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ » (الأحزاب : ٨)

أى : يسأل من صدق بلسانه عن صدق فعله ، تنبيهاً إلى أنه لا يكفى الاعتراف بالحق دون تحريه بالعمل ، وقوله تعالى :

« لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » (الفتح : ٢٧)

فهذا صدق بالفعل ، وهو التحقق لمـــا جاءت به الرؤيا من بشارة الفتح . ومثل ذلك قوله تعالى :

« وَالَّذِى جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ » (الزمر : ٣٣)

أى : حقق ماأورده قولا بما تحراه فعلا .

وصدق — بتشديد الدال — يصدق تصديقاً ، أى حقق الصدق بقوله وعمله ، وأقام بهما البرهان عليه . يقول الله لإبراهيم وهو يتهيأ لذبح ولده إسماعيل تصديقاً لأمر الله فى الرؤيا :

« وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا »

(الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥)

وقوله عن مريم :

« وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ » (التحريم : ١٢)

أى : آمنت بقولها وفعلها بكل ما جاء فى آيات الله وكتبه .

ومن هنا نستبين المعنى فى صفة (الصدق) التى وردت فى كتاب الله من صفات القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى :

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ » (المائدة : ٤٨)

وفى قوله تعالى :

« وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا » (الأحقاف : ١٢)

وقوله :

« فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ »

(البقرة: ٩٧)

والمعنى : أن القرآن الكريم يأتى تحقيقاً وتأكيداً للصدق الذى سبقه فى كتب الله ، كما أنه تحقيق يتجاوز هذا التأكيد والقول فى آياته وأحكامه وأخباره وقصصه إلى تحقيق بالفعل إذ يكون من قول القرآن وفعله هذه الآية الحسية الكبرى فى إيمان الأمة العربية التى نزل إليها . وفى بناء مجتمع المؤمنين ، حيث دخل الناس بدعوة النبى :

« فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا » (النصر : ٢)

ليحكموا حياتهم وعلاقاتهم وأنفسهم بشريعة الله . برهاناً على الصدق الذى جاءهم بالقرآن . وعلى التصديق الذى استجابوا به . بالعمل والإيمان. تأسياً بأسوة النبى صلى الله عليه وسلم .

٧ – الحكيم :

ويصف الله القرآن الكريم بأنه (الحكيم) وذلك فى قوله تعالى :

« يسٓ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » (يس ١ ، ٢)

وقوله تعالى :

« الٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » (لقمان : ١ ، ٢) .

والكتاب الحكيم أصله من الحكمة ، وهى مافى كتاب الله من العلم والشريعة والعدل ، وكذلك هو من الحكم . أى : حكم الله بين الناس بما أنزل فى كتابه الحكيم من العلم والشريعة . والعدل والوصايا والمعروف .

وأصل الحكم بالضم القضاء . وقد حكم بالأمر حكماً وحكومة . وحاكمه إلى الحاكم : دعاه وخاصمه . وحكّمه – بتشديد الكاف : طلب إليه أن يحكم بالحق .

وأصل الحكمة : العدل . إذ هى تجمع بين العلم والحلم . وهى الحكم القطعى فيما تدعو إليه الكتب المنزلة . من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفيما يدعو إليه الحق من المروءة والإحسان . وفضائل الأخلاق .

ولقد جاءت الحكمة بمعنى وصايا الله . والحدود التى أوحى بها لسلوك المؤمن فى كتابه المنزل على نبيه . وذلك فى قوله تعالى :

« ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » (الإسراء : ٣٩)

وفى قوله تعالى :

« وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » (النساء : ١١٣)

وجاءت الحكمة بمعنى الإلهام لعباد الله الصالحين بهذه الوصايا والحدود وذلك فى قوله تعالى عن لقمان :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ » (لقمان : ١٢)

وفى قوله تعالى :

« يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا » (البقرة : ٢٦٩)

والآيات المحكمات فى القرآن الكريم هى : التى أحكمت فلا يحتاج سامعها إلى تأويلها لبيانها . ومن هذه الآيات قوله تعالى :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عليْكُمْ » (الأنعام : ١٥١)

بهذا الكتاب الحكيم الذى أحكمت آياته فى قوله تعالى :

« الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »
(هود : ١)

يكون حكم الله الذى نزلت به آياته . وشرائعه . وأحكامه . وحكمه :

« وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » (المائدة : ٥٠)

٨ – العزيز :

العزيز هو الذى يَقهر – بفتح الياء – ولا يُقهر – بضم الياء – وهو الله سبحانه يقول الله تعالى :

« إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (العنكبوت : ٢٦)

ويقول :

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » (المنافقون : ٨)

وقد تكون (العزة) ذما إذا وصف بها الكفار . وذلك فى مثل قوله تعالى :

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وشِقَاقٍ » (ص : ٢)

ووجه ذلك أن العزة التى هى لله ولرسوله وللمؤمنين هى الدائمة الباقية ، وهى العزة الحقيقية . وأما العزة التى يتظاهر بها الكافرون فهى من (التعزز) الذى هو فى الحقيقة ذل كما جاء فى قوله عليه الصلاة والسلام : (كل عز ليس بالله فهو ذل) . ومن ذلك عندما تستعار كلمة العزة للحمية ، والأنفة المذمومة للهوى . وذلك حيث يقول الله تعالى :

« أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ » (البقرة : ٢٠٦)

وأما قوله تعالى :

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » (فصلت : ٤١)

فى وصف القرآن الكريم فمعناه أن يصعب مناله ، ويمتنع وجود مثله ، أو محاكاة قوله .

٩ - الكريم :

ومن صفات القرآن وصفه تعالى له بأنه كريم ، وذلك فى قوله سبحانه :

« إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ » (الواقعة : ٧٧، ٧٨)

وأصل الكرم ضد اللؤم ومنه الكرامة ، وهو يعنى الجودة، والأصالة، والزيادة ، ومنه التكرم ، أى التنزه عما يشين .

والكرم إذا وصف به الله تعالى فهو اسم لظاهر إحسانه وإنعامه ، وفضله على الخلق ، نحو قوله تعالى :

« فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ » (النمل : ٤٠)

والكرم إذا وصف به الإنسان فهو اسم للاخلاق والأفعال المحمودة ، التى تظهر منه ، ولا يقال : هو كريم حتى يظهر ذلك منه ويتأكد .

ويرى بعض العلماء : أن الكرم بمعنى الحرية فى مثل قولك (رجل حر) . إلا أن الحرية قد تقال فى المحاسن الصغيرة والكبيرة ، بينما الكرم

لا يقال إلا فى المحاسن الكبيرة ، وذلك كمن ينفق ماله فى تجهيز جيش فى سبيل الله ، أو يحمل الدية التى تكف الثأر ، وتمنع الحرب ويجعلها فى ماله ، براً بعشيرته وقومه .

وأما قوله تعالى :

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » (الحجرات : ١٣)

فإنما كان ذلك لأن الكرم إذا كان هو المحاسن الكبيرة ، والأخلاق المحمودة ، فإن أكرم الكرم : هو أن يقصد الكريم بأفعاله ومحاسنه وجه الله تعالى وتقواه ، وهكذا فى مجال التنافس على رضى الله أصبح الأتقى هو الأكرم .

ومن هنا يكون وصف القرآن بالكريم اسما على معنى عطاء الله الذى ينفرد به من الذكر والعلم والهداية والأمن ، والعزة والتوفيق .

١٠ – المجيد :

والمجيد فى صفات القرآن الكريم من المجد ، بمعنى السّعة فى الكرم والجلال ، يقال : مَجَدَ – محركة – يمجُد – بضم الجيم – مجداً ومجادة ، وأصل المجد من قولهم فى البوادى العربية : مَجَدَت الإبل ، إذا نعمت بالمرعى الكثير الواسع ، وقد أمجدها الراعى أطلقها حيث تجد هـذا المرعى .

وقولهم فى صفة الله : « المجيد » أى : يُجْرى السعة فى بذل الفضل المختص به . وقوله تعالى فى صفة القرآن :

« قٓ وَٱلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » (ق :١)

إنما لكثرة ما يتضمنه من الفضائل الدنيوية والأخروية ، ومثل ذلك قوله :

« بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ » (البروج : ٢١)

وذلك على مثل وصفه له تعالى بالكريم فى قوله :

« إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » (الواقعة : ٧٧)

أى : لا حد لعطائه وهديه .

* * *

السؤال الثالث :

لمــاذا غلب اسم (القرآن) على الأسماء الكثيرة التى وردت فى كتاب الله ٠٠ ؟ وهل لهذه دلالة بالنسبة لأسماء الكتب الأخرى التى أوحى بها الله الى الرسل من قبل مثــل الزبور والتوراة والانجيل ؟ وهل لهذا الاسم (القرآن) دلالة معينة فى منهج التعبد به بين المسلمين ؟ ٠

الإجابة :

من بين الأسماء التى وردت عن القرآن الكريم فى كتاب الله كان (القرآن) هو الاسم العلم الدال عليه بغير مشاركة فيه من الكتب المنزلة السابقة له . ذلك أن جميع الكتب التى أنزلها الله على رسله — كما جاء ذكرها فى القرآن — قد اشتركت فى أسماء، مثل : الكتاب ، والذكر ، والفرقان ، والهدى ، والنور . ولكنها انفردت بأسمائها الأعلام عليها ، وهى : القرآن ، والتوراة ، والزبور، والإنجيل . فمن ذلك قوله تعالى :

« وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ » (البقرة : ٥٣)

وقوله تعالى :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ »

(الأنبياء : ٤٨)

وقوله تعالى :

« وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ » (المائدة : ٤٦)

وقوله تعالى :

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » (آل عمران : ١٨٤)

أى : جاءوا بالآيات المبينة كما نزلت الزبور والتوراة والإنجيل .

هذا عن الجزء الأول من السؤال .

أما عن الجزء الثانى منه ، وهو مفهوم الدلالة المميزة للقرآن الكريم فى هذا الاسم العلم الدال عليه من غير مشاركة غيره من الكتب فيه فنقول : إن اسم القرآن — كما أشرنا من قبل فى السؤال الأول — مأخوذ من القراءة أولا ، ومن جمع السور بعضها إلى بعض بعد ذلك ، مع تتابع التنزيل والوحى .

القراءة . . والقرآن :

فمن القراءة والتلاوة أخذ القرآن اسمه — كما سماه الله الذى أنزله — من الكلمة الأولى فيه ، أى من فعل الأمر الأول (اقرأ) الذى كان أول ما سمعه النبى — صلى الله عليه وسلم — من الوحى . فى هذه الكلمة الآمرة الظاهرة القوية التى جلجل بها أول نزول الوحى من غيب غار حراء ، إلى آفاق الأرض ، اجتمع فى تركيز شديد — فى سمع النبى

لأول مرة — بشير الكتاب الذى سينزل عليه ونذيره . لقد كانت كلمة (اقرأ) بداية قراءة طويلة سوف تستمر طوال سنوات الدعوة حتى يبلغ هذا الكتاب الخاتم المهيمن غايته من هداية الأمة التى كانت خير أمة أخرجت للناس . لقد كانت كلمة (اقرأ) فى قوله تعالى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » (العلق : ١)

تعنى كما وعاها الرسول عليه الصلاة والسلام (اقْرَأْ باسْمِ الله .. واحْفَظْ بِاسِم الله .. وَبَلِّغْ قومَكَ بِاسِم الله) وكانت هذه القراءة الطويلة على سمع الناس من تتابع نزول الوحى .. هى القرآن الكريم الذى بدئت سوره كلها بسم الله الرحمن الرحيم .

ومن معنى جمع هذه الآيات التى قُرئت وحُفظت فى صدور المؤمنين فى سورها التى ضُمّت بعضها إلى بعض تأكد اسم (القرآن) الذى جاءت العناية بتدوينه فى حياة النبى — صلى الله عليه وسلم — بعد حفظه فى الصدور ، والتعبد به فى الصلوات ، وعندما يذكر المؤمن ربه به ، قائماً وقاعداً وعلى جنبه .

لقد كانت القراءة والتلاوة والترتيل والحفظ هى الخصائص التى ميزت القرآن الكريم عن كل الكتب المنزلة ، والتى كانت صفتها الأساسية كتابتها بأيدى الخاصة من الأحبار ، بل واستمرار كتابتها والإضافة إليها ، أو التعديل فيها ، بعد الوحى قروناً طويلة ، مما أوقع الخلاف بين أتباعها حولها ، ومما كشف بعد الدراسات المستفيضة التى حظيت بها هذه

الكتب فى العصور الأخيرة — أى منذ ما يسمونه بعصر النهضة فى أوروبا — عن كثير من المخالفات الموضوعية . وبخاصة فى موضوعات العهد القديم المكررة مثل قصة الطوفان ، وقصة هاجر ، وخبر نبوة موسى . وغيرها كثير . . لقد كانت القراءة الدائمة للقرآن الكريم منذ نزوله وحفظه فى صدر النبى وصدور المؤمنين فى أمة مبينة ، تحفظ مأثور كلامها . هما الطريق المعبد الذى حفظ الله به القرآن المسموع الصوت فوق كل صوت . ومن أى تحريف . أو تحوير تصنعه الأقلام فى صريرها الخفى على أوراق ، تحت أعين الكهنة ، فلا تكاد تقع عليها عين — كما حدث ذلك فى تدوين التوراة وأسفارها بعد موت موسى عليه السلام ، وكما حدث فى تعدد الأناجيل بعد المسيح عليه السلام .

لقد نزل القرآن ميسراً مبيناً مباشراً بصوته ونظمه للحواس والعقول والقلوب ، قريباً باللسان العربى الذى نزل به ، وبالنظم الإلهى الذى تتابع عليه ، إلى أن تخشع له القلوب ، وتعتد به العقول ، وتلهج به الألسنة ، وتنشط على ندائه الفضائل ، وتنمو فى ضوئه الروادع ، فما من كتاب سابق أو لاحق على هذه الأرض كان أو يكون ، له ما لهذا القرآن العربى من يسر الحفظ ، وبعد المنال ، وخلود الأثر ، بكونه كلام الله الذى نسمعه قرآناً ، ونرتله تعبدا ، ونحفظه ذخرا ، فندين لله فى ذكره وهديه ونوره بهذا الدين القيم ، مسلمين إليه ، غير مشركين به . وسبحانه هو القائل فى صفة كتابه :

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ » (الحشر : ٢١)

وأما عن الجزء الأخير من هذا السؤال ، وهو عن الدلالة التي للقرآن الكريم في منهج التعبد به بين المسلمين فنقول : إن أعظم ما يميز القرآن في منهج العبادة بتلاوته وقرآنه بين أجيال المسلمين هو : أنه وهو الكتاب الجامع لآيات الله في سورها ، ومواضعها . وهو الكتاب الجامع بهذه الآيات والسور لفضائل الإنسان ، وأخلاق الإيمان فوق كل الكتب التي جاء مصدقاً لها ، ومهيمناً عليها ، وذلك في بابين اثنين متقابلين متكاملين ، هما : باب الأوامر التي أمر بها الله ، وباب النواهي التي نهى عنها الله . . هذا غير ما اجتمع فيه من الشرع والقصص ، والعلم والتفكر في الخلق والسنن ، مع العظة والاعتبار والعمل ، وحديث الآخرة .

فالعمل بأوامر الله والانتهاء عن نواهي الله ، هما دعامتا هذا الإنسان المؤمن المسلم السوي . . الإنسان الذي يملك بالإيمان أن يغير ما بنفسه ، حتى يغير الله ما به نحو ما يحبه الله له . . الإنسان الذي يكون خُلقه — أسوة بالنبي — هو القرآن ، وعمله هو تصديق إيمانه وقوله وخُلقه . . كما دعا إلى ذلك القرآن .

ونبدأ فنعرض قدراً من أوامر الله في القرآن ، كما نشير إلى جانب من نواهيه ، لتستبين الدلالة على ما للقرآن الكريم من الفضل والسعة



والشمول فى تربية أخلاق المؤمن . ليكون أهلا لعبادة الله بإخلاص وصدق ، وليكون بذلك أهلا لنعمة الله عليه بغير حد ولا حظر .

من أوامر الله :

على رأس ما اشتمل عليه القرآن الكريم من أوامر الله الداعية إلى أسس العبادة ومكارم الأخلاق : أمره تعالى بإخلاص الدين لله ، والانقطاع إليه وحده بالذكر والرجاء ، والخشية والتوكل .

ومن هذه الأوامر : أمره تعالى بابتغاء الآخرة ، واتباع الصراط المستقيم ، وتلاوة القرآن ، والإنابة إلى الله ، والتوبة إليه ، والاستجابة له ، والدعاء إلى سبيله ، والبر بذوى القربى ، والفقراء والمساكين .

ومن هذه الأوامر : أمره بأن يأمر المؤمن بالمعروف ، وبأن ينهى المؤمن عن المنكر ، وأمره تعالى بحفظ الأمانة ، والعدل بين الناس ، والإحسان ، والمواساة ، والوفاء بالعهد ، وخفض الجناح للمؤمنين ، والدعاء لهم ، وأن يكون دفع الإساءة بالتى هى أحسن .

ومن هذه الأوامر : أمره تعالى بالشكر ، والصبر ، والاقتصاد فى النفقة ، فلا شح ولا تبذير ، وإيفاء الكيل والميزان ، والصفح والإعراض عن الجاهل ، وعن اللغو ، وغض البصر . . يقول الله فى إخلاص العبادة له :

« وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » (الأعراف : ٢٩)

ويقول الله فى الانقطاع إليه بالذكر والرجاء والخشية والتوكل :

« وَاذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ » (الأعراف : ٢٠٥)

ويقول فى الرجاء :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوْ اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا » (الأحزاب : ٢١)

ويقول فى الخشية :

« فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِى وَلأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ »

(البقرة : ١٥٠)

ويقول فى التوكل :

« وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (آل عمران : ١٦٠)

ويقول الله تعالى فى ابتغاء الآخرة :

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » (الرعد : ٢٢)

ويقول فى اتباع الصراط المستقيم :

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ »   (الأنعام : ١٥٣)

ويقول فى تلاوة القرآن :

« اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ »

(العنكبوت : ٤٥)

ويقول فى الإنابة إليه :

« اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ »

(الشورى : ١٣)

ويقول فى التوبة إليه :

« أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

(المائدة : ٧٤)

ويقول فى الدعاء إلى سبيل الله :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ »

(النحل : ١٢٥)

ويقول فى حقوق ذى القربى والمساكين :

« وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ »

(الإسراء : ٢٦)

ويقول أيضاً :

« إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » (البقرة : ٢٧١)

ويقول أيضاً :

« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا »

(الإنسان : ٨)

ومن أوامره تعالى أنه يدعو إلى الأمر بالمعروف . والمعروف هو : كل ماتهتدى إليه الفطرة السليمة من أخلاق الخير ، ومالم تنكره من عمل المروءة والبر ، وفى هذا يقول الله فى القرآن :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » (التوبة : ٧١)

ومنها : أمره بالنهى عن المنكر ، وهو دائماً قرين الأمر بالمعروف ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » (آل عمران : ١٠٤)

ويقول سبحانه فى حفظ الأمانة والحكم بالعدل :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » . (النساء : ٥٨)

ويقول تعالى فى الإحسان :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى » (النحل : ٩٠)

ويقول سبحانه فى الوفاء بالعهد :

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا » . (النحل : ٩١)

ويقول فى خفض الجناح للمؤمنين :

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (الشعراء : ٢١٥)

ويقول فى الدعاء لهم :

« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » . (نوح : ٢٨)

ويقول فى دفع السيئة بالحسنة :

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » (فصلت : ٣٤)

ومن أوامره تعالى : إلى أخلاق الإيمان : دعوته إلى الصبر ، فى قوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (البقرة : ١٥٣)

ويقول أيضاً :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . (آل عمران : ٢٠٠)

ويقول فى دعوته إلى الشكر :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » (البقرة : ١٧٢)

ويقول أيضاً :

« فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ » .
(البقرة : ١٥٢)

ويدعو إلى الاقتصاد فى النفقة فيقول :

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا » (الإسراء : ٢٩)

ويقول فى إيفاء الكيل والميزان ، وهو يشمل الكثير من أنواع التعامل التى تتجاوز مايوزن وما يكال :

« وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » (الأنعام : ١٥٢)

ومن أوامر الله فى مكارم الأخلاق : دعوته إلى الصفح عن هَنَات الأصدقاء والأهل والأزواج والأولاد ، ولو أخسرت ميزان مايجب عليهم لك ورجحت ميزان مايجب لهم عليك . ومن ذلك قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُم وَإِنْ تَعفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

(التغابن : ١٤)

ويقول فى هذا لنبيه وهو من خلقه العظيم :

« وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ » (الحجر : ٨٥)

ومن قبيل الصفح مايوحى الله به فى أوامره من الإعراض عن الجاهل ، فى مثل قوله تعالى :

« خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ » .

(الأعراف : ١٩٩)

ويقول سبحانه فى الإعراض عن اللغو وذلك من أخلاق الإيمان :

« وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » (المؤمنون : ٣)

ويقول أيضاً :

« فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » .

(النجم : ٢٩)

وأما غض البصر وهو من أمانة الأعين ، وكمال التقوى ، فيقول عنه سبحانه :

« قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » (النور : ٣٠)

ويقول فى تمام ذلك :

« وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ » (النور : ٣١)

آيات النـــواهى :

وأما عن النواهى فقد جاء بها كتاب الله لتكون مع أوامره تمام هديه للعقول ، وكفه للأعداء ، وزجره للنوازغ ، وليكمل بالقرآن فى تلاوته وحفظه والتعبد به كمال أخلاق المؤمن ، بما تبينه له آيات القرآن ومعانيه ، كلما أشرقت عليه ، وأضاءت فيه ، وأضاءت له ، بالتلاوة المتدبرة ، والصلاة الخاشعة .

نذكر من جملة هذه النواهى فى القرآن الكريم : نهيه تعالى عن الإشراك به فى العبادة ، وعن الظلم والطغيان والعدوان ، وعن الإفساد فى الأرض ، والإثم ، والفحش .

كذلك ينهى الله بين نواهيه فى القرآن الكريم عن اتباع الشيطان ، وعن

الاغترار بالدنيا ، وعن البخل ، والشح ، وعن الهمز ، واللمز والنميمة ، وعن الجزع ، والهلع والقنوط ، وعن اليأس من روح الله .

وكذلك ينهى الله عن كتم العلم ، وعن لبس الحق بالباطل ، وعن اتباع المتشابه ، وعن الرياء ، وتزكية النفس ، وعن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين .

وكذلك ينهى الله سبحانه عن الترفع عن حكم الله ، وعن الحكم بغير ما أنزل الله ، وعن مشاقة الله والرسول ، وعن الجهر بالسوء من القول ، وعن التعاون على الإثم والعدوان ، وعن الارتشاء لإبطال الأحكام ، وعن الغلو فى الدين .

يقول الله على لسان رسوله فى النهى عن الشرك به :

« قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ » (الرعد : ٣٦)

ويقول فى النهى عن الظلم :

« وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » (الفرقان : ٢٧)

ويقول تعالى فى النهى عن الطغيان :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِى ٱلْبِلَادِ » (الفجر : ٦-١١)

ويقول فى نهيه عن العدوان :

« وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (البقرة : ١٩٠)

ويقول ناهياً عن الفساد فى الأرض :

« فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »
(الأعراف : ٧٤)

ويقول فى النهى عن الإثم والفحش والكبر :

« وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » (الشورى : ٣٧)

ويقول :

« وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ » (النساء : ١١١)

ويقول :

« وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا » . (النساء : ١٧٢)

وأما نهى الله عن اتباع الشيطان فيقول فيه :

« وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ »
(النور : ٢١)

ويقول أيضاً :

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ » . (البقرة : ٢٦٨)

ويقول فى النهى عن الاغترار بالدنيا :

« فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ »

(لقمان : ٣٣)

ويقول سبحانه فى النهى عن البخل والشح وهما لايكونان من صفة المؤمن :

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ » (آل عمران : ١٨٠)

ويقول أيضاً :

« وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . (الحشر : ٩)

ويشدد القرآن فى النهى عن الهمز واللمز ، وهما من عيوب المجتمعات التى تتآكل بالفرقة وسوء الظن ، وسوء الأدب ، وانتشار الطعن والعيب خفية بالإشارة . والعين ، والكلمة النابية فيقول :

« وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ » . (الهمزة : ١)

وينهى الله فى كتابه العزيز ويشدد على التجسس لالتماس عورات الناس ،

وعلى مثل ذلك من الغيبة والنميمة والوقيعة بين الأهل ، والعشراء والمتحابين ، فيقول تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » . (الحجرات : ١٢)

وفى نفس السياق ينهى الله عن أخلاق تشين الإنسان المؤمن ، وتخل بتوازنه تحت مؤثرات الغنى والفقر ، فيهلع ويجزع إذا أصابه الفقر ، ويهلع ويمنع إذا ناله الغنى ، قانطا يائسا من روح الله ،لا يدفعه إيمانه إلى العمل ، ولا يدفعه عمله إلى الرضى . فالله تعالى يقول :

« إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ▪ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ▪ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ▪ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ▪ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » (المعارج : ١٩ - ٢٣)

ويقول أيضاً :

« وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ » . (الحجر : ٥٦)

وكذلك يقول :

« وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » (يوسف : ٨٧)

وأما نهى الله عن كتم العلم الذى أنزله ، والذىهدى إليه فذلك حيث يقول تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ » (البقرة : ١٥٩)

وكذلك فإنه سبحانه ينهى عن لبس الحق بالباطل ، وفى هذا النهى يقول :

« وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »
(البقرة : ٤٢)

وهو لهذا ينهى عن بيع آيات الله بالثمن القليل — أولئك الذين يحرفون ما أنزل الله — كما فعل بعض أحبار أهل الكتاب ، وذلك حبا للرياسة ، وإيثاراً للحياة الدنيا ، وذلك حيث يقول :

« وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّاىَ فَاتَّقُون » .
(البقرة : ٤١)

ويقول أيضاً :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ » (آل عمران : ٧٧)

كذلك ينهى الله عن اتباع المتشابه، وعن إشاعة التأويل فيه ابتغاء الفتنة، وفي ذلك يقول :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ » (آل عمران : ٧)

وينهى الله عن الرياء وتزكية النفس ، فيقول :

« لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ » (البقرة : ٢٦٤)

ويقول :

« يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً » . (النساء : ١٤٢)

ويقول :

« فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » . (النجم : ٣٢)

ويقول :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ » . (النساء : ٤٩)

وينهى الله عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، وذلك حيث يقول :

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » (آل عمران : ٢٨)

ويقول أيضاً :

« بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » (النساء : ١٣٨ – ١٣٩)

ومن أمهات النواهى فى القرآن العظيم ما ينهى الله عنه : من الترفع عن حكم الله ، وذلك حيث يقول :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا »
(النساء : ٦٠)

وينهى سبحانه عن الحكم بغير ما أنزل الله فيقول :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ »
(آل عمران : ٢٣)

ويقول أيضاً :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » (المائدة : ١٠٤)

ويقول أيضاً :

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ » (المائدة : ٤٨)

ويقول فى نفس السورة :

« وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » (المائدة : ٤٤)

ومن أمهات هذه النواهى نهيه تعالى فى القرآن عن مشاقه الله ورسوله وذلك فى قوله سبحانه :

« سَأُلْقِى فى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ‌• ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » (الأنفال : ١٢ ،١٣)

وفى نهيه عن الجهر بالسوء من القول يقول تعالى :

« لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا » . (النساء : ١٤٨)



وفى نهيه عن التعاون على الإثم والعدوان يقول سبحانه :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (المائدة : ٢)

وأما عن الارتشاء لإبطال الأحكام ، وفتح الطريق لإفساد القضاء ، فيقول الله فى النهى عنه :

« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » .

(البقرة : ١٨٨)

وأخيراً فيما نقدمه من مجموعة النواهى فى كتاب الله نذكر نهيه تعالى عن الغلو فى الدين . أى : أن يقول أهل الدين أو علماؤه فى دينهم غير الحق . متبعين فى ذلك أهواء الضالين ، أو المضلين — يقول تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ » (المائدة : ٧٧)

وبجه القرآن هذا النداء الناهى عن الغلو فى الدين صريحاً إلى أهل الكتاب ، لينتهوا عما أضافوه أو حرفوه . أو أوّلوه بغير الحق . وذلك حتى لايقولوا على الله غير الحق . وما أحوجنا نحن المسلمين أهل القرآن . المصدق

لمابين يديه من الكتاب . والمهيمن عليه — ما أحوجنا بعد أن طال علينا الأمد وتفرقت بنا السبل عن سبيل الله . أن نرجع وننيب إلى الله . فلا نقول عليه إلا الحق .

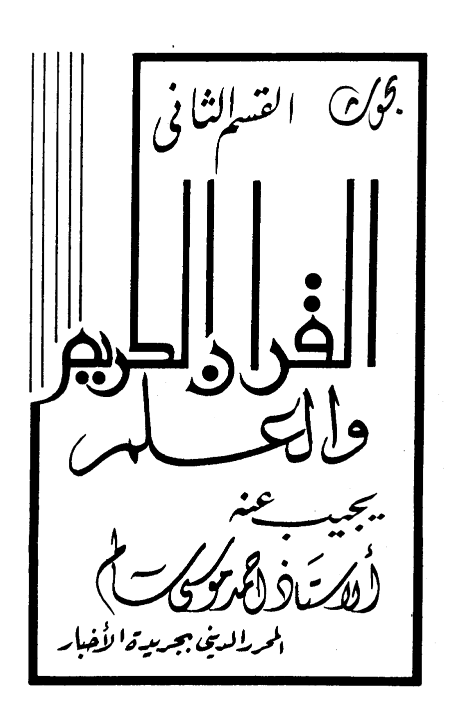
• • •

بهذا الكتاب الكريم (بالقرآن) أكمل الله الدين لعباده ، وأتم عليهم النعمة ، وهو يدعوهم إلى ترتيله وحفظه . وحسن الإنصاف إليه . فهو ذكر ونور ، وشفاء ورحمة . وفى ذلك قال الله تعالى — ولايزال قوله سبحانه مسموعاً — لنتبع ما أوحى به من الهدى . ولنحسن الاستماع إليه تبصراً ورحمة . . قال مبتدئاً بنبيه الكريم :

« قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . (الأعراف ٢٠٣ — ٢٠٤)

* * *




بحوث القسم الثاني
القرآن الكريم والعلم
يجيب عنه
الأستاذ أحمد موسى سالم
المحرر الديني بجريدة الأخبار

السؤال الأول :

هل القرآن الكريم كتاب علمى ، أم هـو كتاب يقوم على العلم ولا يتناقض معه عبر العصور والأزمان ؟ .. اشرح ذلك مستدلا على رأيك بآيات من القرآن الكريم .

الإجـابة :

القرآن الكريم كما أنزله الله كتاب يقوم على العلم الذى يتجاوز مفهوم العصر للعلوم الطبيعية ، إلى مفهوم واسع فى علم الدين ، غير متناقض مع ما كشف عنه العلماء ، أو ما قد يكشفون عنه من علوم الطبيعة والحياة والأفلاك . . عبر العصور والأزمان .

إن القرآن الكريم بهذا التعريف ليس كتاباً يحتوى جميع نظريات العلوم الطبيعية ، بل هو الكتاب الذى يعلمنا الله به علم الدين ليفتح أمامنا — من أجل تقدم الإنسان ونجاته — مجالات الفهم والكشف عن علوم الطبيعة والحياة . . وبذلك — أى بتوجيه علم الدين لعلوم الطبيعة — ينجح الإنسان فى حل مشكلاته الدنيوية . . ويمضى بأعماله الصالحة ليلقى الله آمناً مطمئناً فى حياته الأخروية ، التى هى فى عقيدته علم ثابت .

ولما كنا نعيش فى هذا العصر أمام تجربة غير مسبوقة ، فى تاريخ الإنسان لهذه الحضارة العلمية المادية بأدواتها الضخمة ، والمعقدة والدقيقة ، فقد أصبح المؤمنون بالله يواجهون التحدى المباشر مما يمكن أن نسميه (عقيدة

العلم) فى أهداف .ومناهج الحضارة المعاصرة التى مرقت من الدين — شرقاً وغرباً — وآمنت بالعلم وحده . . ومستقبل العلم .

ماهو مصير البشر إذا ما قدر لهم تحت غواية شديدة أن يعيشوا بالعلم وحده من غير إيمان يقوده ويرشده . . ؟ !

إن الكثيرين من العلماء المعاصرين أخذوا يرفعون أصواتهم بالألم والقلق والتحذير مما قد يجره على الإنسان علم لا قياد له .. ولقد بدأت هذه الأصوات ترتفع مبكرة منذ أواخر القرن التاسع عشر . وأوائل القرن العشرين ، حيث بدأ الإنسان الأوروبى يشعر بخيبة الأمل . بعد أن رأى الأدوات المادية تمتطى وحدها ظهر البشرية . وأخذ يدرك — كما يقول المؤرخ الأمريكى جفرى برون — أن العلم قد بدأ يقذف بالإنسانية فى منحدر وعر لايعرف مداه .

وجاءت نظرية النسبية بعد ذلك لتضيف بلبلة جديدة ، وقلقاً من نوع غريب إلى البشر . لقد جاءت لتضع المادة والحقائق العلمية فى (روغان) مستمر أمام الحواس . إنها تقرر كما يشرح ذلك برتراند رسل فى كتابه (ألف باء النسبية) أنه لاوجود لحكم قطعى بالنسبة للأشياء ، ومبادىء الأشياء ، التى هى دائماً أنماط متغيرة ، وأساليب متقلبة !

بل إن الشىء الحسى الذى تراه العين وتلمسه اليد ، مثل المنضدة فى غرفة — قد يكون وهماً غليظاً . . بل إنه فى نظر برتراند رسل العالم الرياضى الإنجليزى الشهير هو (وهم غليظ) بحسب النظرية النسبية . . إنه يقول مثلا فى كتابه السابق :

(تتخيل الفطرة السليمة أنها حين ترى منضدة فإنها ترى منضدة ، وهذا وهم غليظ . ذلك أنه حين ترى الفطرة السليمة منضدة فإن موجات ضوئية معينة تصل إلى العينين ، وهاتان مجعولتان — يقصد أن لا يقول مخلوقتان !— على نحو يرتبط في خبرتهما السابقة بإحساسات معينة من اللمس . وكذلك بشهادة أناس آخرين بأنهم قد رأوا المنضدة بدورهم . بيد أن شيئاً من هذا لا ينقلنا إلى المنضدة نفسها على الإطلاق ، فالموجات الضوئية قد سببت أحداثاً فى عصبنا البصرى ، وهذا سبب أحداثاً فى المخ . وأى واحد من هذه الأشياء يحدث بدون التمهيدات المعتادة ، يجعلنا نشعر بالإحساسات التى نسميها (رؤية المنضدة) حتى لو لم تكن هناك منضدة . . وأما فيما يتعلق بإحساس اللمس حين نضغط على المنضدة بأصابعنا فإن هذا عبارة عن اضطراب كهربى يحدث لإلكترونات وبروتونات أطراف أصابعنا ، وينتج طبقاً لعلوم الطبيعة الحديثة عن تجاوز الإلكترونات والبروتونات فى المنضدة ، ولو أثير هذا الاضطراب نفسه فى أطراف أصابعنا بأى طريقة أخرى ، فسوف نشعر بتلك الإحساسات على الرغم من عدم وجود أى منضدة ! !

إن برتراند رسل وهو يفسر الطبيعة فى ضوء النسبية يعلن تحطم قوانين الطبيعة التقليدية التى كانت تنظر بعين الإنسان الرتيبة إلى المادة على أنها أجسام صلبة فى حركة ، فالعلم الآن يفرض شكل المادة الجديدة على أنها جسيمات ، أو خيوط ، أو أنغام فى (عالم الحوادث) ، وليست أشياء فى حركة . . إنها كما يقول رسل ، (هى تحصيل الحاصل فى المكان ، وليست شيئاً آخر) !

ثم فى ختام سلسلة طويلة من الرَّوَغان بالعلم بين نعم ولا . . ولا ونعم ، يقول برتراند رسل فى الكتاب الذى يقدم به أحدث نظرية للعلم . . النظرية التى انفلقت بها الذرة ، وانفجر الرعب الذرى :

(والخاتمة النهائية هى أننا نعرف القليل جداً ، ومع ذلك فمن الغريب أن هذا القليل جداً هو كثير ، وأغرب من ذلك أن هذه المعرفة القليلة جداً يمكن أن تعطينا كل هذه القوة) ! ؟

على أن برتراند رسل وإن لم يكتم قلقه ، فإن إلحاده قد وقف به عند تكريس نفسه لمقاومة الحروب الذرية . . بينما حاول علماء آخرون مثل الألمانى كارل ياسبرز أن يثيروا الأمل فى قيادة العلم ، وترشيد استخدامه ببعث الإيمان ، فى الوقت الذى أخذ يحتج فيه من خلال كتبه الكثيرة على البيئة الإلحادية المتمردة ، التى استهواها التقدم العلمى ، لتتصور أنه قد أصبح من الممكن تنظيم المجتمع الإنسانى (علمياً) فى غيبة الإيمان . . وحيث أصبح الإنسان فى مولد الخرافة العلمية ، وعلى ضجيج الآلات هو (الله) فى نظر نفسه . . وصار الحاكم الأعلى هو التاريخ وليس الله !

يقول ياسبرز فى كتابه (العقل والوجود) :

(فى عالم محروم من الله ظهر كارل ماركس نبياً ، واتخذ القوالب التى يستطيع هذا العالم أن يقتنع بها ، أو أن يهلل لها ، ونصب ماركس نفسه مبشراً بعلم ليس هو بالعلم ، وحاكماً بأمره لايتكلم باسم الله ، بل باسم التاريخ كما وقف عليه) !

ويقول ياسبرز فى كتابه (مستقبل الإنسانية) مجدداً التحذير من علم بغير إيمان :

(إن مجرى التاريخ جعلنا ننتقل — وهو يقصد الأوروبيين — من عصر اتسم برضى سكان المدن بالتقدم والثقافة . . إلى عصر حروب جديدة ، وقتل جماعى ، بينما تقوم جماهير جديدة وباستمرار فى عصر تهديد مفزع ، وإخماد كل معنى من معانى الإنسانية ، فى دوامة هدامة حيث يبدو الاضمحلال وقد جر معه الأشياء جميعاً) !

العلم فى القرآن :

وهكذا نجد فى العصر الحديث أن (العقل) يعود ليتحمل وحده مهمة الكشف للإنسان عن الحقيقة كلها ، لاعن القدر الممكن منها ، القدر الذى تسمح له به أجهزته العضوية ، وقدراته الحيوية والنفسية ، وتوازناته الضرورية له داخل ظروفه الطبيعية ، وقبل أن يحقق الإنسان ما يحلم به عبثاً من تغيير حجمه وقدراته ، وطوله وعرضه وبيئته . . وبذلك اغترب الإنسان عن عقله . . وعن هدفه . . ولم يعد وهو يرتد إلى أرذل العمر . وأرذل العدوان والتحدى قادراً على أن يعلم بعد علم شيئاً .

لقد عاد العقل إلى ماكان عليه فى العصور القديمة قبل نزول القرآن ، حيث قصر الطغاة والملوك والكهنة مهمة العقل ، وفسروها على أن تبقى فى الفلسفة اليونانية ، والأساطير الشرقية ، لتكون هى الأداة التى تسجل الشبهات والمجادلات حول الحقيقة الكلية ، أو المطلق ، أو المثال والصورة ،

وحيث راج الكلام فى كل شىء بكل شىء ، وحيث حمل الناس السيوف وراء الأوهام زماناً طويلا ، وهم يتقلبون فى الظلام .. حتى ظهر علم الله ونوره فى القرآن المنير !

لقد جاء العلم فى القرآن علماً من الله ، يصل الإنسان بالله ، مبتدئاً بالإيمان بالله الواحد الخالق المدبر ، تفسيراً لوجود الإنسان داخل هذا الوجود ، ولحياة الإنسان داخل هذه الحياة ، ليمضى بها غير متناقض مع الحياة ، إلى غاية أعدها الله له وللحياة فى طبيعة هذه الحياة .

لقد جاء العلم فى القرآن علماً (هادياً) تبدأ الإشارة به إلى علم الخلق . . علم الله فى حركة الأشياء . إنه العلم الذى يقود الإنسان إلى علم الإيمان . . العلم الذى يضع به الإنسان نفسه طائعاً مختاراً فى عبوديته لله ، ويرفع نفسه عزيزاً آمناً عن عبوديته للبشر ، أو عبوديته للأشياء ، أو عبوديته لنفسه وهواه . .

وبهذا العلم . . علم الإيمان يبدأ الإنسان عمله فيما خلقه الله له . . يبدأ خلافته فى الأرض ، قائداً للأشياء التى سخرها الله له ، ومستثمراً لها ، ومتقرباً بخيراتها إلى من أنعم عليه بها ، كما أمره الله ، وكما شرع له ، فيما يجب وما لا يجب ، بينه وبين الناس ، وبينه وبين الأشياء ، وبينه وبين نفسه .

إن الله يوجه الإنسان بدعوته إلى العلم الذى يقود إلى الإيمان فيقول :

« قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » .

(العنكبوت : ٢٠)

بهذه الآية المبينة وأمثالها ، تفجر معين العلم الذى اتحد بالدين فى نداء القرآن الكريم ، من قلب الجزيرة ، وقلب العالم القديم والحديث . . هذا العلم الذى جعل علوم الطبيعة طريقاً إلى الإيمان ، وجعل الإيمان شرطاً لعلوم الطبيعة ، ولم يفصل أحدهما عن الآخر ، بل جعل أحدهما دليلا على الآخر ، ومكملا له ، وشرطاً لصحته . .

الله هو المعلم :

فى هذا العلم الذى نزل به القرآن الكريم ، ليؤمن به المؤمنون وهم يعملون بهديه ، ويمشون فى نوره ، يتجلى الله بهذا التنزيل معلماً لخلقه ، وهادياً لهم برحمته إلى علمه . وهو يعلمهم هذا العلم الذى يهدى إلى العلم ، ليكونوا على الطريق الصحيح ، والصراط المستقيم . فهذا هو المنهج السليم لزيادة العلم الذى يزيد به الإيمان . ولزيادة الإيمان الذى يزيد به العلم . من غير فضول إلى ما لا يفيد ، وبغير بغى ، وبغير شرك ظاهر أو خفى . وبغير متاع مهلك ، وبغير فساد فى الأرض وعدوان .

يقول الله :

« وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

(البقرة : ٢٨٢)

ويقول :

« يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » .

(البقرة : ١٥١)

لذلك كان العلماء فى لغة القرآن هم أهل العلم بالدين ، الذين صاروا بهذا العلم أهلا للعمل به . ووعى المحكم فيه ، وتجاوز المتشابه منه ، كما كانوا أهلا للإستنارة والكشف عن علم الله فى خلقه ، وفى سننه ، وقيامهم بنشر ما علموا تعبداً لله ، وإيثاراً للمؤمنين ، يذيعونه ابتغاء وجه الله فى المساجد ، وفى بيوتهم ، وحيثما كانوا ويكون الناس .

يقول الله :

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (فاطر : ٢٨)

ويقول سبحانه :

« يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (المجادلة : ١١)

ويقول وهو يجعل من العلماء المؤمنين العاملين شهوداً معه ومع الملائكة على وحدانيته . وقيامه بالعدل على خلقه :

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ » (آل عمران : ١٨)

وهكذا من حيث كان الله هو مصدر العلم لمن يؤمنون بالله ، ويحبونه ويسمعون له ، فإن رحمة الله بعباده ، ومشيئته فى أن يهدى المهتدين إلى حكمة الخلق وغايته أتاحت لهم العلم على قدر طاقتهم ، وعلى قدر حاجتهم ، ولئن كان علماً قليلا إلى جانب علم الله . فإنه علم مثمر ومغدق

ينتصرون به ، ويفوزون به ، بالقياس إلى من لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم بالآخرة هم كافرون .

فالله يعلم عباده فى أول العلم أنه لم يخلق الإنسان عبثاً ، وذلك حيث يقول :

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » .
(المؤمنون : ١١٥)

ويقول :

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا » . (ص : ٢٧)

ثم يذكر الله عباده بأنه يريد أن يهديهم سنن الله وحكمه فى تاريخ من قبلهم ، فيقول :

« يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ »
(النساء : ٢٦)

ثم يعرض سبحانه لقوانين الخلق الذى بناه بعلمه ، هذا الخلق الذى لا تفاوت فيه ، ولا اختلال ولا فطور ، رغم أحجامه اللانهائية ، التى تتمدد ملء السماوات والأرض ، كجذوة من نار ونور . جذوة مأمورة . قدر الله فيها كل شىء تقديراً . . ووسع الله فيها كل شىء رحمة وعلماً . يقول الله :

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » (القمر : ٤٩)

ويقول :

« يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ » . (سبأ : ٢)

ويقول :

« عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .
(سبأ : ٣)

ويقول :

« إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » .
(النحل : ٤٠)

ويقول :

« وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ » . (غافر : ٣١)

الدنيوى والأخروى :

وتتجلى رعاية الله لعباده ، وحفظه لهم ، عندما يعلمهم ما ينفعهم ، وعندما يجعل من العلم النافع واقعاً حياً فى حياتهم ، وممكناً لجميع من عرفوا الله ، وخشعوا له ، وأحبوه ، واتجهوا إليه . . إنه ليس علماً لطبقة

خاصة . . ليس حكراً على الأرستقراطية فى القصور . . أو المثقفين فى المدن . . إنه علم لكل الناس . . لكل من يستطيع من الناس . . إنه علم للإنسان السليم الفطرة ، اليقظ الحواس ، المبين اللسان ، المتحرك ابتغاء فضل الله بين آفاق الأرض . . إنه فى القرآن الكريم علم لكل من يهتدى إليه فى آيات الكون المرسلة . ويهتدى به فى آيات الكتاب المرتلة ، التى تجتمع عليها القلوب والعقول ، منظومة فى اللسان ، ومتحدة فى الحس ، ومشرقة فى الوعى ، ليمتد بها علم الإنسان وعمله إلى ما وراء الموت . . عابراً إلى حياته الأخرى . . حيث ينحل متصل (الزمان والمكان) إلى حياة خالدة بغير صراع . . فى ظل ظليل ، وأمن أمين ، ورضوان أكبر . .

فى هذا العلم الذى ينفع الله الناس به ، تظهر حكمة الله فى خلق الأشياء ذات دلالتين : الأولى يظهر بها العلم مرتبطاً بالإنسان فيما يصلحه ، وتظهر به الأشياء مسخرة برحمة الله للإنسان ، ليهتدى بها إليه ، ولتكون موضع امتحانه فى دنياه بعمله .

وأما الدلالة الثانية فتتجرد بها الحقيقة العلمية من ظروف الإنسان المستقرة ، لتتحرك معبرة له عن حركة الوجود فى مجموعه ، فيما أراده الله له ، وما أودعه الله فيه من الانطلاق إلى غايته . . ومعه الإنسان .

إن العلم بهاتين الدلالتين يجمع طرفى الحقيقة العلمية فيما تدل عليه دائماً من الزائل والدائم . . من الدنيوى والأخروى . . من البشرى والإلهى . . فى حياة الإنســـان .

وهكذا . . بهاتين الدلالتين معاً تكلم القرآن الكريم إلى الإنسان . . لقد حدثه عن الأرض التى بسطها الله له . . وجعلها بالهدوء والسكون قراراً ومستقراً لحركته . . فكان هذا فى العلم هو وجهه الدال على الدنيوى ، حيث يجد الإنسان — إذا تأمل وعلم — ان من رحمة الله به أن يرى الأرض مبسوطة ، بينما هى فى دلالتها على الأخروى كروية . . وأن يراها ساكنة ومستقرة ، بينما هى فى طريقها إلى آخرتها متحركة ، ومرتجة ، ومندفعة ، لا تلوى على شىء .

وفى القرآن تظهر الدلالة الأخرى للعلم واضحة أيضاً وجلية ، تظهر الأرض فى الدلالة على الأخروى كروية ، ومتحركة ، وتسبح فى فلكها كواكب مثل الشمس والقمر . . إلى مستقر لها وغاية عند الله .

إن هاتين الدلالتين للعلم فى القرآن تكشفان عن نمط الحقائق العلمية النسبية التى يتكامل بها وعى الإنسان بين الثابت والمتحرك فى حياته باتجاه يقينى مع العلم ، ومع الحقيقة، على عكس ما انتهى إليه هذا العصر فى ظل النظرية النسبية لأينشتين من الغيبيات غير اليقينية ، عندما وصل بين الزمان والمكان فى وحدة للنظر العلمى ، هذه الغيبيات التى تسربت بالقلق إلى قلب الإنسان المعاصر لتنتزع أمنه بانتزاع إيمانه ، ولتقتلع سكينته فى هذا الوجود بتفريغ هذا الوجود السريع الحركة من (الله) . . . !

لقد انتهى الإنسان الذى جعل العلم محرضاً له على الإلحاد إلى أن يصل فى نهاية طريقه إلى تفويض طبيعة العلم النورانية ، الدالة على الله بين طرفى

الساكن والمتحرك ، أو الدنيوى والأخروى ، وإلى أن يهدم جميع المفاهيم النافعة للإنسان ، والحافظة لأمنه ، يوماً بعد يوم ، فى دوامة حياته الجديدة .

يقول برتراند رسل فى شرح هذا الجانب الهدام نفسياً فى آثار النظرية النسبية : (وتعتمد النظرية النسبية إلى حد كبير على التخلص من المفاهيم التى تعد نافعة فى الحياة العادية ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لمسافر البالون الواقع تحت تأثير المخدر . ذلك : أن الظروف التى تنشأ على سطح الأرض توحى بأسباب عرضية ، متعددة بتصورات نتبين فيما بعد أنها غير دقيقة ، وإن أصبحت تبدو كأنها ضرورات للفكر) !

إن هذه الأسباب العرضية فى تفسير برتراند رسل ، والتى يعتمد عليها (التوازن) الضرورى لفكر الإنسان فى الحياة العادية واليومية ، هى التى اعتبرها علم القرآن الكريم مدخلا طبيعياً إلى العلم الذى ربطه الله بالإيمان ، وسخره الله للإنسان . . والطريق مفتوح بعد ذلك إلى العلم الدقيق ، الذى يقود الإنسان ليعبر به فى مرحلة دنيوية عارضة . . يعبر من خلال عمارته للأرض ، وبنائه للرخاء ، وتوطيده للسلام ، إلى حياة أبقى ، وعلم أكثر .

يقول الله للإنسان وهو يجعل مدخل علمه : أن يعلم مدى رحمة الله به ، وتسخيره الأشياء له ، وتزيينه الحياة والأمل فى عينيه :

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا » (نوح : ١٩)

ويقول :

« وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » (الذاريات : ٤٨)

ويقول :

« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » (الحجر : ١٩)

ويقول :

« وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا » (الرعد : ٣)

فصورة الأرض المبسوطة ، الممتدة ، المفروشة ، المستقرة بالرواسى ، فهى غير مهتزة . ولا قلقة . هى حقيقة علمية (نسبية) يرى بها الإنسان نفسه بمشيئة الله ورحمته . وعلمه وقدرته ، هو المتحرك فوق الممتد المنبسط الساكن ، الذى يصلح قراراً لعيشه وأمنه وأمله . ولو قد رأى الإنسان بعينيه هذه الأرض كرة يتسلق جوانبها ، وهى تسرع به راكضة فى الفضاء ، بينما تثقب أذنيه ، وتروع قلبه زلزلة الإنفجارات الهيدروجينية التى يسمعها فى الشمس ، كما يسمع أصوات ما يجرى فى باطن الأرض ، وما يهيج على ظهرها — ما استطاع هذا الإنسان أن يعيش لحظة ، بل ما كان من الممكن أن يكون هذا الإنسان إنساناً ، إذ كيف يأنس . . وإلى أى شىء يأنس . . وقد وجد نفسه على ظهر قذيفة كوكبية وعرة هى الأرض ، ودون أن يتعاطى ذلك (المخدر) الذى أشار إليه برتراند رسل فى حديثه عن مسافر البالون فى الفضاء ، والذى هو لازم لهذا المسافر ، حتى لا تصدمه أمواج الحقائق العلمية المغايرة ، وهو يجتازها فى الفضاء ! !

إنه بدلا من هذا (المخدر) الذى سوف يتعاطاه المسافر إلى الزهرة أو المريخ فإن القرآن يقص فى آياته علينا ظواهر وقوانين هذا العلم الذى

صنع الله به للإنسان وهو يرحمه ، وينعم عليه ، مناخ (التهدئة) لحياته ، والتوازن وسط ظروفه ، فهو يتحرك مفتوح العينين ، نشط الحواس ، واسع الأمل ، قادراً على التأمل والتفكير ، فوق أرض مطمئنة له ، مبسوطة أمامه ، وتحت سماء مزدانة بمصابيحها ونجومها ، ليهتدى بها دون أن تمل ، ولتطلع عليه وتغيب دون خطأ فى الوجهة والحساب .

ومع هذا المناخ المهدىء للإنسان فوق مستقره الزائل ، فإن الله يمنحه القدرة أيضاً على أن يكشف بعقله وبصيرته علماً آخر وراء ما يجرى ، علماً أشمل فى دلالته ، وأبعد فى إشارته . . علماً يشير إلى الإلهى فى الغاية .. والأخروى فى الكمال . . والخالد الذى لا يزول ، بعد هذا المتغير الذى سوف يزول .

يقول الله فى أن الأرض كروية :

« وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » (النازعات : ٣٠)

ويقول أيضاً فى كرويتها :

« يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ » (الزمر : ٥)

فلو كانت الأرض مبسوطة لسقطت عليها الشمس مرة واحدة فى نهار واحد لا يتكور أبداً .

ويقول سبحانه فى حركة هذه الأرض :

« وَأَلْقَى فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » (النحل : ١٥)

وكيف تميد الأرض إن لم تكن تتحرك ، بل وتسرع فى الحركة !؟

ويقول فى دوران الأرض فى فلك مع شمس القمر :

« لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (يس : ٤٠)

ويقول سبحانه أيضاً :

« وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » (يس : ٣٨)

فإذا كانت الشمس مع سبحها فى فلكها تجرى لمستقر لها ، أى إلى غاية بعيدة تستقر بعدها ، فى تقدير العزيز العليم ، فهى تجرى ولا شك والقمر معها . . والأرض معهما . . وإلا لانسلخ الليل من النهار . . وعن النهار . . ولم يعودا يلتقيان ولا يتتابعان فى يوم الأرض . . وهذا ما لم يقع بعد !

العـــلم المهيمن :

هذا إذن هو العلم فى القرآن الكريم . . العلم الذى يقود بالإيمان علم الحياة ، ويهيمن بعلمه على كل كتاب نزل من عند الله .

والقرآن الكريم بهذا العلم هو الكتاب الذى أنزله الله ليقوم بالعلم ، وليقوم على العلم ، غير متناقض فى آياته وكلماته وحقائقه مع أى علم صادق للدين . . أو للتاريخ . . أو للأشياء . . بامتداد كل العصور ، وإن لم يكن كتاباً تسجيلياً يناقش أو يعلم مدرسياً علم التاريخ ، أو علوم الطبيعة . . وهذه فيه هى آية الله الكبرى .

والقرآن بعد ذلك هو كتاب علم الغيب الذى يعلمه الله لعباده . . العلم اليقينى عن البعث بعد الموت ، والحساب بعد البعث ، والجزاء بعد الحساب . . ثم الجنة أو النـــار .

وهو فى هذا العلم اليقينى يضع المؤمنين فى نطاق الأمن تجاه الغاية الحكيمة من هذه الحياة . . إنه يحفظهم بهذا العلم اليقينى عما كان قبل الخلق، وعما يكون بعد الحياة ،من التردى فى المحاولات الطائشة لمعرفة كل ما هناك، من طريق الفلسفة التجريدية ، التى ضاع بها صواب فلاسفة اليونان . . أو من طريق الفلسفة العلمية المعاصرة ، التى انحلت من العروة الوثقى بالإيمان ، وقطعت حبلها مع الله ، وهى تنحدر بالإنسان ليثقب لنفسه ثقباً فى السماء فينظر منه . . أو لتمد له سبباً فوق المجرات ليتطلع لمـــا بعده . . ودائماً فإن رواد الفضاء فى الأقمار الصناعية . . أو من وضعوا أقدامهم على تراب القمر يقولون متعجبين : (نحن لم نر الله) . أو : (أين هو الله) ولكن الله يراهم . . وكلما تصوروا أنهم عاجزوه . . وسبقوه . . وتركوه.. وقعوا فى التيه . . وملأوا أيديهم بالكثير المفزع من الفراغ . . بالكثير من خرافاتهم العلمية !

من أجل هذا وضع الله علم الغيب . . علم الآخرة . . وصورة الجنة .. ومصير النار أمام المؤمنين . . وأنبأهم : أن سؤالهم عن الروح . . وكيف هو علم الخلق . . ولمـــاذا لا يهدى الله الناس أجمعين . . أو :

« لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ »

(الأنعام : ١٤٨)

كل ذلك لا يزيدهم علماً عما أوتوه من العلم القليل .. ولا يُعدّهم لمعرفة ما لا طاقة لهم العلم به ، قبل أن يتم ابتلاؤهم ويخرجوا لملاقاة ربهم .

العلم الممكن إذن قليل ، كما يدرك ذلك علماء العصر ، وهو قول متفق مع ما جاء به القرآن الكريم . ولكن العلم القليل الذى ييسره الله للمؤمنين بالإيمان ، والذى يهديهم إلى صحة استخدامه بعلم القرآن ، قد أعطى المؤمنين القوة مع الأمن ، والأمن مع الرخاء ، والرخاء مع المحبة ، والمحبة مع الأمل والشجاعة واليقين . . اليقين فى حياة مقبلة ، فى جنة عرضها كعرض السماوات والأرض . . بعد هذه الحياة ، حيث سيعلم الإنسان عندها أكثر وأحب ما يريد أن يعلم عن الحياة . . وواهب الحياة .

* * *

السؤال الثانى :

ما هو مفهوم كلمة (آية) وكلمة (معجزة) من واقع استعمال القرآن الكريم لهاتين الكلمتين ؟ وهل فى معنى كلمة آية التى أيد الله بها أنبياءه بين أقوامهم ما يشير أو يثبت أن الآية خرق أو كسر للقوانين العلمية التى هى تدبير الله ومشيئته ؟ أيد رأيك من كتاب الله .

الإجـــابة :

جاءت كلمة (آية) باستعمالاتها المتعددة فى القرآن الكريم ٣٨٢ مرة ، ومن المهم أن نذكر أيضاً أن كلمة (بينات) و (بينة) قد جاءت فى القرآن الكريم صفة للآيات أو مترادفة مع معناها ، وتأكيداً لها فى استعمالات متعددة ٢٤٨ مرة ، بينما وردت مادة (أعجز) فى كلمات (مُعجز) و (معاجز) ١٩ مرة فقط ، ومناقشة هذه الاستعمالات الواضحة لكل من (آية) و (معجزة) تحدد لنا من غير جهد ، أو لبس ، مقصود القرآن الكريم من معنى كل منهما ، بحيث يمكن أن نصحح ما درج عليه المسلمون فى العصور المتأخرة من استعمال الكلمتين بمعنى واحد ومتساو ، بينما الحقيقة القرآنية تؤكد أن لكل منهما معنى مختلفا عن الآخر ، وأن الآيات لا تكون إلا من الله ، وأن المعاجزات التى هى إلحـــاد وتكذيب للآيات لا تكون إلا من الكفار ، فكيف يمكن أن تكون كلمة (آية) تعنى وتساوى كلمة (معجزة !؟) .

الآيات البينـــات :

الآية فى اللغة العربية تعنى العلامة والإشارة ، والدلالة ، والأمارة ، والعبرة . وإياة الشمس ، بكسر الألف أو فتحها ، يعنى ، نورها وحسنها .

والآية والآيات فى القرآن الكريم : كلام الله المفصل ، الذى أنزله على رسوله ليبلغ به دعوته إليه . والذى يصفه الله بقوله :

« كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

(فصلت : ٣)

والآيات تأتى فى القرآن الكريم بمعنى عام للعلامة الدالة على قدرة الله بطريق حسى . مثل الآيات التى أيد الله بها الرسل ، كما وردت فى قصص الأنبياء ، وهى تتراوح بين آيات الرحمة ، مثل شق البحر ، وآيات التخويف ، مثل عصا موسى ، وآيات العذاب مثل طوفان نوح .

وسواء أكانت الآيات وقائع حسية بصرية تنتهى بانتهاء دلالتها ، مثل آيات نوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى والمسيح ، أو كانت الآيات كلمات قرآنية عربية ، لا تنقضى دعوتها ، ولا تنتهى دلالتها ما بقى القرآن والناس والحياة ، فإن هذه الآيات كلها من الله توصف بأنها (بينات) .. أى : إنها جاءت مبينة لقدرة الله ، ورحمة الله ، وهداية الله ، وعذاب الله ، لمن دعاهم الله ، إلى طاعته وتقواه لعلهم يعقلون ، ويتذكرون .

يقول الله تعالى :

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »

(البقرة : ١٨٧)

ويقول سبحانه :

« وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (البقرة : ٢٢١)

ويقول الله تعالى :

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

(البقرة : ٢٤٢)

ويقول عن موسى وآل فرعون :

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ »

(غافر : ٢٨)

فهنا مثلا تحل كلمة (البينات) محل كلمة (الآيات) .

ويقول الله عن آيات القرآن الكريم وبيانها :

« لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (النور : ٤٦)

الإعجاز والمعاجزات :

أعجزه . . يعجزه فى اللغة يعنى جعله عاجزاً ، أو سبقه وفاته إلى أمر سابقه إليه ، والتعجيز التثبيط ، ويحدث ذلك عند التحدى ، وفى قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ » (الحج : ٥١)

أى : أولئك الذين يعاجزون الأنبياء وأنصارهم بتكذيبهم ، ومعاندتهم ، وقتالهم ، ليصيروا إلى العجز عن أمر الله ، وهم فى هذا يظنون أنهم يسابقون أمر الله ، أو يعجزون الله . . !

الإعجاز إذن والمعاجزة يعنيان فى كتاب الله : تكذيب الكفار لآيات الله ، وظنهم القدرة بأنفسهم على إبطال هذه الآيات ، سواء أكانت وقائع مشهودة مثل آيات المسيح ، والآيات التسع لموسى ، أو كانت قرآنا مبينا مرتلا أنزله الله يهدى من يتدبرونه إلى صراط مستقيم ويشرح الله هذه المخالفة الواضحة بين معنى الآية ومعنى المعاجزة فى مثل قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ »
(الحج : ٥١)

وتأتى كلمة (معجز) فى القرآن بنفس المعنى فى قوله تعالى :

« وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِىَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ »
(الأحقاف : ٣٢)

ويقول أيضاً :

« وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ »
(فاطر : ٤٤)

وهكذا يتأكد أنه لا توجد كلمة (معجزة) فى القرآن بمفهوم أنها الآية من الله ، وإنما تأتى كلمة (معجز) فى صيغة الجمع بنفس المعنى المحدد فى كتاب الله وهو (التكذيب) و (الجدل) وذلك فى مثل قوله تعالى :

« لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ » (النور : ٥٧)

إذن فالآيات فى القرآن الكريم شيء ، والمعاجزات والإعجازات شيء آخر . الآيات من الله لتبين للناس ، والمعاجزات من الكفار لتكذيب كلام الله ، والنصر المحتوم فى كتاب الله هو لآياته البينات ، وليس لمعاجزات الكافرين !

القول بالتحدى :

ولكن الذين عاجزوا معانى كلام الله بتفسيرها فى عصور الانحلال الأولى على عجمة اللسان ، بعد أن غلبتهم على الصواب رجعة معتقداتهم القديمة ، وسطوة أهوائهم المستحدثة ، توهموا أن القرآن الكريم لم ينزل على العرب بلسانهم العربى — فيسبغ عليهم بعد إيمانهم نعمة الإسلام ، ومجد دولته ، وعز حضارته ، بعد أن كانوا صيدا آبدا للروم والفرس ،

وهلا بادياً فى أعينهم — إلا لأن الله أراد بهذا التنزيل أن يتحدى بلاغة هؤلاء العرب ، وأن يعجزهم بهذا الكتاب ، معلناً على العالمين عجزهم ومزرياً بهم وببيانهم ، حتى إذا ما عجزوا آمنوا ! !

لقد انساقوا إلى هذا الافتراض المتعسف بسبب عجزهم الطبيعى عن إدراك هذا الفارق العظيم بين اللسان الأعجمى واللسان العربى فى إحراز المعنى العظيم ، وامتلاك القوة المعنوية فى الكلمة والجملة واللغة على تصور الحق المبين ، وملاحقة هذا الحق فى أشكاله ، وما ينبغى له ، وما لا يجوز عليه . فكان هذا العجز فى رؤيتهم لكلام الله ، وفى قصورهم عن تصور كماله ، واستقبال رشده ، قناعاً على أبصارهم وبصائرهم . غفلوا به عن البديهية التى تقول إن مالك اللغة المبينة هو المالك للمعنى المبين. وهو المالك لإدراكه فى المحكم والمفصل ، فى مثل الكلام المحكم والمفصل ، الذى ينزل به الدين الحق بكل كمال معانيه من الله الحق .. فمن أجل ذلك يكون من الحق أن كلام الله حين ينزل على لسان البشر عربياً مبيناً ، فإنما لأنه اللسان الذى يملك ويتسع بين ألسنة البشر ، ليحمل معانى كلام الله . ومن أجل ذلك تكون الأمة التى ينزل إليها هذا الكلام ، على رسول منها ، أمة (عربية) اللسان مبينة ، متصرفة فى القول ، عالمة بمعانيه ومراميه ، لا ليعجزها الله به ، أو ليتحداها أساسا حتى تأتى بمثله .. وإنما لتسمع بلسانها وتعى ، وتتذكر وتهتدى ، وهذا هو الذى كان من هذه الأمة العربية اللسان ، عندما نزل عليها القرآن ! يقول الله فى أن القرآن للهداية وليس للتعجيز :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » (ص : ٢٩)

إن القول بأن الله قد تحدى عباده بالآيات ليعجزهم ، سواء أكانت الآيات حسية أو قرآنية ، قول ينكره علمنا بأن الله الخالق القادر ، يعلم ولا ريب عجز المخلوقين به بين يديه ، وأن من فى الأرض جميعا من البشر لا يملكون حولا ولا قوة بإزائه . القول بأن الله الخالق العزيز القادر يعجز بآياته العاجزين وهو إنما يريد حياتهم بالإيمان ، قول تنكره بداهة الفطرة ، وحجة العلم ، وهداية الحق ، بل ينكره محض الأدب تجاه الرحمن الرحيم .

إن آيات الله فى أى وجه توجهت إليه لم تكن تحديا من الله لمن دعاهم ، أو تعجيزا لهم — تنزه الله عن ذلك — بل كانت علامات رحمة وقدرة ، ليتذكر الغافل ، وليهتدى الضال . لقد كانت نورا يكشف الحجب ، وحياة تقهر الموت ، وهو سبحانه القائل فى ذلك :

« أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا »

(الأنعام : ١٢٢)

وهو سبحانه القائل ما يفيد أن قرآنه برهان من الله عليهم وليس تعجيزاً أو تحدياً :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا » (النساء : ١٧٤)

ويقول سبحانه لنبيه المصطفى :

« مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا »
(الشورى : ٥٢)

ويقول :

« وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ » (النور : ٤٠)

ويقول سبحانه فى غايات الدعوة ، وأنها الهداية والعلم ، وإتمام النعمة :

« يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم »
(النساء : ٢٦)

ويقول :

« وَلكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ » (المائدة : ٦)

ويقول :

« قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » (يونس : ٥٧)

ويقول :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » (الأنبياء : ١٠٧)

ويقول فى إظهار غاية الدين بإيمان المؤمنين :

« هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » (الصف : ٩)

ويقول فى تأثر المؤمنين بسماع الآيات :

« اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ » (الزمر : ٢٣)

ويقول فى يسر القرآن عليهم ليفهموه :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » (القمر : ١٧)

ويقول لهم ليتدبروه :

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » (محمد : ٢٤)

وهكذا تمضى الآيات التى أنزلها الله تعلن الهداية وليس التحدى أو التعجيز لعباده العاجزين عنه ، كما يعلمهم سبحانه ، بل إن آياته الهادية لمن توجه إليهم بلسانهم — هى علامات رحمته وهدايته ، وقدرته وعلمه ، وهى تظهر لهم دون شبهة العجز عن فهمها .. تظهر لهم نوراً فى كلام الله الدال عليه سبحانه ليتذكروا ، ويعقلوا ،

ويهتدوا . وفى هذا الاتجاه التربوى يقول الله فى ملاحقة القرآن لهم بالآيات حتى يتبينوا :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » (فصلت : ٥٣)

وفى أنفسهم . أى : بالقرآن الذى يهديهم ، وينير بصائرهم وأبصارهم .

ولئن كانت آيات الله كما هى إلى اليوم حولنا ، وكما فى كتاب الله وفى أنفسنا ، هى بين أيدينا علامات حية على قدرة الله ، فإن قدرة الله ليست كما أريد بتفسيرها على الوجه الخاطىء تناقضاً مع واقع الإنسان فى حياته الدنيا ، حتى تبدو له تعجيزاً أو تحدياً ، ذلك أن هذه القدرة هى للمؤمن هدى وعزة وسكينة ، ونور وحياة ، وأما الكافر — قديماً وحديثاً — فهو المعاجز وحده ، الذى عميت عينه عن الآيات ، وأصاب سمعه الوقر ، فلم يهتد إلى شىء ، وضل عن سواء السبيل .. !

الآيات المتحديات :

والآن فلنسأل : إذا كان الأمر هكذا فى وضوحه فى كتاب الله ، فلماذا انحرف الذين انحرفوا فى فهم معنى الآية إلى هذا الخطأ المبين ، الذى جعلوها به مساوية لكلمة المعجزة ، مع التصادم الواضح بين المعنيين فى القرآن الكريم ! ؟

والجواب هو : أن فى القرآن الكريم بضع آيات قليلة نزلت فى الرد على بعض المشركين ، الذين — مع علمهم أن القرآن ببيانه هو حق

من عند الله — أنكروا ذلك فى جدلهم للرسول الكريم ، وفى معاندتهم ومعاجزتهم لله فى دعوته ، فقالوا :

« إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » (النحل : ١٠٣)

على هذا الجدل والتكذيب والمعاجزة من بعض المشركين . رد الله بهذه الآيات القليلة التى استندوا إليها فى إذاعة القول بمبدأ التعجيز بالقرآن ، ونسبة التحدى به إلى الله ، والتوصل إلى هذه المعادلة الأعجمية المبتدعة ، وغير الصحيحة ، وهى : الآية من الله تساوى التعجيز منه للمدعوين . أو الآية : المعجزة !

لقد رد القرآن الكريم على جدل هؤلاء المشركين ، وذلك سيراً على كمال المنهج القرآنى فى الدعوة ، والتعليم ، والزجر ، ولفت النظر ، وإبطال الحجة بما يليق بالله سبحانه ، وليس هو التحدى — كما زعموا — من الله القادر القاهر فوق العباد .

فأما عن قولهم :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » (النحل: ١٠٣)

فلقد أجابهم الله عن زعمهم بقوله فى نفس الآية :

« لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ » (النحل : ١٠٣)

وبذلك قطع لسانهم وحجتهم .

وأما عن قولهم :

« أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » (الفرقان : ٥)

« إِفْكٌ افْتَرَاهُ » (الفرقان : ٤)

فقد طالبهم القرآن بالبرهان على ما يدعون ، حتى يرجعوا إلى أنفسهم ، ولينظروا فيما نزل من ربهم ، وهم يعلمون أنه الحق يقيناً ، فهو يقول لهم :

« قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ » (يونس : ٣٨)

ويقول :

« فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » (هود : ١٣)

ويقول بعد الهجرة إلى المدينة لمن أعادوا نفس الإدعاء من المشركين :

« وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ » (البقرة : ٢٣)

أولا — نقول إن مواجهة المشركين بطلب الآيات المماثلة ، ليست تعجيزاً لهم من الذى يعلم أنهم على يقين بأن القرآن حقاً من عند الله . وذلك فى قوله تعالى :

« قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُون فَإِنَّهمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » (الأنعام : ٣٣)

أى إن الله يعلم حزنك يا محمد لتكذيبهم لك ، وقولهم عن القرآن : إنه أساطير الأولين ، ولكنهم لا يكذبونك فى الحقيقة ، بل يجحدون ما علموا بغير سلطان ، أى : بغير برهان ، وذلك حيث يقول تعالى :

« الَّذِينَ يُجَادِلونَ فِى آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ » (غافر:٣٥)

فالمطالبة بالآيات المماثلة للقرآن ، أو بكتاب بأكمله من عند الله غير القرآن ، إنما هى رد الله على جدل المشركين لإبطال تكذيبهم ، ولمواجهتهم بأنفسهم التى جحدت الحق حيث لا برهان لديهم ضد ما يجحدون برهانه قائما فى يقينهم وإن جحدوه .. وهذا طريق للهداية دخله برحمة الله وحلمه كثيرون من المشركين المعاندين بعد أن أسقط فى أيديهم مع تصاعد انتصار الحق وجلائه . فآمنوا .. وأسلموا .. وحسن إسلامهم .. !

وثانياً ــ الآية الأولى فى القرآن الكريم لمواجهة المكذبين بطلب البرهان على ما يدعونه من : أن القرآن ليس هو كلام الله ، بل هو سحر وأساطير ومفتريات ، نزلت بعد نحو تسع سنوات من بدء الدعوة ، لم تسبق فيها مثل هذه المواجهة الحاسمة للمكذبين . لقد نزلت هذه الآية قبيل وقوع الإسراء بالنبى فى سورة القصص ، لتؤرخ لهذه الفترة البالغة الشدة والحرج فى مسار الدعوة فى مكة ، وما لاقاه النبى

صلى الله عليه وسلم من اشتداد الأذى والتكذيب بعد موت كل من السيدة خديجة رضى الله عنها ، وموت عمه أبي طالب ، وحيث كانت آية الإسراء تثبيتاً له فى وجه هذا العنف فى مقاومة الدعوة ، وبشيراً له بالنصر المبين .

يقول الله فى سورة القصص التى نزلت قبل الإسراء :

« فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالوا لَوْلَا أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِىَ مُوسَى مِن قَبْل قالوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالوا إِنَّا بِكلٍّ كَافِرُونَ ﴿ قلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (القصص : ٤٨، ٤٩)

بهذه الآية يفتتح القرآن الكريم فى تلك الفترة العصيبة منهجه فى المواجهة بطلب البرهان . وهو إذ يطالب المشركين بكتاب من عند الله . وليس بكتاب مثله من عند أنفسهم ، إنما يضعهم أمام حقيقة افتقادهم البرهان على شكهم الأول ، وشكهم الأكبر فى أن محمداً الذى لم يجربوا عليه الكذب قط هو رسول من عند الله ..

ثم يمضى هذا المنهج خطوة أخرى فى مواجهة التكذيب ، فيقول فى سورة الإسراء التى نزلت بعد القصص وهو يصف القرآن الكريم :

« قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» (الإسراء : ٨٨)

إنه هنا يقرر الحقيقة الثابتة فى أنفس المشركين ، ولا يريد سبحانه بداهة وهو القادر والعالم — أن يجمع الإنس والجن على أمر يعلم عجزهم عنه ولا ريب ، وإن أحداً من المشركين فى مكة ليس جاداً قط فى أن يواجه القرآن بادعاء القدرة على مثله وإلا فأين خبر هذه المحاولات التى لم يسمع بها أحد بعد الإسلام !؟

بعد هذه الآية نزل قوله تعالى :

« قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ » (يونس : ٣٨)

وهى السورة التى نزلت بعد الإسراء ، ثم نزل قوله تعالى :

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » (هود : ١٣)

وهى السورة التى نزلت بعد يونس ، ثم نزل قوله تعالى :

فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » (الطور :٣٤)

وذلك بعد هود بمرحلة من السور تجاوزت العشرين سورة لم تنزل فيها آية من هذا القبيل .

ثم نزل قوله تعالى :

« وإنْ كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ » (البقرة : ٢٣)

وقد نزلت بعد هجرة النبي إلى المدينة للرد على مثل من كذبوا من المشركين بها .. ثم – مع المد الإسلامي المتدافع – لم ينزل من القرآن الكريم شيء بهذا المعنى مرة أخرى .. فلقد كان البرهان المطلوب لبقية الكفار جلياً ومدوياً في انتصارات المسلمين المتلاحقة ..

ومن هذا يتبين أن الناس إذا كانوا قد اعتادوا في عصور الانحلال أن يقولوا إن القرآن الكريم (معجز) بمعنى أن أحداً من البشر لا يستطيع أن يأتي بمثله فالصحيح أن نقول – كما يعلمنا القرآن – إن القرآن (آيات الله البينات) كما وصف الله قرآنه بأكثر من موضع ، ومثل هذا التعبير القرآني كاف ليؤكد أن أحدا من البشر لا يستطيع أن يأتي بآية أو بسورة من مثله إذ كيف يأتي أحد بمثل هذه الآيات التي لا يمكن أن تكون بعلاماتها ونظمها وظاهرها وباطنها إلا من عند الله كما يدرك ذلك من يتدبرون القرآن ، ومن يستبينون البيان .

لا تبديل لسنن الله :

أما عن الجزء الآخر من السؤال وهو : هل في آيات التأييد من الله لأنبيائه خرق أو كسر للقوانين العلمية التي هي من تدبير الله ومشيئته ؟ فنقول في الإجابة إن هذا الكسر للقوانين العلمية التي هي : مشيئة الله وأمره وتدبيره ، لا يمكن أن يقع في صورة آيات التأييد للأنبياء ، سواء أكانت آيات حسية مشهودة ، أو آيات تنزيلية مسموعة .

فهذه الآيات بأنواعها من الله هي التأكيد لسننه ، والبيان عن علمه ، والبرهان بذلك عليه ، وهو سبحانه وتعالى : القائل :

« فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً »
(فاطر : ٤٣)

ولكن حدث أن هذا الخطأ الذى أشرنا إليه فى تفسير الآية بأنها (معجزة) ، قد فتح الباب — مع الردة العقلية ، والتراجعات الجدلية إلى الديانات والفلسفات السابقة لانتشار الإسلام — إلى ربط الآية بضرورة كسر القوانين العلمية ، والسنن الجارية ، وإلا فكيف يتحقق الإعجاز أو التعجيز ! !

إن الإعجاز فى الآيات بهذا التصور الذى يقف به المؤمن أمام آيات الله (عاجزا) لا (فاهما) . والذى ينتفى به شرط وقوع الفهم والتدبر للآيات ، حتى يتم الخشوع بالفهم ، والعلم للرحمن الذى تنزل بالآيات .. إن الإعجاز بهذا التصور المقلوب كما شرحنا قد زلزل من عصمة المسلمين خلال عصور انحلالهم بهذه العروة الوثقى من الهداية والإيمان ، حيث أصابهم الوهن والتفرق ، وركبهم أعداؤهم ، وهم يواجهون العجز فى حياتهم ، والتعجيز لأفهامهم من كل شيء ، وقد غمرهم سيل من الخرافات والأساطير جرف أمامهم مقومات دولة العلم التى أقامها القرآن ، وأطفأ نور الهداية الذى أرسلته هذه المنارة للإيمان ، حتى استخفهم واستخف بهم قوم منهم تألهوا عليهم ، وزعموا

لهم ، أو زعم عنهم غيرهم : أنهم القادرون على خرق القوانين ، وكسر العلم ، وتبديل سنن الله ، ، وهذا فى واقع الحال ، وفى أمر الله .. لا يكون .. ولن يكون !

ولقد كانت هذه الطامة التى زعزعت الصروح ، وأطفأت المصابيح قمينة بأن توقع اليأس فى قلوب المؤمنين حول مصير المسلمين على هذه الأرض ، لولا كتاب الله الذى وعد الرحمن بحفظه ، ولولا بقية من جند الله ، والعلماء الذين علمهم الله ، الذين ثبتوا عبر العصور حول القرآن ، يشقون بنوره الظلام ، ويكسرون بصوته الصمت ، حتى لا يصبح القرآن بين الغافلين مهجوراً .

ولقد امتد هذا التأويل للآيات بمفهوم التعجيز ، والكسر والتبديل لقوانين الله وسننه إلى الكثير من حقائق الإسلام ، وآيات القرآن ، وسيرة النبى الكريم . ونكتفى بمثال واحد على ذلك ، لكثرة ما وقع فيه التصادم والاختلاف ، والتناقض بين علماء المسلمين .. بين من يلتزمون بالحق من أجل العمل به .. ومن يضعون الحق فى غيب من الخوارق للسنن . والكواسر للعلم ، ليعجزوا عنه . ونعنى بهذا المثال قصة الإسراء والمعراج ، التى لم ينته حولها خلاف العلماء حتى هذا العصر ... بل إنها كما تصور البعض – أدعى فى ظل غزو الفضاء ، ونزول الإنسان على القمر ، أن يمتد حولها الخلاف ويشتد ... وكان الأجدر بنا أن نواجه من نزلوا بعلمهم على القمر بالعلم الذى يزيده الإيمان نوراً وَطَوْلاً فى أرجاء ما سخره الله للإنسان فى السماوات والأرض .. لا أن نواجههم بالخرافات التى لا تغنى من العلم والحق والإيمان شيئاً .. !

الإسراء والمعراج :

لقد استمر خلاف العلماء منذ عصر التدوين ، وانتشار المذاهب والفرق والطرق حول آية الله فى الإسراء فى أكثر من نقطة لهذا الخلاف المزمن . إلا أن أشهرها وأخطرها كان ولا يزال : خلافهم حول وقوع هذه الآية بالرؤيا مناماً ، أم باليقظة حركة وجسداً . وهو خلاف ، يدل فى حقيقته على استمرار هذه المواجهة المستمرة فى تطلع المسلمين إلى النهوض الشامل ، بين العلماء أصحاب النظرة القرآنية العلمية فى فهم الآيات ، وبين العلماء الآخرين أصحاب النظرة الوضعية الأسطورية ، فى مفهوم التعجيز . والمعجزات .

من العلماء المعاصرين الذين يرون الحق فى أن الإسراء بالنبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بالرؤيا التى لها قوة الوحى : العالم المستنير الشيخ عبد الجليل عيسى وذلك فى بحث مستفيض له نشره فى مجله منبر الإسلام وسوف يصدره فى كتاب خاص بهذه الآية إن شاء الله .

يقول الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى فى بحثه هذا (إن أول من أسندت إليهم الشهادة بأن الإسراء كان مناما : السيدة عائشة رضى الله عنها أم المؤمنين ، وحذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، صاحب سر الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعاوية بن أبى سفيان ، أحد كتاب الوحى رضى الله عنه ، والحسن البصرى رحمه الله صاحب رسالة (الإمام العادل) التى طلبها منه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز) .

ويقول الشيخ عبد الجليل عيسى أيضاً فى تأييد رأيه : (لو كان الإسراء والمعراج بالجسم فى اليقظة ، لوجب أن يكون ذلك بمحضر من الجمع الغفير من المؤمنين والمشركين . ليزداد الذين آمنوا إيمانا ، وليفحم المشركون ، إذ ما الفائدة فى إسرائه ليلا والناس نيام ! ؟) .

ثم يقول : ولقد استأنس من قال من العلماء : إن الإسراء كان مناما بما رواه البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك ولفظه : قال شريك ابن عبد الله : سمعت أنس بن مالك يقول : ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من الكعبة .. إلى أن قال : جاء ثلاثة نفر وهو نائم فى المسجد الحرام ثم ذكر الحديث بطوله وفيه (أنه فرضت عليه فيه الصلاة ، ثم قال فى آخره : واستيقظ صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد الحرام) .

شهادة القرآن :

أعود بعد هذه الكلمات فأقول مستفتحاً بذكر الله وحمده :

أولا — وجب على المسلمين فى هذا العصر ، وبخاصة مسلمو الوطن العربى ، أن يفسحوا للتعقل والتروى وحسن الفهم عن القرآن الكريم مكاناً من اهتمامهم ، ليفهموا آية الإسراء على حقيقتها ، وليعلموا لماذا أكرم الله نبيه بهذه الآية ، وما هى حكمته سبحانه منها فى كثير من الآيات الحسية الكبرى ، التى شهدها المسلمون المجاهدون من أصحاب النبى بعد موته ، وشهدها العالم كله فيما بعد ، وهى تستمر

حول القدس عصراً بعد عصر ، إلى هذا العصر الذى تظلنا فيه آيتها فى هذا الصراع المقدس ضد اغتصاب اليهود للمسجد الأقصى ، والعدوان على أرض وشعب فلسطين ، ومحاولة القضاء بأطماع إسرائيل على جميع المقومات الإسلامية فى أرض العرب من اللغة والدين ، ومن الأرض والموارد ، ومن حرية وحرمة المدينتين المقدستين مكة .. والمدينة !

ثانيا — هذه الآية بإسراء النبي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى آية خاصة بالنبي . لتثبيته وتبشيره فى وقت شدة ، مثل الآية التى أرى الله بها إبراهيم كيف يحيي الموتى ، ومثل الآية التى كلم الله فيها موسى بالوادى المقدس طوى ..

فالإسراء ليس آية عامة فى مواجهة المؤمنين والمكابرين ، والثابت الذى عليه الإجماع أنها لم تقع فى مواجهة أحد ، ولو كان ذلك حدث ما كان فيه خلاف فى الهيئة والحالة التى كان عليها الإسراء .

ثالثاً — يشهد القرآن الكريم شهادته الدامغة التى تتطاير فى ضوئها كل الخرافات والأساطير بأن الصعود بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء صعوداً حسياً مشهوداً بالعيان واليقظة والجسم لم يقع قط ... بل ولا يرضى الله — مع قدرته على كل شيء — أن يقع . وهذه الشهادة المبينة التى لم يقرأها أصحاب القول بإسراء اليقظة والجسم ، أو التى قرأوها ولم يتفهموها هى فى سورة الإسراء نفسها . وذلك حيث يقول الله فى الرد على بعض (مطالب) المشركين و (معاجزاتهم) :

« وَقَالوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا »

إلى قوله تعالى : (الإسراء : ٩٠)

« أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولًا »

(الإسراء : ٩٣)

لقد كان هذا هو المطلب ... لتتاح الصورة التي أرادها المفسرون باليقظة ، ولتتاح الآية على مشهد من الناس مؤمنين ومكذبين ... فماذا كان جواب الله الذى أبلغه النبي بالقرآن على هؤلاء ! ؟ .

يقول الله لنبيه أن يقول لهم بالبرهان المبين :

« قلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولًا » (الإسراء : ٩٣ ، ٩٤)

ما معنى هذا البرهان بالنسبة لمن يفسرون الإسراء باليقظة والجسم ؟

معناه : أن الله يقول للمشركين : إن الرسول بشر ... والبشر لا يصعدون إلى السماء ... الذين يصعدون إليها هم الملائكة ... ولو كان الملائكة يستطيعون الحياة مطمئنين بين البشر لأرسلنا إليكم ملكاً رسولا (يصعد ويعرج فى السماء) كما ذكر سبحانه فى الآية التالية :

« قُل لَّوْ كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا » (الإسراء : ٩٥)

إن تأكيد الله القادر لبشرية الرسول التى تمنع من صعوده يقظة وبالجسم فى السماوات العلا ، إنما هو آية من آيات الله لرسوله الذى آتاه الخلق العظيم ، وأنزل عليه الكتاب الكريم ... وهو تأكيد يحفظ الله به حرمة العلم من العبث ، وسنن الخلق من التبديل ، فالعلم هو بالنسبة للإنسان آيات الله المستمرة فى الآفاق وفى نفسه ... وهو برهانه الدائم والقريب إلى الله ... وإلى فضل الله .

والله سبحانه فى المعنى العظيم لتأكيد هذه البشرية لمن هو أفضل البشر ، وأفضل الرسل — يوجه أنظار من نزل إليهم القرآن ، وينبه عقولهم إلى أن أعظم آيات الله إلى أنبيائه هى آيته بالقرآن الكريم ، لأنه آية الحياة للإيمان والهدى ، وآية العلم بالبصيرة والعقل . وقدم سبحانه لذلك فى سورة الإسراء نفسها بقوله :

« وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ‌* إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ‌* قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » (الإسراء : ٨٦ ، ٨٨)

الصعود للقمر :

رابعاً — ولكن العصر يجيء بما يثير شهوة الخرافيين إلى الخرافة ، فلقد صعد الإنسان الأمريكى إلى القمر فكيف لايصعد أفضل الرسل، ولو بما يخالف نصوص القرآن إلى السماء عياناً ويقظة وبالجسم ، وفى هذا الموقف المؤسف ينفخ الخرافيون صدورهم بمزيد من الخرافات وهم يعاجزون الله ورسوله فى عصر العلم ، بدلا من أن يهدأوا ويسكنوا ويتفكروا فى كيف يسترد المسلمون مقادة العلم من غير المسلمين !

والجواب على شبهتهم نقول بإيجاز : إن آيات الله ليست مجالا للسباق بها مع معاجزات غير المؤمنين من أهل هذا العصر ، من الذين يقهرون العلم الطبيعى على غير ما أراد الله به ... والسباق إلى السماء قضية تكلم القرآن فيها عندما ذكر محاولة الجن استراق السمع فى السماء الدنيا ، وقد وجد الجن قبل محاولات الإنسان المعاصرة أن السماء قد :

« مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيداً وَشُهُبًا » (الجن : ٨)

وأن من :

« يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا » (الجن : ٩)

ولقد أنذر الله فى القرآن الكريم كلا من الجن والإنس بأن محاولاتهم النفاذ من أقطار السماوات والأرض لا تقع لهما إلا بسلطان وان يكون ذلك لهم ثم أنذرهم — إن حاولا ذلك — أن يكون الاحتراق والهزيمة مصيرهما :

« يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ »

(الرحمن : ٣٥)

على أن شياطين الإنس من عمالقة التكنولوجيا الفضائية فى هذا العصر — مع أنهم أصبحوا على حافة الهاوية الذرية بحماقاتهم — قد احترموا العلم أكثر كثيراً ممن عبثوا بالعقول فى فهم آيات الله ، فهم قد صنعوا أول كل شيء لباساً خاصاً لرجل الفضاء يجنبونه به الظروف غير المواتية فى فضاء الأرض ، وكان أهم ما عنوا به تزويده بالأوكسيجين اللازم له فى الفراغ الخالى منه بعد سطح الأرض ... وفى هذا العائق الخطير أمام محاولات الصعود فى الفضاء تكلم القرآن الكريم قبل أن يولد العلم الأوربى على أيدى العرب المسلمين ببضعة قرون فاعتبر تخلخل طبقات الهواء بعد سطح الأرض الملائم لحياة الإنسان ، وفقدان الأوكسيجين لحياته سبباً مانعاً من صعود البشر إلى السماء ، وفى ذلك يقول الله لمن يفتون فى القرآن بغير فهم وبغير علم :

« فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ »

(الأنعام : ١٢٥)

إذن فالصعود إلى السماء يقظة وبالجسم ، وحيث يكون نقص الأوكسيجين مشكلة تضيق بها الصدور حتى الموت ، أمر لا يرضاه الله بشكله الحسى آية للبشر ... آية تكسر العلم ... أو يلزم بها نزع لباس

البشرية عن الرسول الكريم ليكون ملكاً يستطيع أن يصعد فى السماوات العلى ، وهذا ما لم يقل الله به ، والقرآن دائب التذكير ببشرية الرسول ، التى هى آية للناس ، وحجة عليهم فى وجوب اتباعه ، والتأسى به فى السلوك والعمل . . .

يفعل ما يشاء :

خامساً — ولكن هؤلاء الخرافيين يستهويهم التعلق بالوهم ، ويسرهم كالأطفال الأشقياء : العبث فى حقائق الوجود فهم يحتجون على من يردهم إلى الصواب القاسى على مخيلاتهم ، بينما ينفعلون ويصرخون صراخاً خرافياً ويقولون : (ولم لا . . . أليس الله بقادر على أن يكسر حاجز الزمن وقوانين المـــادة والحركة ، ويجعل من النبى الإنسان ملكاً يصعد إلى السماء ثم يعود ليرتدى أديم بشريته مرة أخرى ... أليس الله بقادر على أن يفعل ما يشاء) ! ! ؟ .

إن هذا التصور الذى سبق مثله تماماً وبأشكال متنوعة فى أساطير اليونان القدماء حول آلهتهم البشرية ليس غريباً أن يستمر فوق الوطن العربى فى مناخ التأثير الخطر والمستمر لحضارة أوروبا وخرافاتها بما فيها من الغزوات الفكرية بالإسرائيليات قديمها وحديثها ...

ونحن نقول معهم : إن الله قادر على كل شىء . وعلى أن يفعل ما يشاء ولكنه سبحانه يقول عن نفسه إنه يفعل ما يفعله بقدر وحساب وعلم ... وإنه سبحانه لا يشاء ما لا يشاؤه . ولا يشاء بأهواء خلقه . ولا بأمنيات



المغتربين عن حكمته . وعن علمه . والجاحدين بآياته .. وأنه سبحانه هو القائل :

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا » (ص : ٢٧)

وهو سبحانه الذى أنبأنا فى القرآن بأنه لا عبث فى ملكه ولا لهو . فكل شىء بحكمة ومقدار . وكل شىء بسبب وغاية وهو فى ذلك يقول :

« لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ » . (الأنبياء : ١٧)

وهذه الآيات الحسية والبصرية التى سبقت على أيدى الرسل قبل النبى عليه الصلاة والسلام قد وقعت كلها بمشيئة الله . محكومة بعلمه . وقعت بقوة ما فى السنن والقوانين التى أبدعها . وأوحى بها فى السماء والأرض . هذه القوانين التى لا يكسر بعضها البعض الآخر . ولا يتناقض بعضها مع غيره ... لقد وقعت تلك الآيات بقوانين يعلمها الله . ولسنا نعلم منها إلا ما أراد أن نعلمه ... فمما لم يرد أن نعلمه لأنه ليس فى طاقتنا البشرية علمه : قانون الخلق ... قانون روح الله الذى ينفخ به فى الطين فيكون بشراً ... أو الذى ينزل به على قلب النبى فيكون وحياً وقرآناً ... وحياة جديدة وإيماناً !

من أمثال هذه الآيات التى لا نعرف قوانينها وإن كنا نؤمن بها كانت آية النار التى كانت برداً وسلاماً على إبراهيم .. إننا نتصور المـــادة العازلة للنار . أو الشعور العازل عن الاحتراق . ولكن لا نعرف كيف ؟ ...

كذلك نؤمن بالآيات التسع فى عصا موسى ولا نعرف كيف ... ونؤمن بآية إحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى بن مريم ولا نعرف كيف ؟ ... وكما نؤمن بآية خلق المسيح نفسه من أم بغير أب ... ولكن كيف ؟ ... لا نعلم ... ولا نشك ... بل نؤمن !

لقد كانت هذه الآيات كلها علامات على قدرة الله التى لا يرتاب فيها المؤمن الذى رآها ... والذى لم يرها ... لقد كانت وفق قوانين ثابتة تصدر عن القانون الذى علمنا به عن الله سبحانه وتعالى وهو :

« كُنْ فَيَكُونُ »...

ولكنه (كن) من لدن حكيم عليم ... (كن) التى لا تعنى الخلط أو اللهو أو العبث ... (كن) التى لا يكون بها ما لا يكون فى مشيئة الله كأن يزعم بعض المتهوسين بصنع الخوارق أنهم : رأوا الله ... أو حل فيهم الله ... أو أن بعض الموتى فى قبورهم يجلسون ويتحركون ويتكلمون ويتولون شئون البشر فى الرزق والصحة والاستجابة مما هو شأن الله وحده . وليس من شأن أحد سواه ! !

حديث عائشــة :

سادساً — فى هذا المعنى من حياطة الله لعلمه . وصيانة سننه . ومن أن القرآن الكريم كتاب العلم بالدين . والعلم بالعلم . بما يعلو بنوره فوق ظلمات ما عاشت به الوثنيات القديمة . والوثنيات المعاصرة . نذكر فى شرح كيفية الإسراء على وجهه الصحيح بالرؤيا حديث السيدة عائشة

رضى الله عنها فيما يرويه البخارى عن مسروق قال : قلت يا أماه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ قالت : لقد تكلمت بشىء قف — بتشديد الفاء — له شعرى مما قلت — أى وقف له شعرى ... قالت : أين أنت من ثلاث من حدثكن بها فقد كذب . من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . وقرأت

« لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » (الأنعام : ١٠٣)

وقرأت :

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ »
(الشورى : ٥١)

ومن حدثك أنه صلى الله عليه وسلم يعلم ما فى غد فقد كذب . ثم قرأت :

« وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » (لقمان : ٣٤)

ومن حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أمره الله بتبليغه فقد كذب . ثم قرأت :

« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » . (المائدة : ٦٧)

سـورة النجم :

سابعاً — وأخيراً نذكر من شهادة القرآن الكريم تصحيحاً لابد منه للزعم الذى زعمه جمهرة من المفسرين والعلماء ممن يريدون إكراه معانى الآيات على القول بأن الإسراء كان يقظة وجسداً حتى يفرحوا بكسر قوانين الله فى العلم ، وحتى يحقنوا العقل الإسلامى المعاصر بخرافة تضر بفكر المسلمين ، وفكر أجيالهم ، فى وجه صراع شرس لا عدة لهم ولا عتاد فيه إلا الإيمان والعلم ...

لقد زعموا بل اختلفوا أو فسروا بعض آيات سورة (النجم) لتكون أداتهم لتفسير وقوع الإسراء بالجسم ، وليحاولوا إزالة الشبهة بالجواب عن السؤال الوارد : لمـاذا ... إذا كان النبى قد صعد ليلة الإسراء إلى السماء بجسمه لم يذكر الله ذلك جلياً ومبيناً فى سورة الإسراء ؟

لقد أرادوا الجواب فانتحلوا له — بعد الحيرة الطويلة ، وبعد أن ضعف عهد المسلمين بالقرآن وباللسان المبين — رابطة تكون بين المعراج ومعانى بعض الآيات فى سورة النجم . بل قالوا بغير حياء من الله . ولا من القرآن والرسول ، ولا من اللغة والمسلمين : إن سورة النجم تحكى ما وقع من آيات فى تلك الليلة ... من الصعود إلى السماء ، ومن بلوغ النبى إلى سدرة المنتهى ، ومن تحرك ربه إليه حتى صار النبى منه قاب قوسين أو أدنى ، وذلك حيث تقول الآيات :

« ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » (النجم : ٨ – ١١)

لن نقوم هنا بتفسير ما قصدت إليه هذه الآيات البينات المدّعىً عليها فى سورة النجم ، ونكتفى بتقديم الدليل البسيط والقاطع على أن رحلة هؤلاء المفسرين وشطحاتهم حول سدرة المنتهى لا تعنى ليلة الإسراء وتفاصيلها، بل هى فى شأن آخر من شئون الوحى والنبى فى حال نزول القرآن ، وهذا الدليل الذى ما كان ليغيب عنهم لو أرادوه هو فى أن سورة النجم قد نزلت بكل آياتها قبل سورة الإسراء ببضع سنين ... فلا شأن لها بأية دلالة على حادث الإسراء ! .

إن سورة النجم فى ترتيب نزول السور ، وهو مسجل لمن أراد من القراء فى كثير من المصاحف التى بأيدينا اليوم — هى السورة الثالثة والعشرون من السور المكية ، بينما سورة الإسراء هى السورة الخمسون ، والسور المكية من سور القرآن خمسة وثمانون سورة من بين مجموع سوره . وبإضافة المدنية ، وعددها تسع وعشرون سورة ، على أنها مهما كان من خلاف فى جداول الترتيب لنزول السور ، ومن الخلاف على اعتبار الفاتحة مكية أو مدنية ، فإن ذلك لن يغير من الحقيقة شيئاً ، وهى : أن بضع سنين من عصر نزول القرآن تفصل بين سورة النجم وسورة الإسراء وبذلك يشهد القرآن ، ويعزز شهادته ، على أن الإسراء بكل ما وقع فيه من الوقائع التى يؤكدها القرآن الكريم والسنة الصحيحة لم يكن إلا رؤيا حق ، لها قوة الوحى ، رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تثبيتاً لقلبه ، وبشرى له ولأمته بالنصر العظيم .

ثم أقول تأييداً لهذا الاستدلال القاطع ما ذكره أحد شيوخ الأزهر

السابقين وهو الشيخ محمود شلتوت فى كتابه (من توجيهات الإسلام) وهو قوله معترضاً على من أقحموا آيات سورة النجم فى معمعان جدلهم حول الإسراء والمعراج :

(وقد اتسع ميدان الرأى فى الإسراء والمعراج إلى أن أدخلت فيه قهراً الآيات الأولى من سورة النجم التى ما نزلت إلا لتؤكد أن القرآن وحى من عند الله لمن زعموا أنه من صنع محمد) .

حكمة الإسراء :

والآن . . ماهى حكمة الله فى آية الإسراء . . الحكمة البالغة التى حجبها ضجيج هذا الصراع اللفظى بين أهل العلم وأهل الخرافة . . ؟

الحقائق الآتية من الواقع الحى الذى عاشه العرب فى الجزيرة ، وعاشه الوطن العربى حول هذه الجزيرة العربية ، فى المرحلة الزمنية لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم تقدم لنا فى حلقات متماسكة طبيعة وأهداف هذه الحكمة البالغة فى ليلة الإسراء . . الحكمة التى لاتزال ماثلة فى حياتنا إلى اليوم .

الحقيقة الأولى تقول من القرآن : إن قريشاً من أبناء إسماعيل كانوا يتاجرون بقوافلهم بين الشام واليمن ، وأنهم كانوا لذلك على علم واسع بما يجرى حولهم من صراع القوى الاستعمارية الرومية والفارسية ، ومن الأطماع التى تستهدف حرية بلادهم للحصول على طرق التجارة ، وللتخلص من الأثر العظيم لبيت الله فى جمع كلمة العرب . . .

لقد كان العرب يعلمون الكثير مما يجرى من صراع المعتقدات ، والصراع العسكرى المسلح فوق الوطن العربى بين مجوسية الفرس ومسيحية الروم . وكانوا على التحقيق يقدرون ما لبيت المقدس من قدسية دينية يرجعون بها بالانتماء الأبوى إلى إبراهيم ، كما كانوا يدركون تماماً كبديهية قومية أن أمنهم فى جزيرتهم ، وفى بيت الله ، وخطوط القوافل من دمشق إلى المدينة ، فمكة ، فصنعاء ، مرتبط بنوع القوة التى تسيطر على القدس أو أورشليم . . مدينة السلام . . التى كثيراً ماقامت حولها الحروب — كما هو اليوم — من أجل هذا السلام . . سلامنا على أرضنا .

الحقيقة الثانية : أنه حدث سنة ٦١٤ بعد بعثة النبى أمر هام جداً لمدينة القدس ، فلقد اكتسحت جيوش كسرى أبرويز قوات هرقل قيصر الروم فى مواقع متعددة من الصراع الدائر ، واحتلت القدس فى تلك السنة ، أى بعد أربع سنوات من بعثة النبى وقيامه بالدعوة فى مكة . كما احتل الفرس أيضاً مصر سنة ٦١٦ ، مما أصاب قريشاً جميعها بالقلق مسلمين ومشركين . لقد كان قلق المسلمين وحزنهم من أجل أهل الكتاب ، وكان قلق المشركين من أجل التجارة والأمن . .

الحقيقة الثالثة : أن السيدة خديجة رضى الله عنها توفيت فى سنة ٦١٩ على أرجح الأقوال ، وبعدها بقليل توفى عم النبى الذى كان يكفل حريته للقول بما يشاء من أمر الدعوة بين قريش ، فكان هذا العام التاسع منذ البعثة عام قسوة ومحنة بالنسبة النبى والمسلمين ، وفيه كانت ليلة الإسراء .

الحقيقة الرابعة : انتشر من أنباء الصراع بين الروم والفرس فى سنة ٦٢٢ أن هرقل إمبراطور الروم أعلن تنازله عن سلطاته التى سلمها إلى بطريرك القسطنطينية ، وإلى مجلس الشيوخ أثناء اشتداد حصار المدينة ، وخرج بالجيش والأسطول حيث احتل المضيق المعروف فى جبال طوروس باسم بوابة كليكية ، وانتشر أن الإمبراطور عازم على صد الفرس بكل قوة.

فى نفس هذه السنة سنة ٦٢٢ نزلت سورة الروم وهى السورة قبل الأخيرة التى نزلت من القرآن بمكة قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، والتى كان وصول النبى إليها بعد خروجه من مكة فى سبتمبر سنة ٦٢٢ على أرجح الأقوال .

فى صورة الروم تظهر متابعة القرآن لأحداث العالم المحيط بالجزيرة العربية فيما يمس مسار الدعوة وطريق انتصارها . فلقد أعلنت هذه السورة فى أولها بلاغاً من الله إلى معسكر المؤمنين قليلى العدد ، والمحاصرين بكل صنوف الأذى بعد موت أبى طالب ، يقول الله فيه :

« الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِى أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنْۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » . (الروم : ١ – ٥)

الحقيقة الخامسة : أنه فى سنة ٦٢٢ أيضاً بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ظهرت الحاجة إلى تحديد القبلة فى الصلاة . . لقد كان

تأثير المسجد الأقصى طيباً فى نفس النبى بعد ليلة الإسراء ، ولكن المسجد الأقصى منذ سقوط القدس فى أيدى المجوسية الفارسية سنة ٦١٤ لايزال فى قبضتهم ، ولم ينقض أمد وعد الله بأن يقع انتصار الروم بعد بضع سنين . . ليصبح المسجد فى أيدى أهل الكتاب من أتباع المسيح . . فنزلت الآية توجه النبى إلى القبلة التى يرضاها وهى المسجد الحرام ، وذلك حيث يقول الله :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » (البقرة : ١٤٤)

الحقيقة السادسة : فى سنة ٦٢٧ أحرز هرقل أول نصر حاسم على الفرس فى نينوى على نهر دجلة ، وانسحب الفرس من حصارهم القسطنطينية وفى سنة ٦٢٨ لقى كسرى أبرويز مصرعه على يد ولده شيرويه ، وعمت الفوضى بلاد الفرس الذين قبلوا الصلح مع الروم على أساس إعادة الحدود بين الطرفين إلى ما كانت عليه سنة ٦٠٢ . . وبذلك رجعت القدس إلى الروم ، ودخلها هرقل ، بعد « بِضْعِ سِنِينَ » كما أعلن بلاغ القرآن الكريم فى سورة الروم بمكة . . وكان النبى عند هذا النصر الرومى بالمدينة يقود معارك بناء دولة الإسلام ، وتحرير الجزيرة العربية كلها من الشرك ومن عبادة غير الله . .

الحقيقة السابعة : فى سنة ٦٣٨ بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ،

بعد عشر سنوات من عودة القدس إلى الروم ، وبعد نحو ثمانية عشر عاماً من الليلة التى أسرى فيها بالنبى إلى المسجد الأقصى تحقق وعد الله لنبيه ، ودخل الخليفة الثانى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وتسلم مفاتيحها من البطريرك صفرونيوس وصلى فى جانب من المسجد الأقصى بعد أن حررت الجيوش العربية الإسلامية أرض الشام ، ومضت لتحرير مصر . . من الروم !

هذه هى حكمة الله البالغة كما أوحى بها لنبيه فى ليلة الإسراء ، وهو يرفع له من الغيب مشهد بيت المقدس ، والمسجد الأقصى ، ومواقع النصر العظيم فى كل مكان من أرض العرب . . ليراها وتثبت فى يقينه وقلبه .

وأمام هذه الصورة الباهرة بوعد الله التى سمع بها المؤمنون من النبى فى فترة استضعافهم بمكة يظهر تفسير الآية الكريمة التى يعلن بها القرآن أن الإسراء كان رؤيا حق ، فلقد (فتنوا) حقاً . . لقد كانت أخبار الإسراء فتنة لهم ، أى إن بعضهم لم يصدق ما سمعه من أن أعلام النصر سوف تتسابق بالمسلمين إلى تحرير القدس ، مع ما يرونه فى السنة التاسعة من البعثة ، وما يعانونه من الأذى البالغ فى مكة . . بل وكيف يقع أن عشرات من المسلمين أو مئات منهم سيهزمون أحد الجيشين الفارسى أو الرومانى ، أو هما معاً ، ليظفر المسلمون بتحرير القدس وإعادتها عربية كما كانت؟... وصدق البعض الآخر من المؤمنين وفى مقدمتهم أبو بكر الصديق . .

لا وجه إذن لمن يتساءلون ساخرين عن : كيف تكون الفتنة بالرؤيا.. وهى مجرد رؤيا فى منام ؟ . . الآن فليعلموا أنها كانت فتنة حقيقية أمام هذه

الأخبار والبُشريات التى نقلها النبى إليهم على أنها وعد إلهى فى وحى الرؤيا وهو ارتفاع رايات الإسلام والقرآن على بوابات القدس . . وارتفاع الأذان من المسجد الأقصى بالتكبير لله وحده . . والشهادة به وبنبيه المصطفى .. خاتم الرسل .

ثم تبقى هذه الحكمة البالغة برؤيا ليلة الإسراء حية ومتجددة ، لاتنقص الأيام من جلالها المستمر فى حياة المسلمين ، على الرغم من فتنة المفتونين عنها ، وشطحات الشاطحين فى أمرها . . فهى رؤيا الحق التى اتسعت لوعد الله بتبشير نبيه وتثبيته . . فهاجر وجاهد . . وأقام دولة العلم والدين وانتصر . . وتمت كلمة الله ونعمته على المسلمين .

وهذا هو درس الإسراء الخالد نفتح أعيننا فيه ، وننبه قلوبنا إليه ، ونحدد غايتنا به ، ونحن نجاهد العدو القديم والجديد . . لتحرير القدس . . والمسجد الأقصى . . مسرى النبى صلى الله عليه وسلم .

* * *

السؤال الثالث :

كيف بنى القرآن الكريم عقلية المسلمين فى عصر صـــدر الاسلام ومراحل حضارته الزاهرة ، وكيف يمكن فى هذا العصر تجاوز العوائق التى تعترض بناء هذه العقلية للمسلمين المعاصرين من طريق هذا الكتاب الحى الخالد ؟ وما هو من وجهة نظرك نوع هذه العوائق وكيف يمكن التحرر منها ؟

الإجـــابة :

أولا : إذا لاحظنا مضمون الإجابة عن السؤالين السابقين نقول . إن القرآن الكريم بنى العقلية العلمية للمسلمين الأوائل ، وهى العقلية القرآنية التى أثمرتها مباشرة القرآن بالفهم ، والتى أثمرت فيهم وضوح قواعد المنهج العلمى التجريبى فى عصر صدر الإسلام على كل ساحات النشاط الإنسانى ، سواء أكان ذلك خاصاً بشئون الدعوة ، والتوسع فى علوم اللغة والقرآن والفقه ، أو كان فى الشئون الاقتصادية المتصلة بحركة الأسواق العالمية فى تجارة البر والبحر ، أو استثمار الأرض ، وتنظيم الحرف ، وإقامة المدن الجديدة حول المساجد ، أو فى مجال السياسة والبحث العلمى ، والدفاع ، وغير ذلك من شئون الحضارة العربية الإسلامية المتسعة .

لقد كان أساس هذه العقلية العلمية التى أشرقت كالشمس الجديدة

وسط ظلمات العالم القديم هو هذه النظرة القرآنية الشمولية للوجود الذى صنعه الله لغاية وحكمة . . النظرة التى يتحد فيها علم الدين بعلوم الطبيعة وحركة التاريخ ، والتى يظهر فيها العلم القرآنى جامعاً للدنيوى والأخروى من الحقائق المتكاملة التى تجعل الوجود أمام الإنسان فى حركة متغيرات غير مختلفة ولامتراوغة ، وفى صيرورة مستمرة فى الزمان والمكان باتجاه الله ، وكما اقتضت حكمة الله ، ومشيئة الله .

هذه النظرة الشمولية للعلم فى القرآن ، وحيث الحتمية واضحة فى حياة الأمم ، ومسيرة السنن التى تحكم مصيرها بالازدهار أو الانحلال ، أكسبت المسلمين إحساساً كاملا بالأمن فى ظل الدين ومفاهيمه ، والأمن فى ضوء العلم وسننه .

هذه النظرة الشمولية المؤمنة بالغيب ، الفاحصة لكل شىء فى نفس الوقت جعلت حركة المسلمين فى هذه الحياة الدنيا حركة واثقة بين علمين يقينيين من علوم الغيب الدينى الذى لا ريب فيه بمعيار العقل والقلب معاً. علم الغيب الذى سبق منذ خلق الله الإنسان والسموات والأرض ، وعلم الغيب الذى يلحق فى موعود البعث والحساب والجزاء . وبين هذين الغيبين اليقينيين اللذين لاتزيفهما تجارب العلوم الطبيعية ، ولاتخطئهما بداهة الفطرة ، يفتح المسلم أبواب تجاربه وكشوفه وأبحاثه العلمية على مصاريعها ، متجهاً بفكره وقلبه معاً إلى استنباط علم مؤمن ، علم محب للسلام ، ومتنزه عن العدوان ، علم لا يعادى الحياة وإنما ينميها . . ولايعاجز حقائق الخلق وإنما يسابقها إلى غاياتها . .

وعلى عكس مايتصور الملاحدة والعلمانيون فإن علوم الغيب القرآنية الإسلامية تحمى منطقة الأمان الفكرى للمسلمين الصادقين ، فهذا الغيب ليس غياباً أو غيبة فى المجهول عن المعلوم ، وليس أفيوناً يتمدد به المغيبون المستضعفون بين أطلال المدن الخربة . أو زوايا المعابد المعتمة . . إنه حقائق ترقى إلى مستوى المشاهد المرئية . والوقائع المحسّة ، يتم اليقين بها بقياس الغائب على الحاضر ، والبعيد على القريب ، والمعلوم بالقلب والفكر على المعلوم بالعقل والحس . .

وهذا العلم اليقينى بالغيب الدينى قد كان قبل أن يتساقط إلى شطحات المتمخرقين بالدين سبب قوة المسلمين ، وعلمهم ، وأمانهم ، ونشاطهم ، وعظيم تأثيرهم بالهيبة والصدق والبهاء حتى على أعدائهم . . بينما نشهد اليوم نماذج من غيبيات عمالقة العلم الطبيعى . . هذه الغيبيات التى اصطلح بعض علمائهم على تسميتها بالخرافات العلمية ، التى يحلمون بها وهم محطموا الأعصاب برعب حروب الإبادة ، وقلق مجتمعات الجاسوسية والاغتيال وشذوذ المتعة . . يحلمون تقليداً للمسلمين بالجنة ، ولكنها جنة يتصورون قيامها على هذه الأرض . . جنة مليئة بالسلع الاستهلاكية ، والكسل ، وقصور زعماء الأحزاب ، والغانيات . . جنة يمضغون فيها أفيوناً مركزاً وهم يتحدثون عنها فى مجال المنافسة بين الماركسية والرأسمالية . . فأى الجنتين تربح دعايتها شعوب العالم . . . هل جنة قياصرة الحزب . . أم جنة ملوك الاحتكار ! ؟ . . بينما نشهد كل يوم تساقط زعمائهم بالمرض . أو الفضائح وصراخ علمائهم بالقلق والإنذار ، وضياع جماهيرهم فى بوادر انهيار

الصرح الحضارى الكبير الذى أقاموه معاجزين لله ، ومكذبين لرسالاته . ومتواطئين بالعدوان به على سلام المستضعفين والمتخلفين من عباده ..

العــودة للقــرآن :

ثانيــاً : لكى نتجاوز العوائق التى تعترض المسلمين المعاصرين لبناء عقليتهم العلمية القرآنية السليمة . . العقلية التى يستعيدون بها دولة العلم والإيمان فى هذا العصر ، فإن عليهم أن يعودوا للقرآن الكريم ليتدبروه — مؤمنين — كما تدبره أسلافهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم . .وليفهموه بالعمل كما فهموه . . بحيث يكون القرآن كالنفس أداة حياتهم . . ووعيهم واستنارتهم . . وحركتهم إلى أهدافهم .

مثل هذا الالتزام يستوجب (تعريباً) كاملا للحياة ، يبدأ من نشر اللغة العربية عن طريق تحفيظ القرآن الكريم منذ سنوات الطفولة المبكرة ، ويمضى إلى حيث تصبح قواعد التربية للمجتمع بمثابة تربية قرآنية شاملة ، متفتحة على العصور ، ومتجهة إلى تمثل أخلاق الإسلام فى السلوك ، والالتزام بالشريعة فى القوانين ، وإحراز العلم الواسع بطرفيه الدينى والطبيعى ..الدنيوى والأخروى . . على اعتبار أن اتحاد العلم والدين فى حياة المجتمع والأفراد هو الشكل الذى يحقق اتحاداً مماثلا بين الإيمان والعمل . وبذلك يصير كل من العلم والعمل عبادة شرعية ، تؤدى بطبيعتها إلى ماهو ضرورى لأمن الناس فى هذا العصر من سكينة النفس ، وقوة الفرد . وعزة الأمة..

ثالثـاً : وأما هذه العوائق التى تعترض استعادة المسلمين لعقليتهم العلمية التى بناها القرآن الكريم لآبائهم من قبل فهى كثيرة الفروع متنوعة الأصول . .

فالترف الذى أصاب المسلمين الأوائل . . أصاب العرب المسلمين الذين خرجوا من حرور الصحراء إلى ظلال الشام والعراق ومصر قد عرّضهم للوهن . . وأعادهم إلى الغفلة . . وأيقظ فيهم النعرات والعصبيات . . وفتح عليهم أعاصير الفلسفات والزندقات .

لقد أقبل على المسلمين عصر الأخلاط التى ضاعت فى متاهته الصورة الواحدة للحق ، واختفى وسط مئات الطرق المبتدعة ذلك الطريق الواحد للدين الحق . وحدث أن كان تحت أعمدة مسجد واحد فى مدينة إسلامية يجلس أكثر من عالم يقرأون القرآن لتلاميذهم فى ضوء مناهج غير عربية . . مناهج طال استهلاكها من قبل فى صراع الوثنية مع المسيحية . . مناهج ومفاهيم للفلسفة اليونانية . . والزرادشتيه والمزدكية . . والحكمة الهندية الصوفية . . والغنوصية واليهودية .

ولم تكد تمضى هذه الحقبة حتى جاءت الحروب الصليبية والأمة العربية القوية قد صارت إلى حكم الأمراء من الترك والسلاجقة وباطنية الفرس .. وعند ما تجمع المسلمون باسم الإسلام تحت قيادة رجل ثقفه الدين وعربه الإسلام هو (صلاح الدين) وبدأت الانتصارات تظهر فى جانب العرب ،



وتحررت القدس .. عادت أوروبا تدبر غزوها الفكرى لمعتقدات المسلمين الصحيحة ، ولغتهم . . ورصدت لهذه الأهداف تمويلا ضخماً وجيوشاً من المستشرقين ، والمخربين ، والعقلانيين ، والزنادقة .. إلى أن كانت الثمرة المريرة هى (إسرائيل) .

واليوم . . لقد آن الأوان لكى نعلم أن الدين الحق بغير علم لا يمكن أن يكون هو الدين الحق كما أوحى الله به ، وأن العلم بغير الدين لايمكن أن يكون علماً يهدى إلى شىء . . بذلك يجب أن نفتح أبصارنا وعقولنا وبصائرنا على آيات القرآن وإشاراته كما لو كانت تتنزل علينا من جديد.. تتنزل على شعبنا كله : رجالا ونساء . . وشيوخاً وفتياناً . .

ومن بُشريات العودة إلى الله أن نفرق فى علمنا بين الآية والمعجزة .. فالآية هى من الله لنفهمها . . ونعمل بها . . والمعاجزة هى حالنا إذا كنا نختلف عن الحق وهو ظاهر . . وأن نتصور أن قول الحق يغنى عن العمل به .. وأن الإيمان بأن القرآن معجز يفرض العجز بإزائه . . والهجر لآياته..

ولكن هذه الأمة قد بدأت طريقها إلى الله منذ حملت أعباء جهادها عن الحرية والعدل وعن التحرير والتقدم . . ولسوف ينصرها الله إن شاء وهو على كل شىء قدير .

بحوث القسم الثالث

القرآن الكريم

واقتصاد المجتمع

يجيب عنه

الأستاذ عبد الغني سعيد

وكيل وزارة القوى العاملة

السؤال الأول :

ما هو الاساس لعلوم الاقتصاد المتكاملة فى شريعة الاسلام سواء فى تعريف المــال أو تنميته أو توزيعه وملاحقة العــدالة الاجتماعية ، كما حدد ذلك واوضحه القرآن الكريم ؟

الإجــابة :

ترتكز علوم الاقتصاد المتكاملة فى شريعة الإسلام على ركنين أساسيين وهما :

أولا : أن المال مال الله ، وما الإنسان إلا مستخلف . أى وكيل عن الله سبحانه وتعالى فيما يملك أو بعبارة أصح : يحوز ، وعليه أن يبغى وجه الله فى إدارة المال الذى يحوزه . الأمر الذى يجعل الملكية وظيفة إجتماعية وليست حقاً مقدساً فى نظر الإسلام . أو هى حق انتفاع ممنوح من الله بسلطان من عنده يمكن إزالته عن صاحبه إذا خالف السنن الشرعى :

« وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » (محمد : ٣٨)

والركن الثانى — أن العمل واجب بل فريضة . ولا يجوز لأى مسلم أن يعيش بلا عمل ويستغل عمل الغير . وهذان الركنان أو المبدآن الأساسيان ينشأ منهما مبدأ ثالث وهو عدم انفصال الملكية عن العمل . فإذا ما انفصلت عنه أصبحت باطلة . لأن الدخل الذى يحصل عليه المالك من ثمرة عمل

الغير – بينما هو لا يعمل – يعد استغلالا . ولا يمت بصلة إلى الكسب الحلال .

على هذه المبادىء الثلاثة يرتكز النظام الاقتصادى الإسلامى . وينبع المبدأ الأول من حقيقة : أن الله سبحانه خالق كل شىء . وأنه الخالق الأوحد تعالى الذى لا ينازعه فى خلقه أحد . ومن ثم فهو مالك كل شىء فالذى يملك الشىء هو خالقه :

« لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » (الشورى : ٤٩)

و « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى »
(طه : ٦)

وهذه الآية الكريمة تعنى : أن ملكية الله سبحانه وتعالى مطلقة وشاملة لكل شىء ، فهو مالك جميع الثروات الطبيعية والمعدنية ، فوق الأرض وتحت سطح الأرض ، وبين السماء والأرض . وما البشر إلا خلائف الأرض ، ووكلاء عن الله فى كل ما يملكون أى يحوزون :

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ » (الأنعام : ١٦٥)

والإنسان المستخلف أى الوكيل على مال الله سبحانه وتعالى لا يجوز أن يحتكره ، أو يخص به نفسه وحده ، بل يجب أن ينفق منه لصالح المجموع :

« آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » (الحديد : ٧)

وليست الدعوة إلى الإنفاق مجرد دعوة إلى نافلة ، أو زيادة فى الخير ولكنها دعوة توحيها نظرية علمية للإنفاق ، وقاعدة أساسية فى المجتمع ، يمكن أن نسميها (دورة الإنفاق الخيرة) وتتلخص أسس هذه النظرية فيما يلى :

أولا — على الإنسان أن ينمى عادة الإنفاق الطيبة كالتزام خلقى قبل الجماعة ووسيلة من وسائل شكره وعرفانه لله الرازق الوهاب الذى أنعم عليه بالرزق وشمله بالرعاية :

« وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (البقرة : ١٩٥)

ثانياً — المال أمانة أو وديعة أودعها الله الإنسان . فعليه أن ينفق منه لوجه الله خالق كل شىء ، ومالك كل شىء :

« وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » (الحديد : ٧)

ثالثاً — إذا كان المال جميعه مال الله ، كان للجماعة عموماً وللمعوزين بصفة خاصة حق فى هذا المال . ويجب اقتضاء هذا الحق من الأغنياء والموسرين :

« وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ • لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » (المعارج : ٢٤،٢٥)

والإنفاق بهذا المفهوم إنما يعمل كأداة لإعادة توزيع الثروة على النحو الذى يحقق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص . وهذا ما عبر عنه الشاعر أحمد شوقى بقوله وهو يناجى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحيـــــاة سواء

رابعاً — على الإنسان أن ينفق فى أوقات الضراء مثلما ينفق فى أوقات السراء لأن الإنفاق فى وقت الضراء — أى الكساد — يساعد على تجنب تفاقم الكساد ويعجل بالعودة إلى الرخاء :

« الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ » (آل عمران : ١٣٤)

وقد أخذ الاقتصاد الحديث بهذا المبدأ الإسلامى ، كما يبدو ذلك فى نظرية عجز الاستهلاك فى تفسير الأزمات . حيث تُرجع هذه النظرية ظهورَ وتفاقمَ الأزمة الاقتصادية إلى قلة الإنفاق وما تؤدى إليه من نقص الطلب وعجز فى الاستهلاك . وتدعو فى علاج الأزمة إلى زيادة الإنفاق فى أوقات الكساد بالتوسع فى المشروعات العامة ، لكى يزداد حجم الدخول ، وتزداد القوة الشرائية . فينتعش الاستهلاك ويعود المجتمع إلى الرخاء .

خامساً — على الإنسان أن ينفق كل ما يزيد عن حاجته ولا يكتنز :

« وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ » (البقرة : ٢١٩)

والإسلام ينهى عن الاكتناز ، كما ينهى عن الإسراف . لأن كلا من الاكتناز والإسراف يضر بمصلحة المجموع . فالاكتناز يحبس الأموال عن

دورة الإنفاق الخيرة ، والإسراف يوجه الأموال إلى نواح فردية غالباً ما تكون كمالية وغير نافعة بالنسبة للمجتمع فى مجموعه .

سادساً — تقوم نظرية الإنفاق فى الإسلام على أساس الاشتراك فى التمتع ، وذلك باشتراط أن يكون ما ينفقه الإنسان نقداً أو نوعاً من خير ما عنده بل ومما يحبه لنفسه :

« لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَىْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ » (آل عمران : ٩٢)

ويتأكد نفس المعنى فى آية أخرى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ » (البقرة : ٢٦٧)

سابعاً — كل من ينفق سوف يجنى سريعاً ثمرة ما أنفق ، لأن دورة الإنفاق الخيرة سوف ترده إليه :

« وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » (البقرة : ٢٧٢)

بل إن المنفق يجنى عادة أضعاف ما أنفق :

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ

أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ » (البقرة : ٢٦١)

وهذا المبدأ القرآنى أخذت به أخيراً أحدث النظريات الاقتصادية . بعد أن كان الاعتقاد السائد أن ما يكسبه فرد يخسره الآخر ، ونخص بالذكر نظرية الأجور وخفض الأسعار ، التى تعد محور الفلسفة الاجتماعية للترشيد . والأجور طبقاً لهذه النظرية هى المصدر الأساسى للقوة الشرائية ، وفيها رفع وتوسيع لسوق المنتجات . ومن ثم فلا تناقض بينها وبين مستوى الأرباح . كما أن خفض الأسعار والاكتفاء بمستوى معقول من الربح يساعد على زيادة المبيعات . وهذا ما أكدته نظرية (دورة الإنفاق الخيرة) التى جاء بها الإسلام قبل ظهور علم الاقتصاد الحديث بمئات السنين . مع ملاحظة تفوق الفكر الإسلامى وسرعته فى حل المشكلة عما قال به علم الاقتصاد الحديث .

والإسلام إذ يحل البيع والربح المعقول فى البيع يحرم الربا والاستغلال فلقد حمل القرآن بشدة على المطففين . ليس بالمعنى الضيق . بل بمعنى أوسع يشير إلى الوسطاء المستغلين الذين يأخذون من جميع أطراف المعاملات أرباحاً وفيرة . فإذا أخذوا من الناس أخذوا أكثر مما يستحقون وإذا أعطوا الناس أعطوهم أقل مما يستحقون :

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » (المطففين ١-٣)

أى إنهم يحرصون على أن يبخسوا كل من يتعامل معهم ، ويخصوا أنفسهم بنصيب الأسد :

« وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » . (هود : ٨٥)

ولقد ساء البعض تحريم الربا تحريماً قاطعاً كأسوأ أنواع الاستغلال فكانوا يجادلون كيف يحل الله التجارة ويحرم الربا . ولا فرق كبير بينهما فى نظرهم فرد القرآن على تساؤلهم رداً حاسماً :

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ . وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (البقرة : ٢٧٥)

والإسلام حينما حارب الربا فإنما حارب الفكر الربوى كله ، فأغلق الذرائع إليه ولو لم تكن فى حقيقتها محرمة ، أغلقها لأنها تتوصل إليه ، وتفتح الباب لتنشيط العقلية الربوية التى هى المظهر الوحشى لاستغلال الإنسان للإنسان والدولة للدولة . كما أن الربا دعوة صريحة إلى قتل التواصل الاجتماعى ، ووأد صريح للأخوة المشروعة فى الإسلام .

السؤال الثانى :

كيف ترى فى ضوء القرآن الكريم وتطبيقاته الاجتماعية أن الاسلام سبق النظم الاقتصادية المبتدعة فى أسسه الاقتصادية بقرون طويلة ، وبخاصـــة فى مجـــال منع الاستغلال الاجتماعى والقهر الاقتصادى ؟

الإجابة :

أوضحنا فى الإجابة عن السؤال الأول كيف أن الإسلام كان أسبق من علم الاقتصاد الحديث إلى وضع أسس قويمة للحياة الاقتصادية الرشيدة. فى نظرته إلى المال والملكية كوظيفة اجتماعية ، وفى نظريته الخاصة بدورة الإنفاق الخيرة ، وتحريمه للاستغلال عموماً والربا بوجه خاص . . وأخيراً وليس آخراً فى إبرازه لأهمية العمل كمحور ارتكاز لاقتصاد الجماعة ، ومقياس القيمة الاجتماعية للمواطن . وسوف نركز فى الإجابة عن هذا السؤال على قيمة العمل فى المجتمع الإسلامى ، موضحين أن هذه القيمة هى التى تضفى على النظام الإجتماعى الإسلامى صبغة تقدمية ، وتكفل للإسلام التفوق على الاشتراكية وغيرها من المذاهب التى تستهدف تصفية الاستغلال وتحقيق العدل الاجتماعى .

إن المجتمع الإسلامى بطبيعته مجتمع لا طبقى . الناس فيه سواسية كأسنان المشط ، كما جاء فى الحديث الشريف . وهو جدير بأن يسمى

(مجتمع العمل) لأن العمل هو قيمته الأساسية . وفى المجتمع يُجازى كل فرد بقدر عمله . ولا يجوز لفرد أن يعيش بلا عمل :

« وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ٭ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ٭ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى » (النجم : ٣٩ – ٤١)

وربط الجزاء بالعمل على هذا النحو هو الذى يكون نظام الدرجات الاقتصادية على أساس العمل والفرص المتكافئة :

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (الأحقاف : ١٩)

ويرتبط نظام الدرجات على أساس العمل فى الإسلام بنظرية تقسيم العمل والتخصص . وهذا ما تؤكده الآية القرآنية الكريمة :

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » (الزخرف : ٣٢)

إن القدرات والاستعدادات الطبيعية للأفراد ليست بالمتساوية ، ولا يمكن أن تكون متساوية . الأمر الذى يؤدى حتما بالضرورة إلى وجود مستويات متباينة من الدخل . أو (درجات اقتصادية) بعبارة أوضح . ومثل هذه الدرجات لا غنى عنها فى أى مجتمع يأخذ بتقسيم العمل ،

وتتدرج فيه مراتب المسئولية . فما من مجتمع إنسانى يترابط فيه الأفراد ويعتمد بعضهم على البعض الآخر ، إلا وتوجد فيه مثل هذه الدرجات المتصاعدة فى الدخل والمسئولية بحكم الضرورة ، حيث لا مفر من تفرغ البعض للإشراف على أعمال الآخرين وتنسيقها ، ومن وضع هؤلاء الذين يرتفعون إلى المراتب أو الدرجات الأعلى موضع الاختبار ، حيث يمرون بتجربة مستمرة . فلا يجوز لهم أن يفيدوا من مراكزهم الأعلى ويخصوا أنفسهم بمزايا خاصة يتميزون بها على غيرهم ، كما لا يجوز لهم أن يمتهنوا أو يستغلوا هؤلاء الذين فى المستويات الأدنى :

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (الأنعام : ١٦٥)

ولن يحاسب هؤلاء بواسطة الله عز وجل فى الآخرة فحسب . بل هم يبلون الحساب فى الحياة الدنيا أيضاً ، سواء عن طريق الضمانات القانونية والقضائية ، أم طريق الرقابة الممنوحة لسواد الشعب العامل .

وغنى عن البيان أن التفاوت المسموح به فى مستويات الدخل والمسئولية إنما يكون درجات اقتصادية متقاربة ، ولا يكون طبقات اجتماعية متناظرة كما يخطىء البعض فى فهم المقصود بهذه الآيات ، على الرغم من الفرق الواضح بين معنى الدرجة (الاقتصادية) ومعنى الطبقة (الاجتماعية) من الناحية اللغوية البحتة . ذلك أن الطبقة تدل على فئة أكبر فى تقسيم

المجتمع إلى فئات . والطبقة الواحدة يمكن تقسيمها بالتالى إلى درجات . فالطبقة العاملة مثلا تنقسم إلى درجات العمال فائقى المهارة والعمال المهرة ونصف المهرة وغير المهرة . . . وكل هذه الدرجات تنقسم إلى درجات ثانوية من حيث الكسب والمسئولية . بل إن الفرد الواحد يتدرج خلال حياته فى درجات فيستهل حياته فى درجة أدنى . ثم يرتقى تدريجياً إلى الدرجات الأعلى .

ولحماية المجتمع الإنسانى من عوامل النكسة ونزعات إساءة استعمال السلطة والعودة إلى نظام الطبقات بالتالى ، فرض الإسلام حداً أعلى للدخل . مراعيا تركه مرنا وخاضعاً لتقدير الحاكم فى ضوء الظروف الإقتصادية والإجتماعية المتطورة . ولئن كان الإسلام لم يحدد قدر هذا الحد الأعلى لأنه حد نسبى بطبيعته . إلا أنه قرر المبادىء أو الأبعاد التى يجب أن تؤخذ دائماً فى الاعتبار عند تحديده من وقت لآخر ، طبقاً لما يتمشى مع الظروف الموضوعية السائدة . هذه المبادىء والأبعاد يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ـ لا يجوز أن تترك الأموال تتجمع فى أيدى قلة متميزة إلى الحد الذى يمكنها من ممارسة السيطرة على الآخرين واستغلالهم .

« كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ » (الحشر : ٧)

« وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ » (الشورى : ٢٧)

٢ – من شأن تجمع الأموال لدى قلة متميزة من الناس أن يؤدى إلى الترف والتبذير . والضياع فى خمول وشذوذ الحياة اللينة . ومثل هذه السلبيات أو الأمراض الاجتماعية لا تلبث أن تؤدى إلى تدهور وانهيار المجتمع .

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » (الإسراء ١٦)

ومن هنا يجب على الناس أن يعيشوا بحكمة واعتدال . لأن الترف المبدد لثرواتِ الشعوب لا يلبث أن ينتهى بكارثة الانهيار التام .

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » (الكهف : ٧)

والترف أو الإسراف لابد وأن يبدد الجهد ، ويعوق الإصلاح ، ويشيع الفساد

« وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ✽ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ » (الشعراء : ١٥١، ١٥٢)

٣ – الاكتناز . أو تجميع الأموال بواسطة البعض لمجرد التجميع والتكديس دون إنفاقها حتى على مواد الترف ، ووجوه الإنفاق الضائع ، ليس فى نظر الإسلام بالأقل ضرراً ، لأنه يجنب قدراً مؤثراً من الأموال

عن التداول المثمر . فهو لا يقل إضرارا عن وقف ماء الرى عن أرض الإنسان ، ومنعه من المرور إلى أرض الغير . ولهذا استنكر القرآن الاكتناز . وحمل بشدة على المكتنزين .

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (التوبة : ٣٤)

٤ — لا يجيز الإسلام تجميع الأموال فى أيدى بعض الأفراد على حساب الآخرين ، أى عن طريق بخس الناس أشياءهم والإثراء على حساب الغير :

« وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » (هود : ٨٥)

بل هو لا يقر هذا المجتمع فى حد ذاته ، كمظهر من مظاهر سوء التوزيع . وما فرض الإسلام لحد الأعلى للدخل إلا وسيلة لإعادة توزيع الدخل القومى بين الأفراد على النحو الذى يحقق العدالة . حيث يأخذ من هؤلاء الذين يحوزون أو يكسبون أكثر مما ينبغى ليعطى هؤلاء الذين لا يحوزون . أو يكسبون أقل مما ينبغى ، وما التوسع فى نظم الضرائب المباشرة — التصاعدية جنبا لجنب مع التوسع فى برامج الخدمات المجانية العامة ، إلا تطبيقاً مستحدثاً لهذا المبدأ القديم ، الذى نجده واضحا كل الوضوح فى قول الرسول : (إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم ، بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا إلا بما يصنع أغنياؤهم) ، وفى قول على بن أبى طالب :

(إن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء ، أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غنى ، والله سائلهم عن ذلك) وكان عمر بن الخطاب قد أكد نفس المعنى من قبل فى قوله (كل ترف بإزائه حق مضيع) .

تلك هى الخطوط الرئيسية لنظرية التكافل الإسلامية ، ولاشك أن هذه الخطوط أو المبادئ العامة تؤلف فى مجموعها نظرية علمية قابلة للتطبيق . ولقد طبقت فعلا فى عهد المسلمين الأوائل . فالدولة الإسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفى عهد خليفيه العظيمين أبى بكر وعمر بن الخطاب كانت دولة إيمان وعمل وإنفاق عاشت الاشتراكية فى مجتمعها كمذهب وكنظام حقا فوق ما أدرك أو تمنى المعاصرون داخل الإطار العام للإسلام . ومهما يكن من أمر الأوضاع القائمة فى بعض الدول الإسلامية الرأسمالية المعاصرة ، فإن هذه الأوضاع لا تعنى شيئا بالنسبة لوجود أو عدم وجود التكافل الإسلامى كنظرية علمية قابلة للتطبيق . فما أكثر ما تتعرض المذاهب والنظم للانحرافات والنكسات وما كان مثل هذا التعرض ليلغى أو ليبطل وجودها وقيمتها العلمية .

وغنى عن البيان أن الجوانب السلبية أو المعتمة لبعض المجتمعات الإسلامية خلال القرنين أو القرون الثلاثة الماضية ، ليست إلا نتيجة المؤثرات الخارجية والعوامل الداخلية التى لا علاقة لها بالإسلام ، وليست منه فى شىء ! فالاستعمار والإقطاع والانسياق الأعمى وراء مظاهر المدنية الغربية وغير ذلك من العوامل الخارجية قد أثرت تأثيراً



سلبيا على الكثير من المجتمعات الإسلامية ، على نحو يحجب عن الباحث غير المدقق الكثير من الحقائق . إن لم يشككه فى الكثير من القيم الإسلامية .
واليوم وقد تخلصت الدول الإسلامية من أغلب هذه العوامل الداخلية بتحررها من الاستعمار والقضاء على سيطرة الإقطاع فى الكثير منها ، وتهيأت لها سبل النهوض والتقدم بلا عوائق ، نرى محاولات جدية موفقة فى كثير من هذه الدول لبعث شريعة التكافل الإسلامى فى نماذج متباينة ولكنها تدخل جميعا فى إطار المحاولة النظرية . وما الاشتراكية العربية إلا مسار بارز للتجارب الاشتراكية الحديثة التى تستمد أصولها الفكرية من مبادئ الإسلام الاقتصادية والاجتماعية التى يوجهها الإيمان وجهتها الإنسانية التى تصلح بها لكل زمان ومكان .

* * *

السؤال الثالث :

كيف يمكن استنادا الى الشريعة الاسـلامية التوصل الى قواعد الاقتصاد لما ننشده فى هذا العصر من مجتمع الرخاء والسواسية فى دولة العلم والايمان ـ كما جاء القرآن الكريم بهذه القواعد ؟

الإجابة :

لم يقف الإسلام عند حد تنظيم العبادات وعلاقة الإنسان بخالقه بصفة عامة ، ودعم المقومات الخلقية للمجتمع كما فعلت الرسالات السماوية السابقة ، بل تصدى لوضع نظام شامل لحياة الإنسان ، وعلاقات الدول من جميع النواحى ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كما ظهر به أثر العبادات والأخلاق فى المعاملات وفى نظام الالتزام الأخوى بين المسلمين ، وهذا النظام الإسلامى يقوم على مبادئ كلية عامة تصلح للتطبيق فى كل مجتمع وفى كل عصر . وقد كان ذلك أمرا طبيعيا فى رسالة أنزلها الله سبحانه وتعالى على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين لتصدق جميع ما سبقها من رسالات ، وتهيمن عليها . وقد أثبتت التجربة العملية أن هذا النظام وحده الذى يحقق ما تنشده الإنسانية من رخاء وعدالة وسواسية ، وأن النظم الاقتصادية المختلفة تتجه فى تطورها نحو هذا النظام الوسط الذى أنزله الله ليطبق ليس فى أمة العرب كأمة وسط فحسب ، بل ليطبق أيضًا فى سائر

أنحاء العالم كلما استنارت بمثاله العملى بين العرب أقرب الأمم إلى الرشد .

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » (البقرة : ١٤٣)

فالرأسمالية الحديثة تمضى فى محاولة التخلص من عيوب الرأسمالية الاستغلالية الأولى التى انطلقت بغير رادع تمارس أبشع صنوف الاستغلال فى أعقاب الثورة الصناعية ، واضطرت فى مواجهة الاشتراكية والمذاهب الاقتصادية الأخرى القائلة بتدخل (الدولة) فى الحياة الاقتصادية لتحقيق العدالة الاجتماعية إلى محاولة التصحيح للكثير من مفاهيمها الخاطئة ، وترويض نزعاتها الاستغلالية . فلم تعد ترى تناقضا بين مستوى الأجور ومستوى الأرباح ، بل قامت الفلسفة الاجتماعية لحركة الترشيد على فكرة رفع الأجور وخفض الأسعار ، إنعاشا للاستهلاك وتعميما للرخاء . كما أن هذه الفلسفة تؤكد نظريا أن النشاط الاقتصادى يجب أن يوجه نحو تحقيق مصلحة المجموع بإنتاج السلع والخدمات بوفرة وبأقل الأسعار ، بدلا من أن يوجه نحو توسيع فرص الربح لأفراد قلائل . هذا فضلا عن محاولة إعادة توزيع الدخل القومى أملا فى تحقيق العدالة عن طريق التوسع فى الخدمات المجانية العامة بالاعتماد على الضرائب التصاعدية .

هذا ويمكننا أن نتصور أن الرأسمالية الحديثة أخذت تقترب طبقاً لنظريات الترشيد والتخطيط الاقتصادى الشامل من النظام الاقتصادى

الاجتماعى الإسلامى ، آخذة إليه فى تطورها الاتجاه الصاعد ، بينما نرى أن الشيوعية بل الاشتراكية عموماً تتجه فى الظاهر إلى هذا النظام الإسلامى فى اتجاه كابح ، وهذا بعد أن بدأت تتحرر فى ضوء التجربة الواقعية من الكثير من الاندفاعات النظرية لتصحيح مفاهيم المساواة ، وتقر التفاوت المعقول فى الدخول ومستويات الحياة تنمية للحوافز ولرفع مستوى عائد المنشآت العامة .

ولعل أفضل تسمية للمجتمع الإسلامى الذى يطبق النظم والمبادىء الاقتصادية والاجتماعية للإسلام هى « مجتمع الكفاية والعدل » الذى ابتكرته التجربة الاشتراكية العربية فى مصر . والمقصود بمجتمع الكفاية والعدل هو المجتمع الذى يتضافر أفراده على دعم طاقته الإنتاجية ، وزيادة كفاية إنتاجه ، جنباً لجنب مع تحقيق عدالة التوزيع المثلى لناتجه القومى . وبهذا الربط بين الكفاية والعدالة تؤدى كل زيادة فى الكفاية زيادة مماثلة فى عدالة المشاركة فى ثمرات الكفاية . وباقتران زيادة الإنتاج بعدالة التوزيع يطرد التحسن فى مستويات الحياة لجميع المواطنين على قدم المساواة . ولئن كان هذا منهجا طويل المدى لتحسين أحوال الناس فإن الإسلام وضع إلى جانبه نظاماً سريعاً لإسعاف من لا يستطيعون الانتظار ، ذلك هو (الزكاة) باعتبارها حقاً لا منحة ، وإلى جانب الزكاة كانت الصدقات حقوقاً مفروضة لأصحابها فى مبادىء الإسلام وقاعدته الأساسية للتواصل الاجتماعى فى المجتمع الأخوى للمؤمنين .

ومما هو جدير بالذكر أن تسمية مجتمعنا الاشتراكى العربى بمجتمع

الكفاية والعدل ، لم تأت ابتكاراً أو استحداثاً ، وإنما هي نابعة فى الحقيقة من تراثنا الإسلامى . فالله سبحانه وتعالى خلق الأرض وجعل فيها ما يكفى الناس:

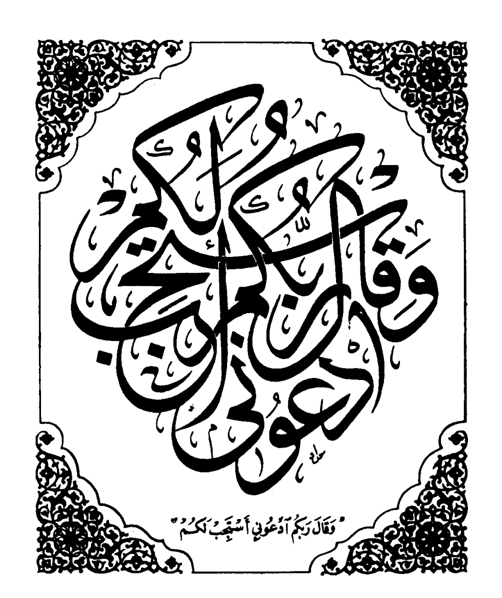
« أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ » (الزمر : ٣٦)

والله سبحانه يأمر بالعدل والإحسان . والإسلام يقوم أساساً على التكافل الاجتماعى ، أى على مشاركة الجميع فى العمل ، كل بقدر طاقته ، وعلى مشاركة الجميع فى قطف ثمار عملهم كمجموع على أساس تكافؤ الفرص والاشتراك فى التمتع بخيرات الطبيعة وثمار العلم لتقويم وتقدم الحياة ، لا للترف ومتابعة الشهوات الاستهلاكية .

وجدير بالذكر أن تعبير مجتمع الكفاية والعدل يلغى فكرة الشيوعيين فى وجود مرحلتين للتطبيق الاشتراكى ، وهما فى نظرهم : الاشتراكية ، والشيوعية . وذلك لسبب بسيط واضح ، هو استحالة تصور وجود حد أعلى للكفاية ، وكذلك استحالة تصور وجود حد أعلى للعدل . وإذا كان الشيوعيون يصفون المرحلة الاشتراكية بأنها المرحلة التى يجزى فيها كل فرد بقدر عمله ، ويصفون المرحلة الشيوعية بأنها هى المرحلة التى يحصل فيها الفرد على حاجته بالكامل أيا كان عمله عملا بمبدأ (لكل بقدر حاجته على أن يؤدى من العمل بقدر طاقته) فإن وصفهم هذا للمرحلتين ، وتمييزهم هذا لكل من المرحلتين عن المرحلة الأخرى . لا يعدو كونه مجرد خداع لفظى أو متاهة نظرية . حيث إنه يستحيل

عمليا مهما حققنا زيادة الإنتاج ، ومهما زعمنا أن إنتاجنا وصل إلى مرحلة الوفرة ، أن نترك كل فرد يقدر حاجته بنفسه ، ويحصل على حاجته طبقاً لتقديره الخاص ، حتى ولو كان مبالغاً فيه ، أو متقلباً تبعاً لتقلب رغباته وأهوائه ، ولا يمكن أن يكون المقصود بتعبير (لكل بقدر حاجته) أكثر من تقدير نمطى لما يمكن أن يتعارف عليه المجتمع كتصور لحاجة الفرد بجملتها . وهذا التقدير النمطى لحاجة المواطن لابد منه حتى يمكننا حساب الأهداف الإنتاجية فى عملية التخطيط ، وحتى نستطيع الإفادة من نظام الإنتاج الكبير ، الذى هو بطبيعته نظام نمطى .

وهكذا نرى كلا من الاشتراكية المتزنة والاشتراكية الرشيدة تتجه فى تطورها حتما صوب النظام الاقتصادى الإجتماعى الإسلامى . وواجبنا نحن المسلمين فى تطبيقنا العصرى لهذا النظام النابع من شريعتنا الإسلامية ، أن نحرص كل الحرص على الاتفاق فى الفهم ، والأمانة فى التطبيق ، ليكون نظامنا الإقتصادى الإجتماعى الإسلامى نموذجا يحتذى ، وليجد فيه أصحاب المذاهب الاقتصادية والاجتماعية ضالتهم ، وما يكفل الاستقرار والسلام لعالمنا المضطرب القلق والمهدد بالانهيار ، بعد أن تفرقت بأهله السبل فى محاولاتهم الطائشة لبناء نظم حياتهم بدافع الحقد أو المنفعة الشخصية ، أو التضليل الفكرى الإلحادى وليس بدافع التعاون على البر والتقوى واللقاء فى محبة الله سبحانه وتعالى .


وقال ربكم ادعوني أستجب لكم


بحوث القسم الرابع
القرآن الكريم
والقومية العربية
يجيب عنه
الأستاذ أحمد موسى سالم
المحرر الديني بجريدة الأخبار

القومية العربية القرآنية ليست دعوة عرقيـــة

مقـــدمة :

يسرنى قبل الإجابة عن أسئلة القومية العربية أن أقدم هذه المقدمة للقارىء الكريم زيادة فى إيضاح وتأكيد الارتباط بين القومية العربية فى مفهوم هذه الإجابة وبين محتواها من الدين والإسلام بعيداً عن أى شبهة عرقية أو علمانية فى أية دعوات أخرى مرفوضة باسم هذه القومية .

• لا يزال شعار القومية العربية واحداً من الشعارات المظلومة فى عصرنا الحديث . فلقد سبق إليه منذ القرن التاسع عشر أكثر من تيار مذهبى خرج به عن مدلوله القديم والصحيح فوق أرضنا العربية . بل وفى كل أرجاء العالم حيث لم يكن أحد يفرق أبداً بين كلمة العرب وكلمة الإسلام . فجاء هؤلاء بتحريضات خارجية ليصوغوا أهواءهم العلمانية. أو الإلحادية . فى شعار (القومية العربية) تجنياً على الإسلام وعلى القومية العربية التى كانت فى التاريخ وفى الواقع هى الإطـــار الحى لعقيدة هذه الأمة ودينها ، ولأهداف قوتها ووحدتها بالإسلام والقرآن .

• وكنتيجة لهذا الاستغلال العلمانى أو الإلحادى من بعض الفئات القليلة لشعار القومية العربية نشط فريق مقابل يدعو إلى هدف آخر لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق قيام الوحدة العربية الصحيحة المعبرة بمقوماتها عن دين هذه الأمة وتراثها الخالد . هذا الفريق المقابل يدعو إلى

وحدة أكبر . ولكنها تستعصى على حقائق الأمر الواقع . . وحدة العالم الإسلامى كله باتحاد دوله المتعددة اللغات . والمتباعدة الأرض والظروف والمناخ والتاريخ . . وأن يقع ذلك الهدف البعيد المنال . والذى لم يقع من قبل . قبل وحدة الأمة العربية . . الشعب الأمن لدعوة الإسلام ، الذى تجتمع له كل مقومات وحوافز وأركان هذه الدعوة الإسلامية فى الكتاب والسنة .

* بل إن البعض يريد ويتصور بكل أسف أن تكون هذه (الأمنية) باتحاد العالم الإسلامى الشديد الانقسامات (بديلا) عند العرب لهذا الأمل الممكن والهدف العاجل ، وهو (وحدتهم) التى تحققت بالفعل على عهد الخلفاء الراشدين . . تحققت بالإسلام . . ومن أجل الإسلام . وبهذه الوحدة وحدها تم إسلام الشعوب الأخرى غير العربية ؟

* إنه بقليل من التأمل فى نور الهداية ، وبعيداً عن سوء النية تجاه الأمة العربية نتبين أنه لا توجد أية علاقة معقولة بين دعوة بعض العلماء إلى الوحدة الإسلامية ، والعمل فى سبيلها . وبين استنكارهم لاهتمام الشعوب العربية بشئون وحدتهم . نعم ، إنه من الغريب أن يكون حتمياً تحقيق الوحدة بين العربى والتركى والإيرانى والهندى والإندونوسى . وهذا أمر بالغ العسر ، ولا يكاد يهتم به أحد داخل تلك الشعوب الإسلامية الممزقة بين الأحلاف الاستعمارية الخارجية . وبين مشكلاتها وانقساماتها الداخلية . ثم لا يكون حتمياً تماماً ، وقريب المنال جداً تحقيق هذه الوحدة العربية من أجل صالح كل المسلمين . بين المصرى والحجازى والشامى

والعراقى والجزائرى والسودانى واليمنى والمغربى . هؤلاء العرب الذين يعيشون على أرض واحدة . حدودها الحالية مصطنعة ، وهم جميعاً يتكلمون لغة واحدة هى لغة القرآن . ويحاربون باسم التراث المشترك ، والمصير الواحد ، عدواً واحداً يتهددهم فوق أرضهم من أجل أن ينتزع من قلوبهم وأفواههم عقيدة القرآن ، ولغة القرآن . بل وينتزع أرضهم ومواردهم حتى لا يكون من بعدهم من ينطق بلسانهم ، أو يدعو بدعوتهم . أو يبكى عليهم !!

• ومما ينساه خصوم القومية العربية تحت ستار الدين أن (التعرب) منذ عصر الخلفاء الراشدين كان قرينا لضرورة انتشار الإسلام ، وأن أعداء العرب اليوم من جميع المذاهب الصهيونية والاستعمارية وغيرهما يعملون من أزمنة بعيدة للقضاء على مقومات (العروبة) مستهدفين القضاء فى الحقيقة على مقومات (الإسلام) ! .

لقد نسى خصوم القومية العربية التى هى درع الإسلام ، وشجرة الإسلام ، بالنسبة للشعوب العربية . . لقد نسوا أن يتأملوا فى معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : (أنا أعربكم . . أنا من قريش واسترضِعْت فى بنى سعد بن بكر) . .

هل كانت هذه دعوة عنصرية من الرسول الكريم . . أم كانت توجيهاً لإدراك هذه الوحدة العضوية بين اللسان العربى والقرآن العربى بما تعنيه من وعى الدين الحق ، وحمل أمانة الإسلام الصحيح !؟

أليس فى هذا المعنى نفسه كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى يقول : (أما بعد فتفقهوا فى السنة ، وتفقهوا فى العربية) . ألم يقل عمر بن الخطاب فى هذا المعنى أيضا (تعلموا العربية فإنها من دينكم) . وألم يكن هذا وعياً وتطبيقا لمــا سنه النبى فى قوله المقصود به تعريب الأعاجم من أجل الدين : (من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية فإنه يورث النفاق) !! .

• ومما ينساه خصوم القومية العربية أيضا باسم الدين — كما يظنون — ما جرى أمام أعيننا من مأساة حكم الاستعمار الجائر على اللسان العربى لشعب الجزائر . أليس الجزائريون اليوم وهم غير متهمين فى دينهم يجاهدون من أجل استرجاع (عربيتهم) من جديد ؟ . ألم يسمع هؤلاء الأعداء للقومية العربية عن أثقال عمليات (التعريب) التى يدافع بها الجزائريون اليوم عن مصائرهم ؟ وألم يتفكروا فيما حاول الإنجليز أن يفعلوه بين هذه الأمة عندما عملوا على جعل اللغة الإنجليزية لغة التعليم والتعامل الرسمى فى مصر والسودان والعراق وفلسطين ؟ وعندما عززوا هذه الجريمة بنشر مدارس اللغات التبشيرية فى الأقطار العربية ، وتجنيد العملاء لمهاجمة اللغة العربية والسخرية منها ، ومحاولة استبدال اللهجات العامية بها . ومحاربتها إلى اليوم بضراوة بالغة ، حتى فى أسلوب الكتابة ونماذج الخط العربى ، الذى يريدون أن تحل محله الحروف اللاتينية ، ويتجهون مرة أخرى لتقديم خطوط أخرى بدلا منه أقرب شبها إلى

الخط العبرى ، أو إلى الشفرة والرمز ، حقداً وحرباً ، فماذا يحاربون إلا الإسلام والقرآن !؟

• ويطيب لهؤلاء الناقين على القومية العربية أن يحتجوا عليها بحجة (عالمية الإسلام) ، وأن الإسلام قد أذاب القوميات فى أخوته الإسلامية .. وهذا زعم غير صحيح . وادعاء لا يثبت أمام البرهان !

فالإسلام الذى ألف بين قلوب العرب ، أى بين شعوبهم وقبائلهم ، ونزع عنهم العصبية للقبيلة لم يهدم نظام القبيلة ، وإنما وحد عصبياتها فى عصبية واحدة لله ولرسوله . .

لقد بقيت قريش بعد الإسلام ، وبقيت الأوس والخزرج ، وثقيف ، وتميم وغيرها إلى أزمان بعيدة . وبقيت أيضاً بالإسلام هذه الألفة التى وحدت بين القبائل . وهذه (الأخوة) التى جعلت من العرب المتنافرين أمة واحدة . لقد بقيت وهذه الوحدة فى شكلها القومى الذى صنعه الإسلام ، وهو يحدد أهداف هذه القومية التى لم تهدم نظام الأسرة ، أو نظام القبيلة ، وإنما نزعت منه فتيل العصبية . ولقد حددها فيما هو الدفاع عن الأرض وعن الدين معاً . . وكان ذلك منذ وقت مبكر عندما قام المسلمون بقيادة النبى بحرب المشركين ، مستهدفين فى النهاية هذه الوحدة التى لا تلغى واجبا ، ولا تنقص حقاً ، ولا تهدم حقيقة !

يقول الله فى الدفاع عن الأرض والدين :

« إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ

كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ » (الحج : ٣٨ - ٤٠)

فهل تعنى (عالمية الإسلام) أن يكون لكل الشعوب التى دخلت فى الإسلام على أيدى العرب – وبشرط أن تتعلم قدراً ما من لغة العرب – قومية تنتمى إليها باسم الدين وأرض تدافع عنها بأمر الدين ، ثم تبقى الأرض العربية مباحة للجميع بينما أهلها من العرب واقفون فوقها . يمنعهم الحياء والإسلام – مثلا – أن يدافعوا عنها ، وينتظرون الترك أو الإيرانيين ليحتفظوا لهم بها !

من قال هذا ؟ . . ومن الذى يدافع اليوم عن مقدسات كل المسلمين المستباحة فى بيت المقدس . . والمهددة فى مدينة الرسول . . وفى المسجد الحرام !؟ . .

إنهم العرب جميعاً . . الذين يكره لهم البعض أن يتحدوا . . إنهم العرب الذين يدافعون اليوم عن حياتهم ، وعن مصيرهم ، وعن الإسلام .. يدافعون وحدهم عن أنفسهم . . وعما قد يكون هاما من جهة الدين للشعوب الإسلامية البعيدة عن أراضيهم والمشغولة بمشكلاتها تماماً عنهم !

• إنه من الحق أن الإسلام للناس جميعاً ، ولكن هل معنى هذا فى لغة من يقاومون اليوم وحدة العرب التى هى درع الإسلام فى وطنه الأول وعهد إشراقه . . هل معنى أن الإسلام للناس جميعاً . . أن يكون

وطن العرب للناس جميعاً أيضاً !؟ هل معنى هذا أن ندول وطن العرب — كما تريد اسرائيل — حتى يدافع عنه وينهبه ويقوض أركانه غيرالعرب ، كيفما يشاءون ، وفى أى وقت يشاءون !؟

فإذا كان العرب هم الذين يدافعون عن وطنهم ، كما لم ينتظروا أحداً ليوصيهم بذلك ، فكيف يدافعون عنه دون أن ينتموا به إلى أمة ، ودون أن يستكملوا له قوة هذه الأمة باستكمال وحدتها ، ودون أن يستكملوا وحدتها بإحياء مقوماتهما فى اللغة و الدين والتاريخ والمصير ؟ . فإذا فعلوا ذلك . وهو واجب وحق وضرورة ومصير ، ووصية دين وقرآن فما العجب أن تكون هذه نفسها هى القومية العربية . . التى لا تتناقض ، بل تعزز ، كل الاتجاهات لتقارب المسلمين هى القومية العربية . . التى لا تتناقض ، بل تعزز ، كل الاتجاهات لتقارب المسلمين جميعاً وتضامنهم ، فى منهج الحياة ، وتكامل المصالح ، ووحدة الكفاح السياسى السياسى فى العالم المعاصر !؟ . . نعم . . هذا هو الحق . . فماذا بعد الحق ؟

* * *

السؤال الأول :

اذا أردنا أن نتحقق من أن الله سبحانه وتعالى كانت له حكمة بالغة فى اصطفاء النبى وقومه الذين حملوا الى العالمين رسالته الخاتمة فسألنا أنفسنا هذا السؤال (لماذا ظهر الاسلام فى الجزيرة العربية ولم يظهر فى أى مكان غيرها من العالم ، وما الحكمة من ذلك ؟ ..) وضح رأيك ودلل على صحة اجابتك من القرآن الكريم .

الإجـابة :

عندما بعث النبي صلى الله عليه وسلم فى مكة ، العاصمة الدينية لجزيرة العربية ، سنة ٦١٠ م كان العرب فى هذه الجزيرة يعيشون بالنسبة لما يجرى فى بقية شعوب الوطن العربى مثل مصر والشام والعراق على هامش الأحداث الجارية فى تلك الشعوب الحضارية المستقرة ، على الرغم من أن أبناء هذه الشعوب ليسوا إلا امتداداً للهجرات القبلية المستمرة من معين البداوة فى الجزيرة العربية إلى أرض الحضارات على النيل وبردى ودجلة والفرات . . وحتّى المغرب العربى ، وعلى الرغم من أن اللغة السائدة بين هذه الشعوب ليست إلا لهجات متقاربة خرجت من أصل واحد هو اللغة العربية بالجزيرة .

لقد عاش عرب الجزيرة العربية منذ أقدم العصور أحراراً فى بلادهم ، تجمعهم على تباين أمكنتهم جامعة الحج إلى بيت الله ، وتجمعهم اللغة

والأعراف والأخلاق التى توارثوها فى الحكمة والشعر ، وأصبحت باحترامهم لها دستور حياتهم ، ومرجعهم فى السلوك والفخر والقضاء وسياسة السلم والحرب . كذلك كانت تجمعهم الحرية التى احتفظوا بها بأسنة الرماح ، وفى ظلال السيوف ، وفوق صهوات الخيل ، فلم يجترىء عليهم غاز مغرور مثل الإسكندر ، أو ملك متأله مثل جمشيد ، أو محارب مستأسد مثل أبرويز وهرقل ! . .

وكان العرب إلى ذلك ، وهم يرعون أنعامهم ، ويحملون تجارة العالم من حولهم — شديدى اليقظة لكل هذا الذى كان يجرى وراء حدودهم وفى مواسم الحج . كانوا يجددون إيمانهم بحرمة بيت الله فلا قتال .. ويشهدون سباق اللغة فى الحكمة والشعر حيث تولد دائما كلمات جديدة ، وتظهر معان مبتكرة . ويتأكد فى نمو اللغة العربية وثرائها ظهور لغة موحدة أعذب بيانا ، وأيسر تداولا ، وأبعد مدى فى التعبير عن الحقائق الشاملة التى تلين لها قلوب العرب جميعا ، وليس قبيلة بذاتها . . تلين فى اتجاه الحق والمعروف ، وفى انتظار الرسول والكتاب .

ومع تبادل المنافع التجارية والاقتصادية ، وتبادل الأخبار الداخلية والخارجية وإزالة الخصومات ، وحضور الغائبين ، وظهور الأبطال والحكماء والشعراء . فى تلك المجامع الغفيرة حول بيت الله كانت مقومات الشعور القومى جغرافيا ولغويا ودينيا واقتصاديا تزداد تعمقا ، وكان هذا الشعور نفسه حول مفهوم كلمة (عربى) يعلو ويفيض فوق المفهوم القبلى ويزداد تمكنا وتألقا .

فلما أن ظهر الإسلام فوق هذه الأرض شبه المعزولة عن العالم الصاخب حولها كان ظهوره المفاجيء والكامل حدثا مزعجا غير قابل للتصديق بالنسبة لعالقة الإمبراطوريتين الرومية والفارسية ، الذين جثموا طويلا على صدور الشعوب العربية فى بقية الوطن العربى . . وقد آن لهم بسيف الإسلام أن يرحلوا كما آن أن تتوحد هذه الأمة بجميع أطرافها تحت ظل الإسلام وشرائعه ، وأن تحيا الحياة الحقيقية بثقافة القرآن وأهدافه ، فى دولة جديدة كبيرة لم يسبق لها مثيل . دولة إسلامية .. سلامية . غير عدوانية .. تعيش بالإيمان والعلم لخيرها وخير كل العالم .

كيف حدث هذا ؟ .. ما هى الأسباب الكامنة وراء هذه القوة التى ظهر بها عرب الجزيرة بقيادة نبى منهم ، وقرآن نزل من الله عليهم ؟ وكيف لم يتفرقوا بعد وفاة النبى بل زادوا بأسوته قوة ، فحرروا الوطن كله ، وغيروا تاريخ البشر . وسدوا الفراغ إلى العلم اليقينى بالدين .. الفراغ الذى كانت الإنسانية تنتظر سداده زمانا طويلا ؟

لقد كان هذا التساؤل واردا .. كان فى أول الأمر همسا ، ثم أصبح كلاما مسموعا وجدلا متصلا ، ثم أصبح فى تزييف الإجابة عنه مادة لمذاهب .. ومزاعم ، ودعايات حاولت أن تغطى على الحقائق المبينة ، والمعالم الناطقة ، والآثار الباقية ، وهى هى التى لا يزال يكمن فيها ويظهر درس الإسلام الأول والمرشد .. لماذا ظهر الإسلام فى

الجزيرة العربية .. المعزولة بأهلها عن بؤرة النشاط الحضارى والفلسفى والوثنى فى العالم القديم !؟ .. ولماذا لم يظهر فى أى مكان آخر فى العالم ؟

المعقول وغير المعقول :

منذ استقرت نعمة الله بالدول العربية الإسلامية التى وحدها القرآن وأقامها على أرض الوطن العربى بدأ الهمس يدور ، وبدأ التناجى يتزايد حول حكمة الله فى اختيار الجزيرة العربية وأهلها ولسانها مشرقا للدين الحق المنتصر . وكان اللغط بهذا التساؤل إحدى الظواهر العنيفة لارتداد الشعور القومى لدى الشعوب غير العربية التى فقدت بالإسلام سيادتها على الأرض العربية ، والتى لم تدرك بموازينها القديمة فضل الإسلام الذى منحها الحرية الجمهورية . مع ضوابطها الأخلاقية والاجتماعية على أساس من المساواة الإنسانية بين جميع البشر ، وعلى قاعدة متينة من حقوق الإنسان التى أظهرها واحترمها الإسلام لأول مرة فى تاريخ العالم .

لقد تساءل هذا الفريق الذى لم يشكر نعمة الله بالإسلام لماذا لم يظهر دين الله فى فارس أو الروم .. أهل الحضارة .. والملك .. والأنهار والمدن .. والديباج والطهباج !؟ .

ومن هذه المقدمة التى أغراهم بها قصر النظر ، وفرط التعصب لأنظمة القهر فى حياة الأكاسرة والقياصرة ، قلبوا صورة الحكمة الإلهية التى تؤكد فى آيات الخلق هذه العلاقة المطردة بالتكامل بين اللفظ والمعنى .. بين الشكل والمضمون . بين العضو والوظيفة .

لقد قلبوا حكمة الله التى لم يستطيعوا التحديق فيها فزعموا أن عرب الجزيرة من حيث إنهم أجهل الناس ، وأضعفهم عقلا ، وأبعدهم عن النظم ، وأسرعهم إلى النهب ، هم أصلح مادة بشرية لظهور (المعجزة) ، أى ليكسر الله بانتصارهم قوانينه وسننه التى هى مشيئته ، وهى حكمته ، وهى برهاننا عليه . فما هو الغريب عندهم فى أن تكون (معجزة الإسلام) كبيرة عندما تنبت الجزيرة تمرا ، وأن تلد الأرنب حصانا ، وأن يصبح الجهلة واللصوص فجأة ورثة نبوة ، وحملة كتاب ، وهداة بشر . ثم لا يأتى من بعدهم مثلهم أبداً حتى اليوم .. أليس فى هذا غيبة العقول هو الجواب الوحيد المعقول !؟

لقد قالوا ذلك وفرحوا به .. ونسوا أن يثبتوا لأنفسهم صوابه بأن يكونوا اليوم هم الأفضل والأرشد بعد أن صار إليهم الإسلام بعد أولئك الذين خرجوا من عزلتهم ليهدوهم إلى الإسلام .. نسوا أنهم عادوا بعد الشفاء بالإسلام من ذنوبهم العظمى أسوأ مما كانوا .. وبقى للعرب — حتى بعد انحلالهم — تمسكهم بالدين ، بالكتاب والسنة .. وبالمعروف والأخلاق .. فهل هذه (معجزة) أخرى !!

نعم .. إن قانون الله لا يزال حاكما على الأشياء .. القانون الذى أكده الله فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع .. قانون التلازم بين العضو والوظيفة .. وذلك حيث يقول تعالى :

« وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا » (الأعراف : ٥٨)

وفى الكلمة والمعنى يقول الله :

« ضَرَبَ اللهُ مَثلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ » (إبراهيم : ٢٤)

« وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » (إبراهيم : ٢٦)

وفى هذا القانون الذى عرفه العرب قبل الإسلام وعاشوا بفهمه يقول زهير بن أبى سلمى :

وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلاَّ وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إلاَّ فِى مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

الخطى هو الرمح ، والوشيج هو الشجر الذى تؤخذ وتصقل منه الرماح . والمعنى : أن الرماح لا تكون إلا من شجرها ، والنخل لا ينبت إلا فى أرضه . كذلك نبتت فيهم فضائلهم التى توارثوها عن آبائهم .

الشعوب والاستشراق :

ومع الزمن أصبحت هذه الحملات الشعوبية على العرب لتحقيرهم ، والزراية بهم . وتلفيق الأخبار والمفتريات عليهم مذهباً سائداً ، ومكتوباً ، فى الكثير من الكتب العربية التى تم تدوينها فى لحظات الاحتضار للدولة

العباسية ، وفى فوضى ارتداد المشاعر القومية بين غير العرب بالزندقة ، والتنظيمات الباطنية ، والأطماع السياسية ، حتى لقد أصبح ذم العرب (متعة) لهؤلاء الطامعين الذين خربوا الدولة العربية الإسلامية بالحرية التى منحها الإسلام لهم ، والمشاركة فى الحكم ، فنشروا انحلال الأخلاق وأساطير التهتك ، وعادات البذخ ، وفتنة التأويل ... حتى سقط الصرح العظيم !

لقد هاجمت الشعوبية بدافع قومى وسياسى وزندق كل شيء قامت عليه حياة العرب قبل الإسلام ، وقامت به أهليتهم وكفاءتهم لحمل رسالة القرآن بالقول والعمل ، وبالفهم والأسوة ، وكما يقول الدكتور عبد العزيز الدروى فى كتابه (الجذور التاريخية للشعوبية) هاجموا العرب فى أسلوب حياتهم ، وفى مطاعمهم وملابسهم ، وفى فصاحتهم وخطبهم ، وفى أساليب قتالهم ، وفى أنسابهم ، وفى علاقاتهم الاجتماعية ، وفى كرمهم ، وفى مقاييسهم الخلقية ومعروفهم .

لقد فعلوا ذلك ليفخروا على العرب بالبديل ، بل ليقيموا حياة العرب بالقهر لو استطاعوا على هذا البديل ، وهو العجمة ، والزندقة ، وحكم الجبابرة ، وسلطان الرفاهية ، واستباحة المتاع من كل مصادره لانتهاب اللذات .. بغير حرمات !

وأمام هذا الطوفان من الأحقاد والمفتريات والشعوبية هل رد العرب عليها وأنكروها ؟ نعم .. رد بعضهم عليها .. وكان الرد خليقاً

بقضية الحق ، وخلق الحق .. لقد كان رداً موجزاً أكثره كان بالترفع عن المحاجة فى إظهار الحق الظاهر . . ذلك أن الله فى قضية الإسلام والقرآن فصل فى أى جانب يقفان ، وبأى لسان ينطقان ، عندما اصطفى من العرب خاتم النبيين ، ومن لسان العرب قرآنه المبين ، وجعل هذا الاصطفاء تبعة لا منحة ، والمسئولية عنه فريضة لا نافلة .. وعندما جعل فضل العرب قريناً بالتقوى ، وبالجهاد ، وبالعربية .. وعندما قرر ذلك عملياً فوضع بلالا فى الجنة ، ونزل بأبى لهب عم النبى فى النار .. وعندما ارتفع باللسان العربى فى القرآن وبالقادرين على فهمه ، وبالمؤمنين فى نور بيانهم بنوره فقال سبحانه :

« أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ »
(فصلت : ٤٤)

لقد اكتفى العرب وهم يجاهدون لاستبقاء عروبتهم ، والقتال عن الصراط السوى لدينهم ، بأن يذكروا من لا يتذكرون بأقوال النبى فى العرب وهو لا يقصد جنساً ، وإنما يقصد موضع أمانة ومعروف وبيان .. لقد ألقى العرب على إفك الشعوبية قول النبى صلى الله عليه وسلم : (أحب العرب لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى) .

وقوله : (إذا ذل العرب ذل الإسلام) .

وقوله صلى الله عليه وسلم لسلمان الفارسى : (يا سلمان لا تبغضنى

فتفارق دينك ، قال قلت يا رسول الله كيف أبغضك وبك هدانى الله ، قال : لا تبغض العرب فتبغضنى) .

ثم مضى زمان وزمان على الزوابع التى أثارتها الشعوبية المبغضة لله والبغيضة إليه وإلى رسوله .. وجاء العصر الحديث .. حيث بعد هذه الحماقات والمكائد والغرق فى اللهو والعمل (السرى) صار المسلمون جميعا إلى الضعف .. لقد ضعفوا لأنهم أضعفوا بأيديهم قيادتهم فى أمة عربية واحدة .. وفى صراط مستقيم واحد للإسلام غير متفرق ، وفى فهم مبين لظاهر القرآن ، ومحكم شرعه ، بغير تفلسف أو تأويل .. وجاء الاستعمار بجيوشه ، وبخطته لزرع (إسرائيل) فى قلب الأمة العربية .. فى إحدى منارات وقلاع العالم الإسلامى . . لزرع هذا العدو القديم حول القدس .. وباتجاه تهديد المسجد الحرام .. ومسجد الرسول !

بهذه المتغيرات الجديدة على ساحة العصر ، وتمهيداً لها منذ نحو قرنين باستغلال جراح ونزيف الحكم العثمانى فى جسم العرب عادت الدعايات الشعوبية الشرقية ضد الأمة العربية المطلوب إبادتها والإجهاز عليها — تظهر من جديد فى مدرسة جديدة ذات تعبويات (وتكتيكات) جديدة لنفس الأهداف الشعوبية القديمة . ظهرت مدرسة كبيرة للمستشرقين أو للمستعربين . الذين ينتظمون فى معسكرات للتدريب على الحرب الفكرية ضد العرب والإسلام ، وفى عواصم أوروبا شرقاً وغرباً ، لكى يؤلفوا الكتب ، ويخترعوا النظريات ، ويشككوا الأجيال

العربية فى دينهم وأمتهم من خلال الإجابة عن نفس السؤال القديم : (لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب .. ؟) .

فى هذا الاتجاه نشطت الخطط لخلق الانشطارات فى الشعوب العربية، وإضاعة المعالم ، وإغراق الأجيال فى التيه والضياع ، فليس ثمة فى مجال العلم والثقافة – كما خطط لها المستعمرون – نجم يضىء لها فى ظلمات التخلف على الطرق التى يقود بها الماضى إلى المستقبل . لقد أصبح هناك تعليم مدنى يصب فيه الفكر الأوروبى المتسلط ، والموجه لإذابة الهوية العربية .. وتعليم دينى منكمش فى ركن مظلم مهجور .. تعليم دينى لا يملك أن يعمم نفسه ، ولا يتاح له من زاد العلم الدينى إلا الكتب التى تكرس الخلافات ، وتعدد الأقوال ، والتى توقف الاجتهاد ، وتجمد الفكر .

ومن هذا الانشطار للعلم الموحد فى العصر الإسلامى ظهرت مخططات إذابة اللغة العربية ، والترويج لاستعمال العامية فى الكتابة والمحاضرة ، واستخدام التراكيب الأجنبية فى لغة المثقفين ، والدعوة لاستعمال الحروف اللاتينية . إلخ ..

ولم تلبث الهجمة الاستعمارية أن أغارت على الشريعة الإسلامية فى مصر وغيرها حيث فى ظلمة التخلف ، وصمت الجماهير ، وعجز رجال القانون ، وضعت شريعة الله فى قيد الاعتقال والتجميد والتعطيل سنة ١٨٨٣ ، ومضى نحو قرن قبل أن ينجح المصريون فى إعادة ظاهر النص على الشريعة فى الدستور الدائم .. ولا تزال

المحاولات المخلصة مستمرة لإعمال هذا النص .. وإنهاء الاستعمار التشريعي للوطن .. وإخراج الشريعة السمحة من معتقلها بعد أن خرج كل المعتقلين ! !

ثم تفاقم أمر هذه الحملات ضد وحدة العرب ، ولغة العرب ، ودين العرب عندما دخلت الدعاية الشيوعية نفس المعترك ، مستخدمة أسلوبها الخاص وتمويهها التقليدى .. وكانت البداية المباشرة سنة ١٩٢٨ عندما نشر رجل شيوعى ، مجهول الهوية ، يزعم أنه من أهالى القدس ، كتاباً سماه (الحركات الفكرية فى الإسلام) تناول فيه وهو يصوغ أفكاره الغريبة على هيئة منشور ثورى موجه منه إلى (الشبيبة العربية المتحررة من الخرافات الدينية والاجتماعية !) لكى ترى بعين الماركسية أن الزنادقة من القرامطة والبابكية والحشاشين والإسماعيلية الباطنية هم بعد عصر النبى والخلفاء الراشدين (المسلمون الثوار الذين طبقوا التعاليم الاشتراكية فى الإسلام) ! أو بعبارة أخرى من كلامه (هم الشيوعيون الأوائل الذين طبقوا التعاليم الاشتراكية فى الإسلام ، ورفضوا الأخذ بظاهر شريعة القرآن ، وأقوال الرسول البسيطة التى كانوا يضحكون منها فى اجتماعاتهم السرية) ! !

لقد كان هذا الكتاب الهدام جذوة أولى لإشعال نار الأحقاد والمفتريات على العرب والإسلام فى اتجاه ماركسى ينافس الاتجاه الاستعمارى ، وظهر الكتاب منذ سنة ١٩٢٨ فى عواصم الوطن العربى ، وأصبح دليل عمل جديد لجميع أطراف التحالف والوفاق على الغزو

الفكرى الهدام للأمة العربية — مثابة الدعوة إلى الله ، والحفاظ على لغة القرآن .

لقد كان المؤلف المجهول ، والعميل الظاهر (بندلى جوزى) متخصصاً باللغات السامية والدراسات الشرقية ، وقبل أن يدخل فى تنظيمات الماركسية كان يدرس فى معهد للرهبان والتبشير ، ثم انتقل للتدريس فى روسيا فى جامعة قازان ، ثم فى جامعة باكو حتى توفى سنة ١٩٤٢ ، ومن أشهر كتبه الدعائية كتاب (تعليم الروسية لأولاد العرب) (و بحث عن المعتزلة) و (فقرات من البهائية) ! !

ومن الغريب .. فى ذروة الصراع العربى لمواجهة العدوان الإسرائيلى : ظهور هذا الكتاب مرة أخرى فى مصر سنة ١٩٧٣ . لقد ظهر فى صورة بحث علمى فى التاريخ الإسلامى إدعاه لنفسه مدرس مصرى مسلم ، يقوم مع الأسف بتدريس التاريخ الإسلامى فى جامعة عين شمس .. لقد ظهر بعنوان قريب من عنوان أستاذه بندلى جوزى الشيوعى وهو (الحركات السرية فى الإسلام) . لقد ظهر بنفس طابع الكتاب الأصلى كمنشور عام جديد يروج بين المثقفين وطلبة الجامعات ! لقد ظهر ليردد خطايا بندلى جوزى العقلية ، وخططه الدعائية .. ولم يشعر أحد بشىء حتى يوقف هذا العدوان الفكرى فى ذروة القتال ضد العدو ! !

لقد ظهر هذا الكتاب فى مصر بهذه الصورة الملتوية ، بينما أعيد فى بيروت فى نفس السنة ١٩٧٣ طبع نفس كتاب بندلى جوزى ،

كأنهما على ميعاد .. ولم يتساءل أحد عن معنى هذا التوافق الذى كأنما تحركه يد واحدة .. ! ! !

لقد ظهر هذا الكتاب تهافتاً ووهناً من عقلية عربية كانت ولا تزال مرجوة لما هو أفضل ، عقلية معلم يتعثر فى ثوب للعلم أوسع من قدرته . وهو يكرر أن (القرامطة) الذين استباحوا ذبح عشرات الألوف من الحجاج ، وحاولوا هدم الكعبة ، وقطعوا الطريق للنهب والسلب ، وخضعوا كالدواب لإمام مستور (معصوم) ، والذين كانوا يعيشون فى شيوعية مزدكية إباحية للنساء والحرمات والأموال — كانوا فى نظره هم الثوار الذين تحركوا بالصراع الطبقى ، وأقاموا فى كوميوناتهم أو فى معسكرات تمردهم — تعاليم الاشتراكية الصحيحة كما فهموها فى الإسلام ! .. تماماً تماماً كما يقول أستاذه بندلى ! !

نعم .. فى هذا الكتاب الغريب الذى تقمصه مدرس التاريخ الإسلامى يكرر قول أستاذه الماركسى بندلى جوزى فيزعم أن طائفة الحشاشين الذين عاشوا على حرفة (الاغتيال) .. وعلى استخدام الخمر والحشيش والنساء لبناء تنظيم سرى من القتلة الذين تحالفوا مع الصليبيين ، وحاولوا اغتيال صلاح الدين هم قدوة حسنة للعرب . لشيوعيى المستقبل . من العرب .. الذين يعوقهم بهذه المغالطات الجدلية ، والتربصات الدعائية ، ليخلعوا الإسلام . ويتخبطوا فى الشيوعية .. مادام القرامطة والحشاشون والبابكية قد حققوا فى عصر الثورات على الدولة العربية ، وعلى الدين الحق والقرآن ، وعلى نهج النبى والخلفاء الراشدين . وحدة فى المفهوم

بين الشيوعية والزندقة .. والإسلام !! . فى نظر مدرس التاريخ فى جامعة عين شمس !!

سلطان الحق :

هذه لمحات خاطفة على ملامح الصورة البشعة لمخططات أعداء العرب ، ودين العرب ، ووحدة العرب ، تصور لنا شراسة التحدى الشعوبى والإسرائيلى والاستعمارى والشيوعى الذى تجاوز كل حد ، والذى يراه الدكتور عبد العزيز الدروى فى كتابه الآخر (الجذور التاريخية للقومية العربية) قد تخطى حدود التآمر على السلطة السياسية العربية إلى (تحدى العرب فى صميم كيان الأمة العربية وذاتها . وفى تكوينها ولغتها وثقافتها ، وفى قيمها وإنجازاتها وقاعدتها الاجتماعية ، ودورها فى التاريخ) ! .

ولكن على الرغم من هذا الصراع المرير فلقد كان هذا التحدى الظالم دافعاً قوياً لتنشيط فكرة الأمة العربية بين العرب ، وسبباً مباشراً لوضوح هذا التكامل الذى عاشت به الأمة العربية قبل الإسلام وبعده .. والتكامل اللغوى والثقافى ، والتكامل فى الخصائص والمقومات ، التى تجعل الإسلام فى حياة هذه الأمة غاية جهدها ، وأعظم ركائزها ، ومصدر بقائها واستمرارها .

ثم جاء التحدى الإسرائيلى المعاصر مثار يقظة وصحوة لهذه الأمة التى وعت كثيراً من الدروس على أيدى أعدائها ، وهى تدرج على الطريق الأول . الطريق الذى نسميه الآن بالتضامن العربى .. الطريق نفسه

الذى جمع به القرآن أجزاءها ، وألف بين أشتاتها حيث يقول الله سبحانه :

« وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » (الأنفال : ٦٣)

لقد بدأت على قصف المدافع ، ووهج قنابل الحرب المستعرة بين العرب وإسرائيل صحوة صادقة تجاوز بها العرب أكثر من مرحلة من مراحل التفكك القومى والدينى والتخلف العلمى والثقافى ، وأصبحت الألسنة المعتمودة قادرة على أن تحل عقدتها ، وتعبر عن آمالها ، وبدأ سلطان الحق يظهر بظهور هوية الأمة وذاتها فى قوميتها التى هى لسانها وأرضها وتاريخها ودينها .

لقد بدأت تباشير هذا السلطان الحق العربى تظهر حتى على لسان من تتلمذوا على فكر المستشرقين من المثقفين فى بلادنا .. وأساتذة الجامعة .. وأخذ الكثيرون منهم يخضعون فى لحظة وعى خاطفة لسلطان هذا الحق الذى يغلبهم على إرادة المستشرقين والمضللين فيهم ، فتتحرر إرادتهم ليقولوا فى هذه اللحظة المضيئة ما ينقض كل دعاواهم وتخبطاتهم ..

أذكر هنا مثالا واحداً لصحوة الوعى ، وسلطان الحق ، فى سطور قليلة من كتاب (فجر الإسلام) الذى أصدره أحمد أمين سنة ١٩٣٠ متأثراً بأقوال الكثيرين من الشعوبية والمستشرقين ... سطور قليلة يرد فيها أحمد أمين على المدرسة الاستشراقية كلها ، وعلى نفسه ،

ويجيب عن السؤال المطروح (لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب) إجابة متمهلة متعقلة ، يكشف بها عن هذا التلازم الواضح بين حياة العرب فى صحرائهم وبين فرصة الإنسان المتاحة له ليفتح عينيه على أول الطريق إلى الله الحق .

يقول أحمد أمين (إن الحياة فى الصحراء قليلة إذا قيست بحياة الحضر ، سواء فى ذلك حياة النبات أم الحيوان أم الإنسان ، لقد عريت أرضها غالباً عن آثار البشر ، فلا أبنية ضخمة ، ولا مزروعات واسعة ، ولا أشجار باسقة . فابن الصحراء يقابل الطبيعة وجهاً لوجه ، لا شئ يحول دون التفاته إليها تطلع الشمس فلا ظل ، ويطلع القمر فيرسل أشعته الفضية الوادعة فتبهر لبه ، وتتألق النجوم فى السماء لتملك عليه نفسه ، وتعصف الرياح العاتية فتدمر كل ما أتت عليه ..

أمام هذه الطبيعة القوية ، والطبيعة الجميلة ، والطبيعة القاسية ، تهرع النفوس الحساسة إلى رحمن رحيم ، وإلى بارئ مصور ، وإلى حفيظ مقيت .. إلى الله .

ولعل هذا هو السر فى أن الرسالات الثلاث التى يدين بها أكثر العالم وهى اليهودية والنصرانية والإسلام نبعت فى صحراء سيناء وفلسطين وصحراء العرب) انتهى .

أعظم النعم :

لم تنجح إذن أعظم الحملات فى أن تطفئ منارة أخلاق العرب ، أو أن تطمس فى التاريخ سيرتهم ، أو أن تحجب رسالتهم فى الدعوة إلى الله فوق أرضهم .

لم تنجح هذه الحملات قط فى أن تجرد العرب المعاصرين من قوة الانتماء إلى الصالحين من أسلافهم ، ومن صحة الانتماء بالحياة المتجددة على آثارهم ، ومن الحفاظ على لغتهم ، وشريعة الله فيهم ، وعلى دورهم الباقى فى التاريخ .

والآن .. نواجه صميم الجواب عن حكمة الله الحكيم فى اختيار الجزيرة العربية لتكون منبت شجرة الإسلام ، ومرتكز الدين الذى أظل بالحق والأمن والعلم أرجاء العالم .

لقد كان ذلك للأسباب الإلهية الطبيعية التى هيأتها ظروف الجزيرة العربية البدوية الصحراوية ليكون أهلها فى أتم حالات اللياقة لتلقى كلام الله ، والإنابة إليه ، والاستجابة له بالإيمان والعمل ، وبالسلوك والأسوة .

لقد أتاح الله لهم بشهادة القرآن الكريم أعظم النعم التى تتاح لبشر ، ثم طالبهم بالشكر عليها ، وهو يخيرهم بين الطاعة والمعصية .. بين الرضوان والعذاب .. فاختاروا الطاعة لله ولرسوله .. ونصر الله جيلهم الأول .. وأجيالا من بعده سارت على الأثر .. اتبعت ولم تبتدع ..



واجتهدت ولم تتجمد .. وانتشر بهم الإسلام فى أنحاء الأرض . . وبقى بعدهم كتاب الله وسنة رسوله ليتجدد العهد .

هذه النعم العظمى تتكامل فى خمسة أركان قويمة تقوم عليها حكمة الاختيار الإلهى المنصوص عليه فى قوله تعالى :

« هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » (الحج : ٧٨)

هذه الأركان أو النعم الخمس لم تكن عطية سهلة لعرب الجزيرة قبل الإسلام . لقد كانت اختياراً صعباً من أجل ما هو أفضل .. اختيار الجدب على الخصب .. والترحل على الاستقرار .. والبذل على الشح .. والحفاظ الدائم على صهوات الخيل من أجل الحرية ، والمساواة ، والمعروف ومن أجل حصانة المرأة وحماية الجار والضعيف بديلا من الاستسلام للراحة وراء الجدر ، ومن العجز بعيداً عن الخطر ، تحت نير دولة تذهب وأخرى تجئ .

لقد كانت نعما مدفوعة الثمن الفورى بالسهر والجهد ، وبالنفس والمال .. وهو ثمن يتجدد دفعه عن كل لحظة من لحظات كمال الحرية ، وتمام المروءة ، وصحة النفس ، وصحة العقل ، وصحة البدن ، وسيادة الإرادة .

إنه هو نفس الثمن الذى عجز بنو إسرائيل عن دفعه مراراً فضرب الله عليهم الذل والمسكنة . لقد عجزوا عن امتلاك الحرية ، ببذل النفس

والمال .. عجزوا عن دفع الثمن العاجل ، بل طالبوا الله أن يدفعه عنهم .. وعندما أخرجهم الله من قيد فرعون وعذابه بقوة العصا فى يد موسى .. وليس بقوة بذلهم لأنفسهم ، وجرأتهم على معذبهم .. عادوا فحنوا حنين الدجاج إلى الحظائر .. وإلى العدس والبصل ، وكرهوا نعمة الله بالمن والسلوى مع البداء والحرية .. واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير .

لقد عجز بنو إسرائيل فى شبابهم الأول حتى عن ساعات وأيام فى صحراء سيناء . فبكوا وصرخوا ولطموا وعبدوا العجل . . وأصبحت الساعات والأيام أربعين عاماً يتيهون فيها ليتعلموا . فلم يتعلموا إلا شهوة التطفل فى أحشاء البشر . . وإفساد حياة الآخرين . وسرقة الأموال ، ، وتجارة الموبقات . . والعنجهية بما لم يبذلوا فيه شيئاً . . إذ كانوا يوماً ما أبناء إسحاق ! !

فهؤلاء العرب الذين جعلوا الصحراء حصناً آمناً لهم آلاف السنين . تحت الشمس المحرقة . والرياح العاتية . . والقمر المنير وهو يدور لهم وحدهم . . ويتحدث إليهم بأسمائهم . . قد امتحنهم الله بكل الشدائد . والمخاطر . والوحشة . فأحسنوا الاستجابة والتعلم والصبر وهم يستخلصون الشبع من الجوع ، والأمن من الخوف ، والحلم من الغضب ، والمعروف من المنكر ، والحرية من بذل النفوس ، وصدق اللقاء .

ومن خلال ذلك تعلموا أيضاً أن ينقلوا صور الطبيعة وحركتها وقوانينها فى تعاقب الأفلاك ، فى دوران الليل والنهار ، والشمس والقمر

إلى أصوات لغتهم ، وسرائر بيانهم . لتكون لغتهم هي لغة الدين . لغة البيان بالحق واليقين عن حكمة الله فى الدنيوى والأخروى . وفى البشرى والإلهى . . وفى الشهادة المحسة والغيب المجرد .. فى وحدة تمسكهما معاً فى هذه اللغة الإلهية الحية كما يمسك الله السماء والأرض أن يقعا . . وأن يتبددا !

الحرية الكاملة :

منذ جعل الله وادى مكة مستقراً لبيته ، ومثابة لأمن الناس به ، لم يذق العرب فى الحجاز وما جاوره مس التبعية لأحد . . كان الله هو الحاكم . وكان المعروف قبل الشريعة هو الشرع . . وكانت مكة باللغة اليمنية القديمة تسمى (ميكوراب) أى مكان عبادة الرب . . وعندما أعاد إبراهيم إقامة بيت الله وضح للعرب دين وطريق يجتمعون عليه ، وأصبحت الحرية الكاملة شرفاً وضرورة فى نفس الوقت ، وحياة تتوارثها الأجيال .

يقول الله :

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ » (آل عمران : ٩٦)

ويقول الله على لسان إبراهيم :

« رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ » (إبراهيم : ٣٧)

ومعنى هذا أنه حيث لازرع .. فلا كهنة ولا ملوك . . أى لاخرافات ولا قهر . ليبقى البيت فى مكانه آمناً بالأحرار ومباركاً بهم ، وهدى للعالمين .

وعندما حاول أبرهة الحبشى أن يهدم الكعبة فى خدمة سيده القيصر يوستينوس الثانى الذى كان حكمه فى الدولة الرومانية الشرقية مابين ٥٦٥ و ٥٧٨ ميلادية هدم الله جيشه ، وخذله وأخزاه قبل أن ترميه قريش والعرب بسهم ما كان ليخطئه أبداً . .

فى هذه الحرية يقول ابن خلدون فى مقدمته وهو تحت تأثير سلطان الحق ، ورغم تخبطه المزرى فى الحديث عن العرب : (إن أهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتبديهم فى الصحراء ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لايكلونها إلى سواهم ، ولايثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب ، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً ، مدلين بيأسهم ، واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية) .

اللغة المبينة :

وعندما استوعب العرب نعمة الله بكمال الحرية أسلمتهم هذه إلى نعمة الترحل ، والمعايشة الدائمة لآيات الله ، والملاحظة الدائبة لحركة الخلق ، التى تبين — باتساقها ، وتجاورها ، وتعاقبها بغير تفاوت أو فطور — عن حكمة الله فى الأشياء والأحياء . . فى الآفاق وفى الأنفس .

فى هذا الترحل المتصل ، والمواجهة الدائمة للطبيعة وسننها فى السماء والأرض ولد التعبير ، ونشأت اللغة العربية ، اللغة المبينة . التى كانت ثمرة الحاجة إلى الهداية . . إلى العلم . . فى متاهات وقفر لايعنى الضلال فيها إلا هلاك الإنسان وموته . . ولا يعنى الهدى فيها أقل من حياة الإنسان وأمنه .

لقد ولدت اللغة العربية . ونمت . وازدهرت . لتكون هداية بالتعبير أول الأمر عن الأشياء . عن حكمة الأشياء . وحدود الأشياء ، وعلاقات وحركة الأشياء . ثم لتكون بعد ذلك هداية بالبيان المبين عما وراء الأشياء. وعمن وراء الأشياء . .عن الله الذى اتسعت هذه اللغة المبينة وحدهاالتسميه تعالى بإسمه فيتنزه بحروف اسمه ومعناه فى كلمة (الله) عن التجسيد والتحديد . وعن المكان والزمان . . وعن الشريك والشبيه .

لقد اتسعت هذه اللغة المبينة وهى تولد فى أحشاء السنن ، وحرارة الكدح ، وتحت سماء الرحمة . وفوق ساحة الخوف والأمن فى تلاحق الضلال والهدى — اتسعت لكل مايحتاج إليه الإنسان الكامل بالحرية ، ليكون كاملا بالعقل ، وكاملا بالفعل. وكاملا بالتعبير .

لقد عرف هذا الإنسان الكامل بالحرية ، والحر بالتعبير ، من خلال لغته — أن حياته بمعناه المحدود وغير المحدود هى أن يكتشف الطريق المستقيم . أن يهتدى إلى الطريق الواحد لهذه الحياة . لقد عرف ذلك واستعد له قبل أن يتنزل عليه قوله تعالى :

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » (الأنعام : ١٥٣)

ولقد عرف بترحله واستهدائه ولغته أن الهدى حياة وأتم الحياة قبل أن يتنزل عليه قوله تعالى :

« أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا »
(الأنعام : ١٢٢)

من أجل ذلك تسمى العرب عرباً نسبة إلى بيانهم ولغتهم التى أعربوا بها عن أدق مشاعر الإنسان ، وعبروا بها إلى صحاح المعانى ، وعرفوا بها الهدى إلى حكمة الله فى الأشياء . وأصبحت هذه اللغة بذلك برهاناً وحجة – لهم أو عليهم أمام الله الذى تنزهوا بنعمته عن العجمة ، وتحرروا بهدايته من الحيرة ، واستقاموا إليه – عندما دعاهم بكلامه العربى فلم يطيلوا النفرة أو المراجعة ، أو يضعوا رءوسهم فى الرمال .

لقد كانت اللغة العربية وهى أقوى أركان الدين ثمرة حياة أمينة وصادقة ، حياة طويلة وعريضة ، تفتقت فيها ألسنة العرب عن هذه الكلمات الموسيقية المشرقة التى بهرت حتى أعدى أعدائها ، فانكبوا على تعلمها ، والكشف عن قوانينها وخصائصها ، وهى قد كانت فى أفواه أصحابها أقرب إلى الإلهام منها إلى الصناعة ! .

يقول ابن جنى فى الخصائص (إن العربى إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته تصرف وارتجل ، حتى ليأتى من الألفاظ مالم يسبق إليه) !

والمستشرق الألمانى نولدكه رغم قصور فهمه وتحامله يعجب بهذا الغنى الذى تتمتع به اللغة العربية فيقول : (إنا ليتملكنا الإعجاب بغنى اللغة العربية ، إذا ما ذكرنا بساطة الحياة العربية ، وتوحد مناظر بلاد العرب واطرادها) .

ولكن عالم اللغة العربى أبو عمرو بن العلاء يخاطب أهل الأمصار وهو يأسف على ماضاع من ثروة اللغة العربية فيقول : (لم ينته إليكم مما قالته العرب إلا أقله . . . ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير) !

ويقول التوحيدى فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وهو يقارن اللغة العربية بغيرها : (ما وجدنا لشىء من هذه اللغات نصوع اللغة العربية ، أعنى السعة فى كلماتها ، والغناء الذى نجده فى حروفها ، والانفراج الذى بين مخارجها ، والمعادلة التى نذوقها فى أمثلتها ، والمساواة التى لا تجحد فى أبنيتها) .

بهذا الكمال الذى خشعت له كبرياء أشد خصوم العرب والإسلام من الشعوبية والمستشرقة يرفع الثعالبى لغة العرب فى كتابه (فقه اللغة) إلى مرتبة الدين حيث يقول : (من هداه الله للإسلام اعتقد أن العربية فى اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهمها ، من الديانة) . . وهذه هى الحقيقة .

الدين والمعروف :

ومن طريق نعمة الله على العرب باللغة المبينة أنعم عليهم بالغاية الكريمة التى تنتهى إليها وتصب فيها بأصواتها وصورها ومعانيها . . وهى الدين .

لقد عرفوا قبل غيرهم ، وأكثر من غيرهم ، طريق (الله) الذى لم يقعوا فى مزالق تجسيده ، أو الخلط بين ذاته وصفاته ، أو التفلسف حول مشيئته فى عمل الخير والشر بين عباده .

لقد عرفوا بمعرفة الله (العملية) مايعينهم على دوام تذكره ، وعلى حياتهم رغم غفلاتهم منه ، ورجوعهم عند شدائدهم إليه .

لقد عرفوا المعروف وتواصوا به فى مواسم الحج ، واستنكروا المنكر وتناهوا عنه فى مجالس القضاء . . وحول بيت الله تعلموا الوفاء لعهد الله بحرمة بيته ، فأمنوا إلى دينهم ، وإلى ما استمسكوا به من وصايا إبراهيم وإسماعيل لهم ، فازدهر مع الدين اللسان ، وظهرت مع اللغة الحكمة ، ونشطت مع الحكمة فى الشعر والنثر دواعى الألفة ، فأخذوا يتطلعون قبيل بعثة النبى إلى رسول (منهم) يأتيهم بكتاب من عند الله يكونون به

« أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ » (فاطر : ٤٢)

والذين أرادوا الانتقاص من العرب من الشعوبية والمستشرقة رموهم بما سبقت إليه شعوبهم من عبادة الأوثان والأحجار ، وتعمدوا أن يتجاهلوا فى الحديث عن ديانة العرب قبل الإسلام — ذكر الله الذى كان العرب على التحقيق يعبدونه ، ويتوجهون إليه ، ويحجون له .

أما هذه الأحجار المستوردة كلها والتى لم تحجب قط عبادة الله الحق، فلقد كانت أهون على العرب فى شركهم من أية (أعتاب) أو (أضرحة) لايزال عامة المسلمين فى عصور التخلف يتضرعون إليها مع الله أو فوق الله . . ولذلك نجحت دعوة النبى صلى الله عليه وسلم فى غير محال طويل ، فانخلع المشركون عن أصنامهم ، ليخلو لهم وجه الله بالإيمان الذى كانوا على شعبة منه ، وبالقرآن الذى أحسنوا بعد الجدل تصديقهم ، وعملهم بما فيه .

لقد كان الشرك بالله ، وإضافة الآلهة الوهمية للتقرب ،إليه هو محور المجاهدة فى دعوة القرآن والرسول . . فالقرآن بعد إبراهيم وإسماعيل لم يأت ليعلم العرب بعد وثنية عمياء أبجدية الإله الواحد الحق . رب إبراهيم . . ورب البيت . . ورب كل شىء كما كان يعرف العرب . وتعرف قريش .

لم يكن الإسلام فى دعوة القرآن والنبى دعوة مستحدثة بدين جديد .. بل كانت تصحيحاً وتقويماً لدين قديم . ثابت الأركان . واضح المثابة فى بيت الله . دين غفل عنه أهله وإن لم يغفلوا عن أن الخالق هو الله . والرزاق هو الله ، والعزيز الرحيم هو الله . ومن اليسير . . بل كان من المحقق أن يعودوا إليه .

لم يكن الإسلام ديناً طارئاً فى حياة العرب على مجوسية تقول بإله النور أهورامزدا ، وبإله الظلام أهريمان . . ولا بوذية تعبد رجلا هو بوذا . أو برهمية تعبد رجلا آخر هو برهمن . . لقد كان هو دين الله الحق كما جاء به إبراهيم . . قد شابته الشوائب ، وكدرته الغفلات . وآن له أن يظهر فى أهله وينتصر فى إطار القرآن الكريم .

وفى هذا المعنى الجلى يقول الله منكراً عليهم مجرد الشرك بالله . وليس الإنكار لله ، أو الاغتراب عن الله :

« أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللهِ تعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (النمل : ٦٣)

ويقول سبحانه فى فضله على قريش ببقية مابقى لهم من الدين فى بيت الله وسدانتهم له ، وإطعامهم الطعام للوافدين عليه :

« أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » (العنكبوت : ٦٧)

ويقول أيضاً :

« أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » (القصص : ٥٧)

ويقول سبحانه وهو يشهد لهم باستغفارهم الدائم له وأنه لذلك لايعذبهم فيقول :

« وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » (الأنفال : ٣٣)

بل يشهد الله لهم بأن شركهم ليس إلا غفلة منهم لاتثبت أمام آياته فسرعان عند ذاك ماينسون شركهم ويعودون إلى ربهم وفى ذلك يقول :

« قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ

اللهِ تَدْعُونَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • بَلْ إيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إلَيْهِ إنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » (الأنعام : ٤٠-٤١)

وفى هذا المناخ من التهيؤ للدين الحق بكل أسبابه من الحرية الكاملة ، ومن اللغة المبينة . ومن يقظة المعروف . وتنبه الحاجة الفطرية إلى الدين الصحيح ظهر النبى الذى أخذ قبل بعثته بأعوام يتحنث فى الغار ، أى يخلو لنفسه أياماً بالصوم والصلاة ليتفكر . ويسأل الله البينة .

ومعنى أنه كان صلى الله عليه وسلم يتحنث هو أنه كان (يتحنف) فإحدى الكلمتين لغة من الأخرى . وواضح أن يتحنف معناها أنه كان يراجع ويسترجع (حنيفية) إبراهيم التى هى فى عصور الحيرة حالطلب الهداية ببداية الميل عن الميل . . هى الطريق إلى معرفة الصراط المستقيم من خلال السؤال والجواب ، وعن طريق النفى والإثبات .

وهكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم طليعة قومه وبشارة النجاة بأمته حين بعثه الله ليخرج بها من الظلمات إلى النور ، فى الزمان الذى كان فيه هؤلاء العرب فى عزلتهم . وقد أعدهم الله بكل مقومات إنابتهم وإسلامهم يسألون عن الدين تحت غاشية الغفلة ، وفتنة العدو ، وغرور التجارة والمال واللهو — يسألون : أين الدين . . وأين الرسول . . وأين الكتاب . .ولكنهم لم يسألوا أبداً : أين الله ! ؟ . لأنهم حين سألوا . واستغفروا . وانتظروا . كانوا يسألون الله . حتى إذا ما استجاب لهم أنكروا رسوله وكتابه ودعوته

ساعة من زمن . . ثم لم يلبثوا أن تداعوا إليه بالإقبال وصدق الإيمان ، حتى دخلوا فى دين الله أفواجا .

الغنى والأمن :

وعندما أقبل عهد البعثة ، وأضاء فجرها ، كان من نعمة الله على العرب وعلى قريش بخاصة هذه النعمة الرابعة بعد الحرية واللغة والدين وهى الغنى والأمن . . هذه النعمة التى كانت تقتضى الشكر للمنعم . . والإخلاص لعبادة الرحمن ، وتجافى الشرك به أو التقرب له بغيره .

فى هذا الإنعام بالغنى والأمن على قريش رأس الرياسة الدينية بين العرب يقول تعالى فى أوائل سور القرآن :

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ »

(سورة قريش)

وعندما ظهر من بينهم النبى ليختاروا بين الشكر والجحود اختاروا بمشيئة الله ما هو خير . اختاروا الإسلام والشكر . فبقى لهم الغنى والأمن.. وزادوا من فضل الله سعة وبركة وسلطاناً وذكراً فى العالمين .

المناعة من الفتنة :

وكانت نعمة الله الخامسة وهى من أسباب ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية — مناعة العرب فى صحرائهم ، وفى أسلوب عيشهم من خطر الافتتان

بأفكار الأمم المتصارعة بأفكارها وغواياتها من حولهم . لقد كانوا فى مناعة بيئية ، ومناعة عقلية ونفسية من تسلل المجوسية والفارسية — إلا ما أصاب بعض أطراف الخليج العربى — أو من الوقوف ولو وقفة الفضول عند شىء من كلام اليونان وترهات فلاسفتهم ، أو من النزول إلى مستوى جدل المسيحية البيزنطية فى الأسواق والحمامات والمجامع المقدسة حول الناسوت واللاهوت . وحول الجبر أو الاختيار !

لقد كانوا وبخاصة فى تنزههم عن اللغو والخلط فى قضية (الطبيعة الإلهية) على وعى بتنزيه الله حتى مع الشرك عن الخوض فى الذات ، أو إسقاط الألوهية على البشرية ثم البحث فى الفصل أوعدم الفصل بينهما . ولذلك فإنهم عندما نزل القرآن الكريم رفعوا شركهم عن مستوى القضايا الجدلية التى غرقت فيها المسيحية فى عصر الجدل البيزنطى حول الطبيعة الواحدة والطبيعتين فقالوا فيما نقله عنهم القرآن الكريم قبل أن يؤمنوا :

« وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ » (الزخرف : ٥٨)

يعنون المسيح عليه السلام . الذى صار بعد موته هدفاً للبحث فى لاهوته أو ناسوته . مع الغفلة عما دعا إليه . وعما جاء من أجله . الأمر الذى صرف أكثر العرب عن النصرانية مع وداعة رهبانها . . كما صرفهم عن اليهودية !

لقد كان العرب فى مناعة من هذه التيارات الفكرية الجهلانية المتصارعة حولهم . والتى كانت تتظالم وتتسحق بها المجتمعات المستعمرة المحيطة بهم ، سواء فى قمم السلطة الكسروية والقيصرية ، أو فى حضيض الشعوب المطحونة الممزقة ، التى كانت تتململ فى عبوديتها بلا أمل ، وتتأوه فى جهالتها

بلاهدف ، تحت نير الجبابرة . وأهواء البطانة ، وطقوس الكهان ، ورموز الفلاسفة .

لقد كان العرب طوال عهودهم — فيما عدا بعض الأصنام التى تسربت من الشام . وبعض الموبقات التى نشرها اليهود من حصونهم فى خيبر وتيماء والمدينة — فى مناعة مما سموه حضارة الشرق والغرب ، فلم يقتحمهم التفلسف حول الجوهر والماهية . أو التنطع فى الدين حول الذات والمشيئة ، لتبقى فطرتهم مع إشراق البعثة نقية . ولغتهم حية ، لايشغلهم بها إلا ابناء الحياة ، وكسب المعروف ، وانتظار الموعد .

لقد كان العرب فى مناعة وعصمة من كل ما أحاط بهم من الشرور والأدواء والأهواء ليس فقط لأنهم كانوا أحراراً لايخضعون لظالم أو مستعمر ، بل لأن نعمة الله عليهم رفعتهم عن الحاجة إلى تقليد نقائص من حولهم ، وهم يقيسونها رغم الغنى الظاهرى بحجمها الحقيقى . كما أن هذه النعم التى تقوت بها واطمأنت حياة العرب قد احتجبت وراء الجدب والفقر وسلطان الطبيعة وحدها عن أعين الحضر الذين لم يجازفوا بالتسلل إلى الجزيرة العربية — إلا فى بعض الأطراف — ليخالطوا العرب ، ويتذوقوا حياتهم ، ويؤثروا ويتأثروا بهم .

بهذه المناعة الطبيعية والمختارة من العرب على علم ، عصمهم الله من الأوزار المجاورة لهم ، ليبقى طريقهم إلى الحق قريباً وواضحاً . وليكونوا — بعد تقبلهم الإسلام — هم الشهداء على من حولهم بأحكامه وفضائله . وليس بالعكس . أى أن يقعوا بغزو من حولهم لهم فريسة هوان الرأى ، وسوء

المنزلة عند الله ، والجرأة على المنكر ، والإطاحة بالمعروف . واستبدال اللسان الأعجمى بالبيان العربى !

لقد كانت الشهادة الصادقة هى فى حكمة الله وميزانه للعربية على العجمية ، وللهداية على الضلالة ، ولهؤلاء العرب الذين أقبل الزمان عليهم ليكونوا الأمة الوسط فى موقعها ، وفى زمانها ، وفى أخلاقها التى اعتدلت بها الدعوة إلى الله بعيداً عن استسلام المسيحية ورهبانيتها ، وأبعد عن خرافات اليهودية وعدوانها .

لقد كان لهم بكل هذه النعم التى أنعم الله بها عليهم هذا المنطلق الذى جعلهم فى جزيرتهم وباتجاه العالم المفتقر إليهم أسرع الأمم إلى قبول الحق ، وإلى الالتزام بالحق ، كما وصفهم بذلك ابن خلدون رغم كثرة شططه وذلك حيث يقول فى مقدمته :

(والعرب أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات ، وبراءتها من ذميم الأخلاق ، إلا ما كان من خلق التأبد القريب المعاناة ، المتهيء لقبول الخير) .

نعم . . لقد كان العرب . ولايزال فى الإمكان إلى اليوم أن يكونوا ، فى كل الأقطار التى عمروها ، كما شاء الله لهم . وكما كانت مشيئة الله لأفضل أسلافهم :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ »
(البقرة : ١٤٣)

السؤال الثانى :

واستدادا للسؤال السابق لماذا هاجر النبى صلى الله عليه وسلم — عندما اشتد ايذاء قريش له الى المدينة المنورة ، ولم يهاجر الى آى مكان آخر غير المدينة خارج الجزيرة العربية . أيد اجابتك بأدلة من القرآن الكريم .

الإجابة :

الإجابة عن هذا السؤال تعنى أن نجيب عن سؤال محدد ، ومكمل للسؤال الأول وهو (لماذا لم يظهر الإسلام فى الأرض المجاورة للجزيرة العربية ، مع ظاهر الغنى والقوة والقراءة والكتابة فيها ؟)

وفى الجواب نقول إنه كان من العسير ، بل من غير الممكن ،أن تحقق رسالة النبي نجاحاً مذكوراً فى مكان ما خارج الجزيرة العربية مثل القدس أو الإسكندرية أو دمشق ، فضلا عن أن تحقق انتصارها الخالد كما تحقق لها ذلك بين مكة والمدينة بمشيئة الله .

لقد كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم بعيداً عن أرض الحجاز ، وعن الهدف الأساسى فى إسلام قريش ، وفى تطهير المسجد الحرام ، وفى تقبل عرب الجزيرة جميعاً للدين الحق — لاتتفق وما أكده الواقع من أن المدينة كما اختارها الله هى أصلح المواقع فى دائرة الدعوة الأولى لتكون دار المهاجرين والأنصار ، ومقر أول دولة للإسلام والمسلمين يقيمها الرسول .



وأمام هذا الافتراض الذى لم يقع يمكن أن نكتشف العوائق التى كان من المحتم أن تجعل الانتصارات الباهرة التى حققتها رسالة النبى فى الجزيرة العربية بعيدة المنال .

قهر الأباطرة :

العائق الأول لانتشار رسالة الرسول الداعى إلى الإسلام كان النظام الإمبراطورى العبودى فى حكم كل من الفرس والروم للوطن العربى .

لقد جعل هؤلاء الأباطرة أعزة أهل مصر والشام والعراق (أذلة) وتسلطوا عليهم بالغلظة والجند والضرائب تسلط الأرباب والآلهة .

ولقد كان الرسول الكريم يفطن إلى هذا المعنى تماماً وهو يكتب إلى هرقل مشيراً فى رسالته إلى مظالم المتألهين من القياصرة والكهان على الشعوب كما جاء فى الآية القرآنية التى بعث بها إليه وهى قوله تعالى :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » (آل عمران : ٦٤)

ظنون الكهنة :

وكان العائق الثانى الذى وجد مناخه فى القهر الإمبراطورى قيام الكهانة من كل منطلق بدور التفلسف فى الدين واللاهوت ، وبذلك أصبح الكلام المستحيل فى حق الله علماً ، وأصبحت الظنون المعتمة مذاهب وأدياناً

تتدافع بالسفسطة والسيوف والمذابح كما حدث ذلك بأبشع صوره فى موقف أباطرة الرومان من الكنيسة المصرية ومن مسيحيى مصر .

ومنذ ظهرت المسيحية وحتى عهد النبى صلى الله عليه وسلم تصاعد الصراع الدموى حول القضايا اللاهوتية ، وأحاجى المهرطقين أو المناهضين للمهرطقين حتى شمل فى إطار السلطان الرومانى الجائر هذه الفترات للاضطهاد الدينى فى مصر والشام :

١ ــ فترة صراع الشعوب العربية مع أباطرة الرومان والوثنيين والتى تبدأ منذ اغتيال القديس مرقس فى الاسكندرية ٦٨ حتى ٣١٣ م .

٢ ــ فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة من وجهة نظر المذهب اليعقوبى من ٣١٣ حتى ٤٥١ م .

٣ ــ فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا روما من ٤٥١ حتى ٦٤١ م عام التحرير للشام ومصر بالإسلام .

لقد كان معنى هذا ببساطة أن قيمة الإنسان التى حاول المسيح أن يرفع من قدرها قد أهدرت تماماً . وأن الاستماع إلى كلمة الحق من رجل يقول إنه (رسول الله) كان حرياً أن يؤدى إلى الاستخفاف الشديد به ، إن لم يكن سبباً عادياً لإهدار دمه .

بحـــر العجمة :

وسواء أكانت العبودية وإهدار قيمة الإنسان وراء عجمة اللسان والعجز المتدهور عن الفهم والتعبير ، أو كان غرق تلك الشعوب فى بحر

العجمة هو الذى أفقدها الحرية وكرامة الإنسان ، فإننا أمام هذا الخلط المشوش خارج الجزيرة العربية بين السلطة والناس،وبين المعرفة والإيمان، وبين القول والعمل — لابد أن نتساءل وسط أخلاط اللغات الفارسية ، والرومية ، واللهجات العربية المصرية والشامية والعراقية كيف كان من الممكن أن يتكلم النبى الصادق الأمين — وحيداً — إلى هؤلاء فيفهموا عنه . أو يفهم عنهم . كيف كان من الممكن أن يفهموا ماذا يعنيه وجوده بينهم إذا قال لهم بلسان القرآن العربى المبين :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا »

(الأعراف : ١٥٨)

ثم بمن يبدأ الكلام . . أبالجبابرة المتألهين فوق العروش ؟ . أم بالمطحونين المهزومين بالمدن والقرى فى شحوب الجوع وعراء الخوف ! ؟ . فماذا يطيق هؤلاء أن يفعلوا إذا آمنوا . . هل يفرون رهبانية إلى الجبال . . أم يقاتلون الجبابرة الذين لم يكونوا يجسرون على رفع الأعين إلا إلى تراب أقدامهم ؟

وفى تلك الأرض المجاورة للجزيرة العربية كان ثمة مدن مثل الرقة ونصيبين وجنديسابور يفرز فيها علماء الفرس والروم واليهود والقساوسة طفح بركان الآلام فى مذاهب ألصقوا بها صفة (المعرفة الكلية) و(المعرفة النهائية) أو معرفة (التجلى) . بينما دارت كصفير الرياح أوصاف الهرطقة والتجديف تصف كل شىء وبأى شىء ! وبينما اعتصار الفقراء لا يتوقف

وذبح المؤمنين لاينتهى ، وحروب الجدل والسيف والكراهية لا يبدو لها آخر . . إلا أن تقوم القيامة . . أو تشرق على هذه المأساة المركبة المعقدة شمس الإسلام . . وهذا ماكان عندما أشرقت عليها هذه الشمس ، وعلى العالم ، من جزيرة العرب . . وبالمؤمنين العرب . . من أصحاب رسول الله !

العجز والقنوط :

انتهى الناس تحت هذه الحمم البركانية ، وقد تسممت عقولهم وهم لايأكلون إلا فتات الموائد من هذه الخبائص الشرقية اللزجة للمعرفة، أو للخروج من المعرفة — انتهوا إلى الاستسلام للهبوط والقنوط والعجز . لم يعد أحد قادراً على شيء . . الإمبراطور هو الذى يفعل مايشاء . . والدولة هى التى تقدر على ما يشاء الإمبراطور . . والآخرون يستطيعون فقط أن لايستطيعوا . . أن ينتظروا . . أن يموتوا إذا استطاعوا ! !

لقد كان هذا العجز المطلق للناس لقابلية الشعب المقهور على حمل أعباء الإرادة والتغيير . . هو العائق الرابع . فليس أحد من هؤلاء الناس فى المدن والقرى والحقول بقادر على أن يفعل شيئاً ما لنفسه . . أو لغيره من أجل نفسه . . إلا العزاء . . والهراء . . فالحرب دائرة عليهم ، والحرب يقوم بها المأجورون ، المقيدون بالسلاسل حتى لايفروا .. أى حتى لا يفر الروم من الفرس . . ولا يفر الفرس من الروم . . لتبقى هذه السلاسل أبدية فى أقدام الشعوب المقهورة . . على أرض الوطن العربى . . حتى يجيء التحرير . . كما جاء بالإسلام من الجزيرة .

فكيف كان من الممكن أن تكون هجرة رسول الله إلى هؤلاء الذين عجزوا عن نصرة أنفسهم . لينصروا الله ورسوله ! ؟

بمن كان ينتصر الدين بعد نصرة الأنصار الذين آسوا بأنفسهم ، فقاتلوا فى المدينة حول رسول الله ودعوته جهاداً لا إحترافاً . . وردعاً للمشركين لا عدواناً ؟

بمن خارج الجزيرة العربية كان ينتصر رسول الله فى هجرته وقد كان الإيمان بين أهل الأمصار المضطهدين لغزا ، وكان العلم كهنوتاً ، وكانت المسئولية وهماً ، وحيث لايوجد فرد بين هؤلاء الأرقاء الأشقياء يستطيع أن يقول لشيء يسمعه (أنا أعقله . . فأنا أؤمن به .. وأنا أعمل به) بل وجد من يقول مثل القديس أوغسطينوس فى القرن الخامس وهو يباهى بقوله (أنا لا أعقله . . لذلك فأنا أومن به) ! !

لا بشرى لهم :

أمام هذه العوائق كلها .. وبعد هذه العوائق كلها لم يكن لهؤلاء الغرقى فى بحر التظالم والعجمة — بعد المسيح — وعد برسالة ، أو بشارة برسول . فكيف كان من الممكن أن يفتحوا أعينهم فى نور لم يتوقعوه، أو يستبشروا برسول ما دار بخيالهم أن ينتظروه .. هو محمد صلى الله عليه وسلم !

لقد كان الوعد هو لأمة من أبناء إسماعيل فى إقبال الوعد لتنتظر حول بيت الله .. أمة يخرج إليها ليزكيها رسول منها ، ويتنزل عليها كتاب من الله بلسانها .

لقد كان وعد الله لقريش ومن حولها إلى أقصى ما يمتد اللسان العربى الذى يعقل القرآن ، ويستجيب لدعوة الإيمان . ولقد كان هذا الوعد منذ إبراهيم وإسماعيل تيارا تنقله الرواية الصادقة بين الأجيال ، حتى جاء القرآن الكريم مصدقا لما انتظروه . ومحققا لما عاشوا من أجله ، إذ يقول ويكرر عليهم .

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ » (البقرة : ١٢٩)

ويقول :

« مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ »

(الحج : ٧٨)

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » (الزخرف :٤٤)

أليس لهذه العوائق كلها ، ومع الحدود الطبيعية للغة العربية المبينة ، لم يكن من الممكن — فى حكمة الله التى لا تكسر سنن الله — أن يتجاوز النبى فى هجرته أرض الجزيرة إلى مكان آخر وراءها ، بينما تحددت الرسالة فى مرحلتها الأولى بحدود لغة القرآن الكريم فى لسان قومه ، وذلك حيث يقول الله تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »

(إبراهيم : ٤)

السؤال الثالث :

ما هى مجموعة الخصائص التى اعـد الله بهـا العرب فى جزيرتهم لتقبل رسالته الكبرى والخاتمة للعالمين ، فى أسرع وقت، وباتم كمال بشرى ، كما تثبت ذلك وقائع التاريخ المذكورة ٠ وهل تتوافر هذه الخصائص فى اى مكان آخر فى العالم ؟ ٠ أيد أقوالك بآيات من القرآن الكريم ، ووضح كيف أن تقدم وتوحد العالم الاسلامى المعاصر على أساس الاسلام وشريعة القرآن لا يمكن ان يتم الا نتيجة قيام أمة عربية موحدة أولا ، على أساس من هذه الخصائص نفسها بحيث تكون هذه الأمة باصالتها وايمانها هى المعلم والأسـوة لوعى الاسـلام الحق عقيدة وسلوكا وغاية فى العالم المعاصر ؟

الإجابة :

بالإجابة عن السؤالين السابقين فى حدود المتاح فى هذا الكتاب تصبح الإجابة ميسرة عن أجزاء السؤال على الوجه الآتى :

الخصائص العربية :

كما أشرنا قبل فإن الخصائص الأساسية التى أعد الله بها العرب فى جزيرتهم لتقبل الإسلام ، كما أعد كل أمة سواهم لرسالتها . تبدأ بالحركة التى فرضها البداء والجدب ، ثم بالحرية التى تثمرها الحركة ، ثم باللغة العلمية المبينة التى كانت ثمرة الاتصال المباشر

من خلال الرحلة الدائمة فى جميع الظروف بهذه الطبيعة التى ينطق اتساقها بما يحركها من سنن الله ، وتعبر ظواهرها بهذا الاتساق المأمور عن وحدانية الله ، وعن حكمة الله ورحمة الله ، وعلم الله ..

وباللغة استبان الدين باستبانة القصد فى الأشياء والأحياء ، والحدود بين الأشياء والأحياء ، وبوضوح سلطان العقل والقلب فى التعرف على (المعروف) وطلبه والأخذ به ، وفى التجافى عن (المنكر) واستنكاره والتناهى عنه ، وهم يتعرفون على المعروف ويذكرون الله به حول بيت الله ، ويتسابقون إلى طاعته ، والتنادى به ، ليكون فى مألوف عيشهم الدنيوى حتى ينزل إليهم الدين فيستكملوا به العرف والأخلاق ، ويستجمعون به الألفة ووحدة الشمل .

بهذا الدين فى عمل المعروف وبما بقى لهم من دين إبراهيم تحقق لهم الأمن بما هم فيه ، والمناعة عن الفتنة بما فيه غيرهم من القوى والإمبراطوريات المحيطة بهم . لقد كانت هذه المناعة مستقرة فيهم على ثقتهم بأنفسهم ، ودينهم ، ولغتهم ، وبأنهم أهل الرأى والمساواة والحرية الذين لا يقبلون الدنية فى العيش ، ولا يعانون الشك فى الدين .

هذه الخصائص التى أثمرها كفاح صادق طويل على أرض متسعة ، مخوفة ، جدباء ، غنية بجمال الخلق الأول ، عزيزة بغير القلاع والحصون رحيمة مع فرط القسوة .. هذه الخصائص كانت هى المنابع العذبة لهذه الأخلاق الشريفة التى اشتهر بها العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام ،

وهى الشجاعة والكرم ، والصدق والوفاء ، والنجدة ، وحفظ الجوار .
أخلاق كانت وحدها ثروتهم التى تماسكوا بها داخل تنظيمهم القبلى الأبوى ، الذى يتألف بدوره من آلاف الأسر شديدة الارتباط بأنسابها فى وجه كل الأعاصير ، شديدة التجانس كخلايا الجسم الواحد مع تشابه ظروف التكوين .

ومع هذا النظام القبلى الذى لم يهدمه الإسلام وإنما وحّد مساره ليكون القاعدة الصلبة لبناء الأمة ، نبع معين المساواة ، ومن ظروف المواجهة المباشرة والصعبة لتقلبات الطبيعة أصبحت القيادة للأكرم خلقا ، والأكثر بذلا ، والأقدر قدرة فى مجالات الحياة المتعددة بشرط أول هو الإيثار على النفس لجميع من يلى أمرهم باختيارهم له والقادرين دائما على محاسبته وتقويمه وعزله ، إذا لم يكن ما يقتضى الحق والمعروف أن يكون .

بهذا الاختيار اليومى للكفاءات ، والتربية المستمرة للقيادات ، والتعلم الدائب على ساحة المواجهة للمخاطر ، مع مقتضيات صدق التعبير ، وأمانة القصد ، ويقظة الحس ، وتجاوز الفضول نمت واكتملت قيمة الإنسان عند العربى حتى بلغت حدها الأقصى فى (حقوق الإنسان) التى نزل بها القرآن الكريم ، وأصبحت الحرية عطاء وبذلا ، لا تسلطا وابتزازا ، أصبحت الحرية هى حرية الخير والفضل والمروءة والإيثار لا حرية الشر والأثرة والعصيان والفسوق !

بهذا الاختبار اليومى لقدرات الإنسان الصادق فى كفاحه ، والصادق مع نفسه ، أصبحت المساواة دينا ، والحرية التزاما ، والحكمة مأثورا ، والقول عملا واستعد الناس من أبناء تلك القبائل المتسابقة على المعروف ، والمتنازعة على السيادة ، ليأتلفوا بمشيئة الله فى أعظم مثال على دين الله الحق ، بغير شوائب ، وبغير شرك ، وليحملوا بالحق والنور والأسوة والكتاب رايات الإسلام إلى أقصى طاقتهم من المكان والزمان . حيث أمام هذه الروايات تتساقط دائما كسف الظلام . فى مشرق النور بالكلمة ، والعقل ، والإيمان ، وقيمة الإنسان .

جهاد القرآن :

بهذه الخصائص التى نقلها نزول القرآن الكريم كله فى جزيرة العرب من الخصوص إلى العموم ، وهو يصلها فى إطار دعوة ونظام ، وشريعة وحكم . انطلق أصحاب الرسول من بعده فى مد الإسلام المنتصر فى حركته الواسعة المقدرة للتحرير والتغيير والتقدير ، فكان الجهاد حول القرآن ، والجهاد بالقرآن ، طريق الغرس والاستثمار لهذه الخصائص العربية التى قامت بها حركة التعريب الواسعة فى اللغة والأخلاق ، وفى منهج الحياة والتفكير ، وفى الحفاظ على الشريعة والدين ، مما حفظ حياة اللغة العربية رغم ضراوة أعدائها الأولين والمعاصرين ، كما حفظ أمل العرب الذى لا يتبدل ، وعملهم الذى لا يتوقف من أجل استكمال عروبتهم وإسلامهم باللغة والقرآن .

والقرآن الذى حفظ للأمة العربية فى جهاده فيها — مراحل تاريخها

لتتذكر كلما نسيت ، ولتسترشد كلما غفلت قد ربط الأمة العربية من الخليج إلى المحيط بمركز انطلاقها بالدين ومركز نقاء لغتها وعروبتها وهو المسجد الحرام .. فهو مركز التوجه بالقلب والفكر والذكر فى صلاة كل يوم .

« وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » (البقرة : ١٤٤)

وهو مركز الرحلة للقبلة ، أو الرؤية لأرض الدعوة ومنبع تاريخ الدين ، بالحج والتلبية لله لمن استطاع إليه سبيلا :

« وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ » (آل عمران : ٩٧)

وهكذا يفعل القرآن فى تعريب العرب ، وتعريب المسلمين من جميع الشعوب ، ليكتسبوا بجهاده فيهم ، وعمله لتطهيرهم . ما استطاعوا من هذه الخصائص العربية نفسها ، التى لا يقوم بغيرها الدين الحق ، ولا يخلص إلا بها قلب المؤمن ووجهه ولسانه وعمله فى سبيل الله .

وحدة العرب :

ونعود إلى الحديث عن الأمل فى توحد العالم الإسلامى المعاصر فنؤكد فى ضوء حكمة الله فى نشأة الأمة العربية فى الصميم من قلب العالم القديم ، والعالم الحديث ، أن قوة العالم الإسلامى بمفهوم التكافل أو الاتحاد لا تتم كما حدث قبل — إلا ثمرة لقيام أمة عربية واحدة مؤمنة ، قوية ، غنية ، متقدمة فى طليعة عصرها .. أمة مستنيرة بالقرآن ، غير

منقسمة فى فهم الإسلام ، ولا متباينة فى منهج الحياة به ، والعمل بشريعته .

إن هذه الأمة التى يمكن أن تعود شامخة كما كانت لتفيض بعلومها وحضارتها فى كل ما حولها ، هى بوحدتها وقوتها المصدر الأول لقوة وتضامن العالم الإسلامى ، وهى الأساس المتين لقيام الأمة المرشدة بإيمانها وأصالتها لنشر الوعى بالإسلام الحق عقيدة وسلوكا وهدفا فى العالم المعاصر .

إن هدف قيام الأمة العربية الواحدة ضرورة حيوية لجميع الشعوب العربية التى يحمل أبناؤها بعهد الله ووصايا النبى ، ولغة القرآن ، أمانة الحفاظ على وجودهم ووحدتهم بالإسلام والقرآن ، على هذه الأرض التى هى وسط العالم مهد ظهور الدين ، ووطن تاريخه ، وأفق استمراره ، وحصنه الأخير .

وهذه الضرورة الحيوية لوحدة العرب بالإسلام والقرآن هى فى نفس الوقت ضرورة حيوية للأوطان والقوميات الإسلامية الأخرى ، ولا يمكن أن نتصور إلا فى حالة سوء النية عند الشعوبية والصهيونية والاستعمار أن يوجد شعب مسلم غير عربى يرفض ، أو يعارض ، أو يطالب بتأجيل قيام وحدة الأمة العربية على الأساس الذى اتحدت به فى مشرق الإسلام وحضارته العربية التى لم تقم إلا على السلام والعدل ، وعلى الإخاء والعلم .

إن تطبيق مبدأ الأخوة الإسلامية ينبغي ألا يكون حراما على العرب وحلالا فقط لغير العرب ، بينما العرب هم أول من طبقوه داخل الجزيرة العربية على عهد الرسول الكريم ، وأول من طبقوه خارج الجزيرة العربية بالنسبة للشعوب العربية التي حررها واتحدوا بها فى مصر والشام والعراق على عهد الخلفاء الراشدين . كما كانوا هم أول من طبقوا مبدأ الأخوة الإسلامية مع الشعوب غير العربية التي حكموها بعد الفتح ، ونتيجة للفتح ، والتي لم يحاربوها عندما خرجوا بالإسلام إلا ردا على عدوان أكاسرتها وقياصرتها ، وتأمينا لسلام الوطن العربي وسلام أهله بعد تحرره ضد محاولات الغارة عليه لاستعباده من جديد ، كما حدث بعد انتصار الإسلام بالغارات البيزنطية ، ثم المغولية ، والسلجوقية ثم الصليبية الاستعمارية ، ثم أخيرا فى هذا العصر . بهذه الهجمة الصهيونية الحاقدة التي لم تنكسر موجتها بعد !

لقد كان العرب أول من ألف الإسلام بين قلوبهم بأخوة الإسلام محققين بذلك قول الله فى تعارف شعوبهم العدنانية والقحطانية وقبائلهم الشمالية والجنوبية بالإسلام .

« وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » (الحجرات : ١٣)

فليس المقصود من ذلك ما افتعلته الشعوبية من معنى كلمة الشعوب وأن المقصود بها شعوب العجم . ذلك أن كلمة شعب كما كانت وقت

نزول القرآن هى فى مفهوم العرب تعنى الأب والأكبر لمجموعة من القبائل مثل شعب كنانة فى القبائل العدنانية ، وشعب الأزد فى القبائل القحطانية ، كما أن معنى شعب بالمعنى الذى أرادته الشعوبية دلالة على شعوب العجم لم يقع بهذا الاصطلاح إلا فى العصور المتأخرة، وكثمرة لحضارة العربية الإسلامية ، وكما أن (التعارف) نفسه لم يقع بمفهوم القرآن الكريم على أساس التقوى إلا بين شعوب الجزيرة العربية وقبائلها عندما تم الإيمان لأهل الجزيرة بتمام نزول القرآن ، وحيث أعلن القرآن هذه الحقيقة التاريخية الفريدة بقوله تعالى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (المائدة : ٣)

وحيث أكدها بقوله تعالى :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا » (النصر : ١،٢)

وعندما فسر القرآن أسباب هذا التعارف على الإيمان بقوله تعالى :

« وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » (الأنفال : ٦٣)

فأين كانت الشعوب الأعجمية التى افتعلت الشعوبية من أجلها هذا المعنى عندما نزلت هذه الآيات ، وكيف يمكن أن يكون التعارف

بهذا الفهم الشعوبى للآية الكريمة حكما عاما على إمكان التعارف على التقوى بين كل شعوب العالم مع كل قبائل العرب ؟ . الأمر الذى لم يقع مطلقا ، ولا يمكن فى حكم الله وحكمته أن يقع وهو القائل سبحانه فى قانون حكمة الخلاف بين البشر .

« وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ • إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ »(هود : ١١٨ ، ١١٩)

وهل يمكن أن يكون برهان ما على قانون الخلاف بين شعوب العالم أقوى وأظهر من ظهور (الشعوبية) نفسها ، ومن اندفاعها وراء مخططها السياسى والتخريبى ضد العرب ، وضد الإسلام ، دون ملل ، وبحقد متضاعف ، وبتغير مستمر للمخادعات والمفتريات والحيل وراء هدفها الذى تعبده كعبادة النار ! !

وهكذا بالتعارف الذى أراده الله على التقوى بين شعوب العرب وقبائلها خرج العرب المؤمنون إلى أرض الأمصار فعاملوا من أسلموا باختيارهم بمبدأ الأخوة الإسلامية كما نص القرآن على ذلك بالنسبة لمن عرفوا آباءهم أو لم يعرفوهم (عربا وعجما) فأشركوهم فى جميع الأعمال ، ولم يثقلوا عليهم بالتكاليف ، وأفسحوا لهم فى المساجد ليتعلموا اللغة ويحفظوا القرآن ، ويتفقهوا فى الدين ، ويكون منهم العلماء والمجتهدون وأهل الفتوى .. لقد كان العرب بطواعية التقوى ، وصدق الإيمان ، أول من تعامل مع (الشعوب الأخرى) بمبدأ القرآن الثابت فى قوله تعالى :

« إنَّما الْمُؤْمِنُون إخْوَةٌ » (الحجرات : ١٠)

وقوله تعالى :

« فإن لَّمْ تعْلمُوا آبَاءهُمْ فإخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » (الأحزاب : ٥)

والمولى هنا ليس الرقيق وإنما النصير والصديق .

وهكذا يبقى مفهوم الوحدة العربية ، والقومية العربية ، أملا أكده القرآن الكريم ، وقامت عليه الدولة المثال على عهد الخلفاء الراشدين ، رغم العقبات التى تلقيها الشعوبية والصهيونية والاستعمارية على طريقه .. إنه يبقى ويتألق وبخاصة فى هذا العصر ، على طريقنا المفتوح إلى القدس ، الطريق الذى يفتحه الله لنا بالتحدى الإسرائيلى ليتجمع عليه بالعلم والإيمان كل العرب . حتى لا يكونوا (الضحية البشرية) التى تريد اليهودية الصهيونية أن تعصب أعينها بالأوهام . وأن تهدر قوتها بالفرقة ، وأن تستنزف دمها وهو يتساقط فى حلق إسرائيل الجشع قطرة قطرة . حتى تخمد . وتتلاشى . كما يصف لهم التلمود !

فمن لهذا العدو الشرس إلا وحدة العرب . ومن لهذا الهدف العظيم بتحرير القدس . . مقر المسجد الأقصى . ومسرى الرسول . . إلا وحدة العرب . . ومن لانتزاع شعب فلسطين من فم الأفعى الصهيونية وهى تكاد تنتهى من ابتلاعه باللعق البطىء . . إلا وحدة العرب !؟

ولكن بعض الجاهلين للحقائق ، أو المخدرين بالحقن الشعوبى ، والشيوعى ، والصهيونى . والاستعمارى قد لا يزالون يتساءلون عن مقومات هذه الوحدة العربية . . وينسون أن الإيمان الذى جمع الشعوب العربية على الحق العربى فى وجه الباطل الإسرائيلى هو هذه الوحدة العربية .

ينسون أن الإيمان الذى صنع معارك العبور فى رمضان . . وحرب النفط . ومقاطعة إسرائيل .. والتعاون العربى المستمر لمساندة دول المواجهة للعدو هو القومية العربية .

ينسون أن المشروعات الإعمارية والإنتاجية الكبيرة التى توضع الآن ، وتنفذ الآن ، بمال عربى على أرض مصر ، وبخبرة مصرية على أرض العرب . . وبتعزيز مناهج التربية الدينية . . وخطط توحيد المناهج التعليمية والمعاهد الموحدة . والقوانين المستمدة من الشريعة . والتطوير الصناعى والزراعى والمنهج الحضارى العربى . . كل ذلك وأكثر منه فى اتجاهه هو القومية العربية .

بل نقول . . إن هذه الدموع الصادقة التى ذرفها جميع العرب على الأرض العربية فى لحظات واحدة . . وبمشاعر وخواطر وأمام مخاطر واحدة . . على الملك العربى الراحل ، المؤمن الشجاع فيصل بن عبد العزيز . . كان ظاهرة للقومية العربية . .

لقد بكى جميع العرب فيصل بن عبد العزيز . . لأنه وضع قضية العدوان الإسرائيلى على العرب فى إطارها الصحيح وهو تحرير القدس . .

إشارة للمفهوم الدال على ضرورة وحدة العرب أمام من يفتحون الطريق بعدوانهم على القدس للعدوان المتوقع على مدينة الرسول . . والمسجد الحرام . . قبلة الإسلام . . ومركز الحرية والحياة والقوة وللاستمرار للأمة العربية قاعدة الإسلام ، والحصن والمنار والسند القوى لجميع المسلمين .

لا شك أن الأمة العربية التى تمزقت كثيراً ولم تمت ، وضَلّت كثيراً ولم تبتعد ، وعانت كثيراً من أعدائها ولم تقنط — قادرة فى هذا العصر من مصدر وجودها بالقرآن ، ومن مستودع خصائصها فى القرآن . . أن تحقق وحدتها وهى تسترجع بإيمانها وأصالتها وعى الإسلام الحق ، عقيدة وسلوكاً وهدفاً فى العالم المعاصر .

إنها قادرة بمشيئة الله أن تحقق ذلك بقدر ما تدرك أن أكبر عقباتها إلى هذا الهدف العظيم لا تزال مبثوثة على كل الطرق بأيدى الشعوبية ، وأصواتهم ، وأقلامهم فى أجزاء كثيرة من الوطن العربى . هذه الشعوبية التى زاد وعى العرب بأخطارها فى العصر الحديث ، والتى يلخص وصفها العالم السورى المحقق الأخ جلال السيد فيقول عنها فى أحدث كتبه (الأمة العربية ومشكلاتها) .

(الشعوبية مذهب سياسى واجتماعى يقرر أن الشعوب متساوون فى الفضل ، وأن ليس للعرب تميز على غيرهم من الأقوام . وقد تطور هذا المذهب من هذه الصورة المبسطة حتى بلغ مداه الذى وضع من

أجله وهو احتقار العرب وإنكار فضلهم ، والعمل على تشويه سمعتهم ، وتحطيم قوميتهم . ودولتهم . .

(ويرجع تاريخ هذا المذهب إلى أول قيام الدولة العربية . . وهو فى حقيقته ليس مذهباً معترفاً به ولكنه نزعة سياسية واجتماعية تولدت من الأحقاد الدفينة التى تراكمت فى نفوس الأعاجم منذ أزال العرب دولهم عن الأرض العربية فى الفتوح الأولى . وليس فى تاريخ النزعات البشرية مثل نزعة الشعوبية ، وأنها لبست كل لبوس ، وتزيت بكل زى ، وحاولت أن تدخل فى كل مرفق من مرافق الحياة العربية واستعملت كل وسائل العلم والدين والمنطق من أجل تحقيق الغاية المطلوبة وهى ضرب الإسلام من الداخل سراً ما داموا لا يستطيعون ضربه من الخارج علانية) انتهى .

إن فتح الأعين على التحرك الشعوبى ، وإبطال سحره ، ونزع أقنعته ، وكشف أكاذيبه هو الكفيل مع الخطى التى وضعنا بها الأقدام على طريق القوة والوحدة — بأن يسرع بأسماع هذه الأمة العربية ، وبقلبها ووعيها ، وبسلوكها وعملها — لتستجيب لهذا النداء الذى سمعه أسلافها بالقرآن . . ولا يزال موجهاً إليها قبل غيرها من أمم الأرض فى القرآن ، وفى المصاحف التى تضاعف من طباعتها ونشرها . . وفى التلاوة من إذاعتها وتعميمها . . وذلك حيث يقول الله تعالى :

« فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ »
(الانشقاق : ٢٠ ، ٢١)

نعم . . فمن غيرنا الآن فى هذا العصر ليؤمن بما فى القرآن . . ويسجد لتلاوة القرآن . . . ويعمل بكل ما فى القرآن ! ؟

* * *

السؤال الرابع :

هل يمكن بتحليل قصص القرآن الكريم عن دعوات الرسل — من حيث العوامل المشتركة بينها — الكشف عن هـذا القانون الواحد الذى يحكم بمشيئة الله مسارها ونتائجها ؟

الإجـابة :

الذين يقرأون القرآن بسلامة القلب ، ولسان الذكر ، وعين الاعتبار ، يتبينون فى التفسير القرآنى للتاريخ هذا القانون الواحد الذى حكم مسار الدعوات الدينية والإلهية فى جميع أرجاء الوطن العربى ومواقف الرسل والشعوب فى مجرى هذه الدعوات فيما صارت إليه ردود أفعالها على الدعوة ، وما انتهى إليه أمرها بعد الدعوة ، خلال ألوف السنين التى اتسع لها التاريخ الدينى الكامل على الأرض العربية حتّى الرسالة الخاتمة المنتصرة ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، ونزول القرآن الكريم .

هذا القانون الذى حكم الرسالات الإلهية ورسلها وشعوبها ، بما يؤكد وحدة المصدر الإلهى ، وصحة المنهج الدينى ، جرى سريانه فى سنن الله التى لا تتبدل على نوعين من الشعوب القابلة لهذه الرسالات خلال كل التاريخ الدينى : الأول منها هذه الشعوب التى تعيش على مفترق الطرق بين الحضارة والبداوة ، كاملة الحرية والنعمة والوسائل لتقبل العودة والإنابة إلى الله بعد أن دخل إليها الشرك فى غفلات الغنى ، وأصابها

انحراف النهج ، وسقطت فى واحدة أو أكثر من الخطايا الخلقية والاجتماعية. مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم شعيب وقوم لوط .

والنوع الآخر هذه الجماعات الصغيرة التى عاشت مفتونة بنفسها وبمن حولها فى قلب الحضارة فى عصور غلبة القهر ، وحكم الأباطرة المؤلهين . . هذه الجماعات كانت بسبب تدينها . وانتمائها للدين إلهى تستنصر الله وقت شدتها ، وتدعوه لترجع إليه، وليرسل إليها رسولا حتى تقوى به على ما يحيط بها من خارجها ، وما يزلزل بناءها من داخلها . . وهؤلاء مثل بنى إسرائيل قبل الشتات .

من النقمة للعذاب :

النوع الأول من الأقوام الذين أشركوا بالله الواحد الحق بعد أن وسعتهم أنعم الله يتفقون جميعاً فى الظواهر الآتية :

١ ــ أن الله الذى عبدوه من قبل أظهر نعمته عليهم .. فلما تزايدت النعم وتباركت بطروا فغفلوا . . فأشركوا . . فاخطأوا . . فأرسل إليهم رسولا منهم ينذرهم ليرجعوا إلى الله وينيبوا . .

كان ذلك شأن قوم نوح . وشأن عاد التى يقول الله فى شأن نعمته عليها :

« أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ

وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .
(الأعراف : ٦٩)

ويقول فى نقمته على ثمود :

« أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ » (الشعراء : ١٤٦ – ١٥٠)

٢ – كان لكل شعب من هذه الشعوب وأكثرها داخل الجزيرة العربية خطيئة كبرى مميزة ، وهى دلالة الجحود الذى أدى إلى الغفلة والشرك فأدى ذلك إلى كبرياء القلوب وكبائر الذنوب .

اشتهر قوم نوح بالإصرار والاستكبار مع طول فترات الدعوة ، يقول الله عنهم على لسان نوح :

« وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » (نوح : ٧)

واشتهرت عاد بالتجبر والبطش . . يقول الله فيهم :

« وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » (الشعراء : ١٣٠)

واشتهر قوم شعيب بالجشع فى التجارة وإخسار الميزان . . يقول الله فيهم :

« وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ » (هود : ٨٤)

٣ ـ لم تكن هذه الشعوب التى أنعم الله عليها ، واستخلفها فى الأرض بإيمانها فى حاجة عند تذكيرها إلى آية حسية يلمسون بها قدرة الله ، ويتذكرون بها واسع رحمته وشدة غضبه . . فكان حديث رسلهم إليهم ، وهم إخوتهم وأهلهم ، قائماً على البيان والحجة ، والبشير والنذير . . ليعبدوا الله وحده مرة أخرى . . وليتقوا الله ويطيعوا الرسول .

فما يقوله صالح لقومه :

« يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ » (هود : ٦٣)

ويقول شعيب لقومه :

« يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ » (هود : ٨٨)

٤ ـ بعد الرجاء والنذير من النبى والمجادلة والمماطلة من المستكبرين المكذبين يقع غضب الله الذى أنذرهم به . . الغضب الماحق لهم . . غضب الاستئصال والإبادة ليصبحوا لمن بعدهم مثلا ، وساء مثل المنذرين .

يقول الله فى عاد وثمود :

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٭ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٭ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ » (الحاقة : ٤ – ٦)

ويقول عن هذه الأقوام التى بادت بالمعصية والعذاب :

« فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِّنْ بَعْدِهِمْ » (القصص : ٥٨)

من المعصية للشتات :

وأما جماعات بنى إسرائيل الذين زعموا أنهم يحملون وصايا الآباء العظام فى أرض الحضارة الباذخة ، والأحكام الجائرة ، فقد جمعوا – إلا القليل منهم – بين التظاهر بالتورع وحمل الأسفار وبين الإغارة الدائبة كالوباء على ما بأيدى جيرانهم . فإذا ما وقع عليهم الرجز والروع صرخوا ينادون الرب . . الذى كثيراً ما خلطوه بآلهة غيرهم . . ونسبوا إليه كل ما يتنزه عنه رب إبراهيم وموسى .

لقد كان نداء هذه الجماعات المنفصمة عن ربها ، وعمن حولها ، وعن نفسها . جديراً فى كثير من ساعات عسرتهم ، وجهالتهم ، ومهانتهم أن يسمعه الله الرحمن الرحيم . . وهو يملى لهم فى أسباب التوبة و (المراجعة) والإنابة . . . حتى إذا ما بلغوا الغاية من غلظة القلوب ، واستحكام الجهل ، واستمراء العدوان – بعد أن نابذوا المسيح ، وآذوه . واستخفوا به ، وهموا بقتله – ضربهم الله ضربة الشتات التى تجعلهم حتى آخر

الدهر تلخيصا لعبرة الله فى كل من سبقهم من الشعوب العاصية . . تلخيصا حياً بأوزاره . . ومتاهاته . . وأكاذيبه . . والضربات التى تتلاحق على رأسه . . تلخيصا لشعب يطلب الشتات وهو يصرخ منه . . ويتمزق بالحروب وهو لا يقدر عليها . . ويدعى خدمة البشرية وهو يقرض فى حبال حياتها . . وذلك منذ تلقوا على رءوسهم المهشمة . وبظهورهم المقوسة ضربات الإمبراطور الرومانى هادريان سنة ١٣٥ م . . وحتى اليوم الذى عاد فيه هؤلاء (العبرة) من حملة الأوزار والأسفار . . يحاولون أن يلفقوا من أخلاط الخزر والقوزاق والبولنديين والأمريكان وغيرهم مسخاً همجياً ممسوسا عميلا يمثل على مسرح الاستعمار دوراً مكذوباً مأجوراً مهلهلا ينسبه إلى (إسرائيل) !!

هذه الجماعات العاصية كانت منذ يعقوب (إسرائيل » . . وموسى . . وحتى المسيح . . تجد النعمة من الله ثم تجحدها . . ثم تعود فتصرخ من أجلها وتطلبها . ثم تعود فتخون الله ، وتحرف الكتب ، وتجدف بالرسل ، وتسرق البشر ! . . وكان موقفها من جميع الرسل إلهها هو العصيان . . والاتهام . . والتمرد . . وأحيانا القتل . . يقول الله فى هذا :

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ » (المائدة : ٧٠)

ويقضى الله عليهم بغضبه الأبدى ، وعبرتهم الدائرة بالتيه والمسخ والعذاب :

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » (الأعراف : ١٦٧)

لقد كانت قصة بنى إسرائيل فى قانون الدعوة هى قصة المستضعفين الطويلة ، فى أرض الجبابرة . . قصة ملأ الله حياتهم فيها بآيات الرحمة ، ونداءات النبوة ، وطرق الإنابة فأبوا على هوانهم بين الشعوب إلا الغطرسة ، والتطاول ، وتصعير الخدود ، والتعامى عن أحكام الله . . فضربهم الله . . وجعلهم مثالا لشعب تفرد بالعبرة فى غضب الله عليه . . كما تفرد من قبل بنعمته . . فهو الشعب الميت الحى . . والحى الميت . . الذى يسرق كل الشعوب ، ويكره كل الشعوب ، ويمد يده لكل الشعوب . . وكلما أخرج يده ليخرج مما هو فيه لم يكد يراها وعاد بالبغى والرجس والغضب الأبدى فسقط فيما كان فيه . . وتبقى العبرة دائماً . . ويبقى الشعب المسخ إلى يوم القيامة ! .

الاستجابة والنصر :

ومن بين هذه الرسالات كلها استجاب الله لشعب صغير فى أرض الحضارة التى عاش فيها بنو إسرائيل هو شعب يونس الذى أخلص الاستجابة لله فى دعوة رسول الله ، فى مدينة نينوى قرب الموصل على نهر دجلة وذلك حيث يقول الله :

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » (يونس : ٩٨)

ثم شعب الرسالة الخاتمة .. الشعب الكبير .. الشعب الذى استجاب وحده بين الشعوب التى أتم الله عليها النعمة وطالبهم بالشكر بعد إذ أعدهم للإيمان به . . الشعب الأسوة من أبناء إسماعيل الذى تجاوز بفضل الله ورحمته مصير قوم نوح وعاد وثمود . . لكى يكمل الله له الدين . . ويتم عليه النعمة . . ليكون ذلك فى نفس الوقت هو الختام المشرق لتاريخ الدعوات ، والشاهد الحى على منهج الدين ، والمثال القابل للتجدد فى أجياله . . وفى كل أرجاء الأرض .

لقد خرجت هذه الأمة البارة الواعدة ، والموعودة لتكون كما شاء الله

« خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » (آل عمران : ١١٠)

وليكون المؤمنون من أبنائها من أصحاب الرسول ، وحفظة الكتاب

« شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » (الحج : ٧٨)

وليحققوا قول الله للنبى إنه إنما بعثه :

« رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » (الأنبياء : ١٠٧)

واليوم . . وهؤلاء آباؤنا فيما أحياهم الله به ، وما هداهم الله إليه . . وقد صار ميراث النبوة إلينا من بعدهم . . صار فينا القرآن والسنة .

والقول والعمل . . والبيان والبرهان . . اليوم . . كما هو فى حكم الله الله وسننه . . يصير إلينا الخيار فى أى المصائر التى انتهت إليها الأمم السابقة :

• هل هى الأمم التى جحدت أنعم الله . . فأبادها .

• أم هى الجماعات التى فصلت فى سلوكها بين الإيمان والعمل . . بين الدين والأخلاق بعد نعمة الله عليها ورسله إليها . . فقضى عليها بمن يسومها إلى يوم القيامة سوء العذاب . . مثل جماعات بنى إسرائيل .

• أم هم الذين هدى الله فشكروه على النعمة . . واستجابوا لمـــا يحييهم من هداية كتابه ، وأسوة رسوله ، فبارك لهم النعمة ، وشد منهم الأزر ، وألف بين قلوبهم ، ونصرهم على جميع أعدائهم . . وهؤلاء هم آباؤنا . . قوم محمد . . المسلمون المؤمنون حقاً . . الذين نعيش فوق أرضهم ، ونتكلم بلسانهم . . وندين بدينهم . . ونستمسك بعروة الله الوثقى من بعدهم .

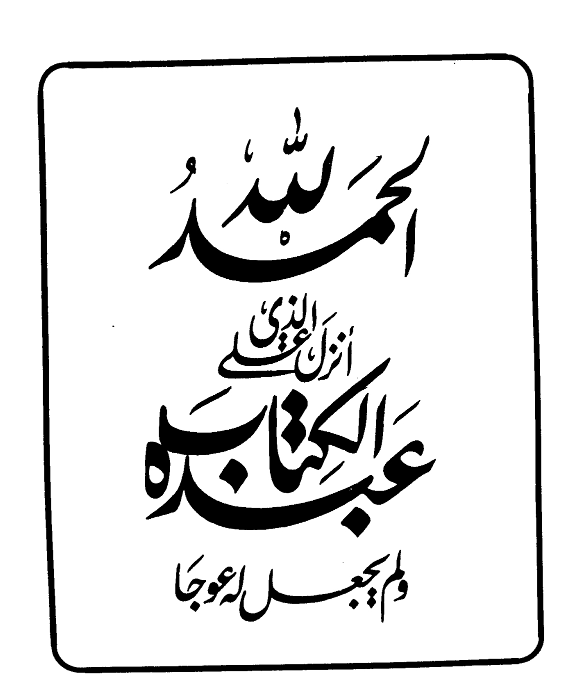
نعم . . أمام هذه السنن التى لا تتبدل . . والمصائر التى لا تتغير ما هو أحب الطرق إلينا ، وأى المناهج نختار لمسيرتنا ، ولنصرتنا فى هذا العصر . . ولنجاتنا ؟

الجواب الهادىء نسمعه دائماً مدوياً فى اختيار الله ، ونداء القرآن ، حيث يقول الله تعالى لمن يسمع ويطيع :

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » (الأنعام : ١٥٣)

نعم . . إنه الصراط المستقيم . . صراط الذين أنعم الله عليهم . . الصراط المفتوح أمام المؤمنين . . أمامنا فى هذا العصر . . وليس من طريق سواه .

* * *


الحمد لله
الذي أنزل على
عبده الكتاب
ولم يجعل له عوجا





المركز الثقافى
المقاولون العرب
عثمان أحمد عثمان وشركاه

السؤال الأول :

ما هو أول تاريخ للعمل بالشريعة الاسلامية فى مصر ٠٠ ؟ ثم ما هو تاريخ ايقاف العمل بها بقرار عدوانى من السلطة الانجليزية الاستعمارية فى مصر ؟ وماذا كانت أهداف المستعمر من هذا الاستعمار التشريعى للمصريين والذى كاد أن يعم الأقطار العربية ؟

الإجابة :

دخل الصحابى الجليل ، والقائد العربى المسلم الذى اشتهر بتحرير مصر من الروم بلدة العريش ، أول ثغور مصر من الشرق ، وكان ذلك فى ١٠ من ذى الحجة سنة ١٨ هجرية الموافق ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ بعد أن هزم حاميتها الرومية ، فكان ذلك اليوم الموافق عيد الأضحى عيداً لبدء تحرير مصر تحت أعلام الإسلام من نير العسف الرومانى نحو ستة قرون ، ومن اضطهاد الروم الوحشى للمسيحية بمصر ، وعيداً فى نفس الوقت لبدء العمل بالشريعة الإسلامية على أرض الكنانة العربية بين أفراد جيش التحرير حيثما وجدوا على أرضها .

لقد جرت المعارك بعد العريش — مرورا بالفرما وبلبيس — حول حصن بابليون الذى لا تزال آثاره على أرض القاهرة الحالية ، وبعد الاستيلاء على الحصن وهزيمة الروم فيها تقهقر الجيش الرومى إلى الاسكندرية التى كانت عاصمة لسلطة الاستعمار الرومانى — بعد

الاستعمار اليونانى – منذ أنشأها الاسكندر وسماها باسمه فى نحو ٣٣٢ قبل الميلاد . وفى الاسكندرية لقى الروم هزيمتهم الكبرى ، واتخذوا طريقهم فى البحر سربا وهربا إلى بلادهم ، وفكر عمرو بن العاص ، وقد أورث الله المسلمين مساكنهم التى جَلَوْا عنها فى الاسكندرية أن يسكنها وقال : (مساكن قد كفيناها) أى لا نتحمل مشقة بنائها ..

ولكنه عندما استأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى سكنى الإسكندرية لم يقره على ذلك ، واشترط عليه أن ينزل بالمسلمين منزلا لا يحول فيه الماء بين الخليفة وبين المسلمين ، لا فى شتاء ولا فى صيف ، أى حتى يبقى طريق الإمداد والتخابر مفتوحا بين المسلمين فى مصر وبين عاصمة الدولة العربية الإسلامية الجديدة فى المدينة ، وهى نفس النظرية التى حرص اليونان والرومان بسببها على أن تكون الإسكندرية وهى باب الطريق البحرى إلى بلادهم هى عاصمتهم .

من أجل هذا تحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط (مصر القديمة الحالية) فى ذى القعدة سنة ٢٠ هجرية ، ثم بدأ فى سنة ٢١ هجرية التى وافقت سنة ٦٤١ ميلادية فى أن يختط بهذا الموقع المناسب للعاصمة (المسجد) الذى يعرف باسمه حتى اليوم ، كما اختط أمامه داراً للإمارة وشئون الحكم ، وحول المسجد ودار الإمارة اختطت القبائل المشتركة فى الجيش أحياءها ومساكنها . وفى نفس الوقت الذى قامت فيه خطط المدينة الجديدة (الفسطاط) اجتازت بعض القبائل النهر لتقيم مساكنها على الضفة المقابلة عند موقع (الجيزة)

حيث أنشأوا سنة ٢١ هـ حصنا لاتقاء المفاجأة ، وبذلك تم استقرار العرب على ضفتى النيل ، وقامت العاصمة الأولى لمصر الإسلامية نامية حول مركز حياتها الجديدة وهو المسجد ، مسجد عمرو بن العاص الذى كان أول مسجد أقامه المسلمون فى أفريقية .

فى هذه العاصمة التى كان طولها فى رواية ابن عبد الحكم خمسة آلاف متر وعرضها ألف متر ، والتى أقيمت بتوجيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ونشأ بأقصى قوة من النشاط أول مجتمع إسلامى متكامل ، وهو المجتمع الذى ظل يشهد ويشترك قبل نشأة القاهرة — فى كثير من الأحداث التى ألمت بالوطن العربى بعد أن وفد إلى الفسطاط أخلاط من اليمن بينهم العرب والفرس الذين دخلوا فى الإسلام ، وحيث أمن على نفسه بعض من دخلوا فى ظاهر الإسلام على باطن يهوديتهم من اليهود الذين نفثوا الفتنة وأججوا نارها طويلا مثل عبد الله بن سبأ وكعب الأحبار .

ولم يكد ينته القرن الأول حتى أقيمت المنابر بريف مصر الذى تغلغل فيه الإسلام كفيضان النهر ، وحيث أقيمت المساجد الكثيرة فى المدن لتكون مع الصلاة الجامعة معاهد لتحفيظ القرآن ، ونشر العلم ، والتفقه فى الدين .

ولم يكد يتم تعريب الدواوين فى عهد الأمويين حتى انتشرت اللغة العربية فى مصر ، وبدأ المسلمون الجدد يتعلمونها ، وتزوج المسلمون

من المصريات المسيحيات ، واتسع نشـاط العـرب فى الريف وهم يقتربون منه ، ويتكاثرون فيه ، وازداد إقبال القبط على اللغة العربية إلى الحد الذى حمل رجال الدين المسيحى على كتابة أجزاء من الصلوات باللغة العربية بدلا من القبطية حتى يفهمها المصلون فى الكنائس ، ثم أصبحت اللغة العربية التى وحدت فى تيارها النامى عناصر شعب مصر ولغة المصريين جميعا ، وذلك ابتداء من القرن الرابع الهجرى ..

وبالإقبال على الإسلام وعلى اللغة العربية انتشرت علوم الدين وآداب اللغة العربية القرآنية من مراكزها العديدة فى المساجد ابتداء من مسجد عمرو الذى ظهر فيه ، وألقى الدروس بجوار أعمدته ، عدد من صحابة الرسول الذين قدموا فى جيش عمرو ، كما ظهر فيه مثل الإمام الشافعى يلقى فيه دروسه عند وفوده على مصر وإقامته بها ، وكانت دلالة ذلك مع الالتزام بشريعة الله وأحكامه فى الحياة الجديدة المتسعة والمتقدمة أن ينشط الفقه الإسلامى حتى يبلغ الذروة مع الاتساع والإحكام .

لقد ظهر فى مسجد عمرو بن العاص من يزيدون على مائة وأربعين صحابيا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يسميهم المؤرخون (المحدثون المصريون) منهم سعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الله ابن عمرو ، وأبو ذر الغفارى .

ثم تتابع على مصر جيل التابعين ، وتابعى التابعين ، وأصبحت لمصر مدرسـتها الفقهية التى لمعت فيها بوارق الليث بن سـعد

(٩٣–١٧٥) هجرية ، وهى المدرسة التى تجلى تأثيرها فى الفقه الإسلامى بمجىء الإمام الشافعى إلى مصر فى السنوات الأخيرة من القرن الثانى الهجرى ، وكتابة كتبه الشهيرة فيها ..

ومن مصر انتشر مذهب مالك وفقهه إلى أفريقية حيث كان فيها عبد الرحمن بن القاسم (١٢٣ – ١٩١) هجرية أكبر تلاميذ مالك فى الفقه ، وعنه صدرت (المدونة) وهى المؤلَّف الذى يعد عمدة الفقه فى مذهب مالك .

ومن ١٩٩ حتى ٢٠٤ هجرية تاريخ وفاة الشافعى ، كان هذا الإمام القرشى ينشئ بمصر مدرسته الكبيرة التى سجلت المذهب الشافعى وأذاعته فى أقطار الوطن العربى والعالم الإسلامي ، ثم تمضى القرون والشافعى ومالك يتقاسمان بمذهبيهما واجتهاديهما فى الفقه تمذهب أهل مصر .

ثم ماذا جرى ؟

ظلت الشريعة الإسلامية مطبقة بتمامها فى مصر طوال تلك القرون الطويلة ما بين سنة ٦٣٩ ميلادية حتى سنة ١٨٧٥ ميلادية أى حتى قرن مضى تماما ..

فماذا حدث ؟

فى سنة ١٨٧٥ وفى عهد الخديو إسماعيل حيث فرض الأجانب عليه (الامتيازات الأجنبية) صار من هذه الامتيازات ألا يخضعوا لقوانين

مصر الإسلامية ، وأن يختاروا فى التعامل القانونى بين أنفسهم أو بينهم وبين من يتعامل معهم من المصريين حكم قوانين (مستوردة) من قوانينهم داخل هذا النظام القضائى الذى أنشئ خصيصا لهم وهو (المحاكم المختلطة) التى طبقت مرضاة لأمزجة هؤلاء الغزاة قوانين فرنسية !

ولكن هذه القوانين المستوردة لحساب الأجانب ومن يتعاملون معهم لم تلبث أقل من عشرة سنوات – مهدت خلالها للاستعمار الإنجليزى سنة ١٨٨٢ – حتى ترجمت إلى العربية ، وطبقت على المصريين أجمعين فى المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٤ .. وبهذا فقدت الشريعة الإسلامية فى المعاملات والعقوبات مكانتها فى التطبيق القضائى فى البلاد ، وقد تم هذا الإجراء المتعسف بالطبع – رغم احتجاج الكثيرين من رجال القانون المصريين – تحت حماية الجيش الإنجليزى الذى كان قد احتل مصر ، وتمركز فى القاهرة والاسكندرية وغيرهما ..

إن المصريين لم يكفوا منذ ذلك التاريخ عن المطالبة بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية فى التقنين المدنى والجنائى أسوة بما هو متبع فى نظام الأحوال الشخصية ، وكان مجلس الوزراء فى عهد الثورة العرابية قد أصدر قراراً بوضع تقنين عصرى مستمد من الشريعة ونصوصها ، وعهد بتنفيذ ذلك إلى من اطمأنوا إليه من رجال القانون وهو (قدرى باشا) الذى أعد بالفعل تقنينا من المذهب الحنفى رتب أبوابه ونسقها بالوجه المقابل للقانون المختلط ، ولكن وزارة الاحتلال صرفت النظر عنه .

على أن هذا التقنين الذى وضعه قدرى باشا ظل علامة بارزة على الرغبة القوية والمشروعة فى استيحاء الشريعة الإسلامية فى قوانين مصر ، ومن ثم فقد قررت وزارة المعارف فى سنة ١٨٩٠ طبعه لكى تعممه على طلاب الحقوق لدراسته ، وكان قد راجعه وأقره كل من الشيخ حسونة النواوى ، والشيخ المهدى العباسى ، وكان الأول أستاذاً للشريعة فى مدرسة الحقوق ، والآخر مفتيا للديار ، وقد صارا فيما بعد شيخين للأزهر ، ولازال هذا الكتاب متداولا إلى الآن تحت عنوان « مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان فى المعاملات الشرعية على مذهب أبى حنيفة النعمان » .

والشريعة مطبقة إلى الآن فقط فى الأحوال الشخصية للمسلمين فى مصر ، مثل الزواج والطلاق والميراث والحضانة والنفقة وما إليها . ومن المؤسف أن عدوى التجاوز عن تقنين الشريعة قد سرت إلى البلدان العربية المجاورة لمصر . فلقد ظلت هذه البلدان تطبقها باتباعها القوانين الإسلامية الواردة فى (مجلة الأحكام العدلية) التى قنن فيها الأتراك الفقه الحنفى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، إلا أنها تابعت مصر عندما قامت بتنقيح قانونها الفرنسى الأصول ليطبق على من بها من الأجانب بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٤٩ .. فكانت خدمة جديدة للأجانب باتساع الوطن العربى .

لقد احتذت سورية والعراق ولبنان وتونس حذو مصر تحت الضغط الأجنبى المتواصل التأثير ، والمتنوع الوسائل ، ولكن هذه الشعوب

أيضا — كما هو الحال فى مصر — لا تزال أصواتها تتعالى بضرورة إحلال الفقه الإسلامى وأحكام الشريعة محل القوانين الأوروبية الأصول .

إن التصرفات القانونية تخضع بالضرورة لنظرية القانون الذى ينظمها وليس العكس ، أى أن سلوك الأفراد فى المجتمع يتأثر بطبيعة القانون الذى يحكم بمواده هذا السلوك ، وليس السلوك هو الذى يحكم القانون ، ولهذا فإنه من المسلم به أن القانون الأوروبى الأصول يؤثر بطبيعته القانونية الأوروبية فيجعل المجتمع العربى (أوروبى الطريقة) والمزاج ، ويسلخه من أصوله العربية شيئا فشيئا ، والذى حدث فى مصر أن القانون الفرنسى الأصول لم يجعل من المصريين أوروبيين تماما ، كما أنه لم يبق لهم طابعهم المصرى العربى من التواصل والرحمة والحفاظ على المصلحة الجماعية ، منذ كان هذا القانون ذا الأصول الفرنسية الأوروبية فردىّ النزعة والطابع ، يحمى القوى ، ويطلق العنان للاستغلال .

ولقد نتبين فى مثل هذا القانون (الأجنبى) عنا أن فساد الجزء الجنائى أبعد أثرا ، فلقد ملأ السجون بالمجرمين على قدر كثرة الجرائم وقلة الروادع ، وبينما يحفل مثل هذا القانون بالمواد التى تحمى المال ، فإنه لا يكاد يأبه لحماية العرض ، وهو عندنا مقدس ، كما أنه أبعد من أن يصون من القيم ما تعتز وتتماسك به الجماعة الإسلامية مؤثرا على ذلك رعايته فى التقنين أن يستمر نمط الحياة كما يتعايش بها الأوروبيون !

الاستعمار التشريعى وأهدافه :

لقد كانت أهداف المستعمر من زرع قوانينه بدلا من (شريعتنا) وهو يغزو الوطن العربى باستعماره التشريعى أهدافا سيئة وشديدة الخطورة ، وهى تبدأ بإفساد عقيدة المسلمين ، ومن ذلك تصل إلى إشاعة الفرقة بينهم ، وإذابة مقومات هويتهم التاريخية والقومية ، بما يهيء للمستعمر بأدنى جهد أن يحقق أهداف الاستعمار السياسى والاقتصادى والثقافى ، وقد يمهد هذا كله كما يشير إلى ذلك الوجود الاستعمارى لإسرائيل — إلى اقتلاع الشعوب العربية من أوطانها بعد أن يتم — كما يراد — إنجاز اقتلاعها من جذورها التشريعية التى هى جذور لغتها وتاريخها وحضارتها ومستقبلها .

وللمستعمر دائما أعوان من أبناء البلاد ، ومن هؤلاء من يتصور أن للغزاة مزايا يحاولون تقليدها ، وهذه من صور الانهزامية والانهيار أمام تخييلات المستعمر وإرجافاته التى توقع الهزيمة داخل هؤلاء ، حيث يملؤهم الشك — وهم يفرطون بمعتقداتهم — فى صلاحيتها لمجتمعهم ، وحيث يستسلمون بأطماعهم لتقليد العدو ومحاكاته ، وفى الانصياع لخططه ودعاياته مع أنها لا تستهدف إلا تفريغهم من كل قوة ، وتحطيمهم بكل قسوة !

وكما يحكم المستعمر البلدان التى يستعمرها بمثل هؤلاء الأعوان فإنه يتطرق إلى مسخ الذات فى الشعوب التى يستعمرها ، وذلك عن

طريق تغيير النظم التى تحكم مجتمعاتها ، وعلى هذا فالمستعمر الإنجليزى فرض القانون الأجنبى على مصر عن طريق مجلس نظار كل أعضائه من الأتراك إلا رجلا مصريا واحدا هو (على باشا مبارك) الذى وضع أسس التعليم فى المدارس المعاصرة .. !

إن الشريعة الإسلامية هى صميم الفكر الإسلامى ، وهى ملاك العلاقات بين الأفراد ، فإذا لم تطبق على أفرادها فمجتمعهم بالضرورة غير إسلامى . وإذا طبق فى المعاملات قانون أجنبى صارت المعاملات إلى جوها الأجنبى ، وكلما اطرد تطبيق القانون الأجنبى اطرد البعد بالأفراد من مجتمع الشريعة ومزاياه وفضائله ، وجرت البيوع والإجارات والقروض والإعارات لتضع علاقات قانونية فى المجتمع لا تقوم على قواعد الفقه الإسلامى التى قوامها العدالة الاجتماعية ، ودفع الضرر عن الفرد ، وحمايته من إطلاق العنان للقوى الذى قد يستخدم حريته — فى ظل قانون مغاير ضد الضعيف !

ولقد أثبت تطبيق القانون الجنائى الأوروبى زيادة كبيرة فى الجرائم ، وترتب على ذلك إنشاء نظام ضخم للسجون ، وقضاء ضخم مثله للجنح والجنايات ، ولقد دفع إلى كثرة الجرائم والمجرمين نظام اجتماعى يحميه ويشكله القانون الغربى من طريق تخفيفه العقاب على من يتجاوزون عن الفضيلة والحرمات ، وقلة اهتمامه بكفاية الناس ليعيشوا ، وتوقفه عن إنفاذ نظام الزكاة ، ونظام الحدود !

السؤال الثاني :

كيف يربط الاسلام بين الايمان والتطبيق فى الشريعة فى مجال قوة ووحدة وتنمية مجتمع المؤمنين ؟ .. أيد ذلك من القرآن الكريم ؟

الإجابة :

يقوم الإيمان على التصديق بالقلب والإقرار باللسان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وأن يتأكد ذلك فى العيان . والسر – بالعمل بأوامر الله ، والانتهاء عن نواهيه .

وإذا كان التهاون فى العمل لا يستوجب تكفير المؤمن إلا أنه (يفسّقه) أى يَصِمهُ بالفسوقِ ، وهو : الخروج عن الحد السوى ، الذى هو – ما لم يشرك – دون الشرك والكفر .

والمؤمن الموصوم ، المتهم بالتهاون ، هو فى حقيقته بين المسلمين مسلم زرى ، غير خليق بالاحترام ، ويجوز إلزامه بالأمر الدينى كلما عزمت الدولة أن تتجه بالأمة فى اتجاه الدين ، وهى بذلك تطبق عليه الحدود والعقوبات لمخالفته للواجب الدينى ، أما إذا لم تتجه الدولة هذا الاتجاه فقد سقطت عن هذا المسلم الموصوم ، الزرى ، خصيصة العمل بالإسلام ، ولم تبق له مزايا التواصل الاجتماعى التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى : أمرا صادقا بالمعروف ، ونهيا جادا عن المنكر .

إن هذا المؤمن الذى لا يعمل هو – غير أنه موصوم وزرى – عضو مهمل فاشل فى المجتمع ، إنه عبء على الأعضاء العاملين فيه ، ولذلك فإن فى استحثاثه ودفعه إلى العمل أمرا له نحو المعروف ، وفى زجره بهذا الأمر عن القعود عن العمل نهيا له عن المنكر ، وبهذا التواصل فى تحمل تبعات الجماعة المتآخية المتواسية أمرا ونهيا كان المسلمون – كما خرجوا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم – خَيْرَ أُمة أُخْرِجَتْ للنّاس ..

ومن المسلمين من يعتبر التهاون فى بعض الأعمال كفرا مثل ترك الصلاة ، وكذلك يكفر مرتكب بعض الكبائر كالقتل والزنا .. ومنهم من يرى ذلك فسقا يتعلق به المؤمن بين منزلتى الإيمان والكفر ، فلا هو مؤمن ولا هو كافر ..

إلا أن القرآن الكريم يعلو بحكمه الواضح ، ونهجه القويم ، فوق لجاجات بعض المتجادلين والمتعالمين حول أحكامه ، فهو يقرر من كلام الله فى أول صفحات الكتاب العزيز ، فى أول الآيات من سورة البقرة قوله تعالى :

« الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (البقرة : ١–٥)

فالصلاة صلة متكررة بالله مرات فى النهار والليل على مدار الحياة ، والإنفاق مثلها ، إذ هو إنفاق وزكاة من كل ما أنعم الله به على الإنسان من وقت وصحة وعلم ورأى ومال ، ولكل الناس ما يملكون من هذه النعم كلها أو بعضها ، ماقل وما كثر . إن أكثر الناس يملكون من الوقت والصحة ما يعاونون بهما غيرهم . وكل الناس يملكون من هذين المصدرين طاقة الاهتمام بأمور المسلمين . والذين عندهم العلم والرأى والجاه — وإن لم يكونوا عامة الناس — فعليهم أن يوجهوا ذلك لخدمة الناس ، والكثيرون عندهم من المال نصاب الزكاة ، والقليلون — ممن كثر مالهم — عليهم فى هذا المال حقوق الكثرة بقدر ما يصدق إيمانهم بمن أنعم عليهم .

والقرآن الكريم يجمع فى آيات كثيرة بين الصلاة والزكاة فى تحديد أهم أركان الإسلام ومجتمعه المتكامل والمتواصل ، وفى مثل ذلك يقول سبحانه :

« وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ »
(البقرة : ٨٣)

ويقول :

« وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ » (البقرة : ١١٠)

ويقول فى أركان قبول التوبة :

« فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ »
(التوبة : ٥)

ويقول أيضا فى نفس المعنى :

« فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » (التوبة : ١١)

والإمام العالم جعفر الصادق يلخص شرحه لمنهج الإسلام فى تكافل النعم ، والموارد والطاقات فى كلمتين الأولى قوله : (لو أدى الناس زكاة أموالهم ما بات مسلم فقيرا) والأخرى قوله (المعروف زكاة النعم) فهو يفرض على كل نعمة زكاة .

وقبل هذا وفوقه يقول النبى عليه الصلاة والسلام « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : (الصحة والفراغ) » . ويقول أيضا : « من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » .

فالعمل الصالح فى عمومه ، وأداة الزكاة عن كل نعمة من نعم الله بوجه خاص ، هما الطريق المفتوح إلى عمارة الدنيا ، وتوثيق صلات التكافل والتراحم بين الناس ، ولكن الإسلام لا يترك الأمور تجرى فى أعنتها بغير توجيه وتقويم وحث من أولى الأمر ، وهم حينا العلماء ،

وأحيانا الولاة ، فهؤلاء هم الذين يضعون المناهج لتعميم الخير ، والتمكن من أداء الواجب ، وتبسيط وسائل أدائه ، وإحسان القيام به .

والأمر بالمعروف فرض كفاية على الفرد ، ولكنه فرض عين على الجماعة إذا لم يقم به الفرد ، والأمة تأثم إذا لم يقم فرد واحد بما فيه مصلحتها اللازمة لها ، ومن هنا يتعين على الدولة أن تتدخل بالتخطيط لكل ما يلزمها أو يلزم الأمة لتتقدم ، ولكل ما يلزم الفرد لصلاح دنياه وآخرته .

وإذا كان الحكم بما أنزل الله واجب الدولة والفرد فقد أصبح لزاما أن تقنن الأحكام الشرعية ، وأن توضع الجزاءات على مخالفتها ليكمل الأمر فى مجتمع المسلمين ، ومن المآثر التى يذكرها التاريخ لدستور مصر الصادر سنة ١٩٧١ أنه نص على أن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً رئيسيا للتشريع ، وبهذا استجاب الدستور إلى نداء الأجيال الماضية ، ورغبات الأمة عند وضع الدستور ، ويبقى أن تقوم كل جهة فى المعاهد المعنية بالتشريع بأن تضع نص الدستور موضع التطبيق ، وهذه هى مهمة الجيل الحالى من أهل العلم ورجال السلطة .

***

السؤال الثالث :

ينص الدستور الدائم لدولة العلم والايمان على أن الشريعة الاسلامية مصدر رئيسى للتشريع ، فما هو الطريق فى رأيك للعودة بتشريعنا وقوانيننا الى هذا المصدر ؟

الإجابة :

الطريق الأمثل للعودة بتشريعنا وقوانيننا إلى الشريعة الإسلامية — كما نص الدستور — طريق ذو اتجاهين : الأول هو أن نحمد الله على هذه النعمة وأن لا نضيع الوقت فى اتهام القوانين الحالية !

ذلك أنه عندما صدر الدستور فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩٧١ معلنا أن (الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع) كان معنى ذلك أن الرغبة الملحة التى تعالت بها أصوات الشاكين من أجل تطبيق الشريعة قد أجيبت ، وأن الموقف الأمثل الآن لهؤلاء الشاكين من رجال العلم والقانون هو أن يتقدموا لإضاءة الطريق ولو بشمعة واحدة تضىء الظلام بين أيدى السالكين ..

إن على أهل العلم والقانون أن يهيئوا الشعب لاستقبال تشريعات تجمع الأمة ولا تفرقها بين فقراء وأغنياء ، وضعفاء وأقوياء ، وأن يبينوا أن هذه التشريعات والقوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية ستكون



فى مصلحة كل الفئات ، وأصحاب الديانات المختلفة ، فهذه هى صيحة الوحدة وبشرياتها كما تنطق بها الشريعة .

وأما الاتجاه الآخر فهو أن تؤلف جماعة من المتخصصين فى فن التقنين ، تضاف إليها جماعة من رجال الفقه الإسلامى المتخصصين فى الجامعات ، وأن يحدد لهؤلاء المتخصصين مدة لمهمتهم المحددة التى توكل إليهم وهى :

(وضع قانون عصرى من الفقه الإسلامى سواء فى المعاملات أو فى العقوبات ، لإقامة مجتمع إسلامى متكامل) .

وحتى نلقى ضوءاً على طريق هذه المهمة ونحن نتصورها ، نسجل الحقائق والمسلمات الآتية فى طبيعة التشريع الإسلامى .

أولا — قوانين المعاملات فى القانون المدنى ، هى الإطار الذى تتدرج فى داخله (التصرفات اليومية) للناس ليحميها القضاء بقوته الملزمة . وعندما يقضى القاضى بقواعد إسلامية سيلتزم الأفراد هذه القواعد ، فتصير المعاملات (إسلامية) فى الحياة الواقعة للناس ، وليست فى تمنيات الدعاة ، أو كلمات المنابر ، وبهذه المعاملات الملتزمة بالقانون الإسلامى السائد عليها سيتم التعايش فى مجتمع المسلمين على أساس التواصل والرحمة والمحبة .

ثانيا — وللشريعة أصول كفيلة بسن جميع القوانين اللازمة للتقدم العصرى ، إذ تحتوى على جميع الأساسيات التى يقوم عليها النظام

التشريعى المعاصر للأمم العظمى ، من حرية التعاقد ، وتنظيم استعمال الحقوق ، أو المسئولية عن الضرر ، مع امتياز الشريعة فى حقوق التعويض عن الضرر ، فهى تعوض المتضرر أكثر مما تعوضه الشرائع الأخرى ، وتأخذ بيد الضعيف أكثر مما تأخذ تلك الشرائع .

ثالثا — وقوانين العقوبات الإسلامية تبدأ بحدود شرعها الله لحماية الأسرة والفرد والدولة فى أمور العرض والنسب والملك والدولة والدين . وهى تطبق فى وقائع نادرة ، وتستمر العقوبات فى التوسع — مع التخفيف على الناس فيما ليس فيه جرائم الهدم للنظام ، فيكفل اتساعها حماية الأخلاق والعلاقات الاجتماعية حماية سابغة ، وهذه العقوبات الأخيرة تسمى بالتعزيرات ، ويترك تقديرها لظروف التهمة والمتهم والمجتمع فى نظر القاضى وفق حكمة الشريعة .

رابعا — ومن رحمة المشرع سبحانه وتعالى بالأمة نبهها وأخذها بأسلوب التدرج ، فهذا هو منهج القرآن بنزول آياته وأحكامه على مدار سنوات الرسالة والدعوة ، لا مرة واحدة ، وبالتحريم شيئا فشيئا فى بعض الحدود ، وبالنسخ لبعض الأحكام ، وهو منهج الرسول عليه الصلاة والسلام إذ كان يعلم المسلمين كل آية تنزل ليضيف إليهم العلم درسا درسا ..

ومن الرحمة كان اختلاف الأنظار فى العلم ، وإيجاب الاجتهاد ليتطور مع ثبات الشريعة فهم الناس لمقاصدها فى ضوء متغيرات العصور فيتقدم بهذا الفهم المجتمع ، ففى اختلاف العلماء سعة وصحة

للفهم ، وثراء للفقه ، وهذه الرحمة توجب علينا استعمال أدلة الإثبات العصرية فيما ليس فيه نص جازم من الشريعة مثل درء الحدود بالشبهات ونصاب الشهود على جريمة الزنا ، ومن التدرج نستطيع أن نبدأ بجلد الزانى فترة من الزمن ثم نطبق الرجم ، وأن نبدأ بقطع يد كبار السراق ، ثم نقطع يد كل سارق بغير استثناء .

خامسا — وأما سائر القوانين بعد ذلك من قوانين دستورية وإدارية ودولية وما إليها فالإسلام يضع فيها قواعد التزمها الدستور الحالى ، فيما يعد ويمهد لإدخال النظام الإدارى فى الإطار الإسلامى ، ففيه التمثيل الشعبى ، وهو تطبيق عصرى للشورى وإشراك الجماعة ، وفيه الوفاء بتنظيم العدل فى علاقات الدولة بالأفراد . وفيما بينهم .

* * *

السؤال الرابع :

ما هى حكمة الشريعة الاسلامية المتمثلة فى حدود الله كمنهج فريد فى مكافحة الجنوح عن السلوك الاجتماعى السوىّ ، وكيف تميز التشريع العقابى المستمد من القرآن الكريم بقدرته على الجمع بين سرعة الردع ومكافحة الجريمة ، مع المحافظة على آدمية الجانح وحقوقه الاجتماعية ، وتقبل توبته ، وتمكينه من استئناف حياته الاجتماعية بعد ذلك من جديد ؟

الإجابة :

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى مصلحة المسلمين من إقامة الحدود (حدٌّ يُعْمَلُ بِهِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمطَرُوا أَرْبعينَ صَبَاحاً) . وقد قصد الرسول بالمطر أربعين صباحاً ما يعنيه مثل هذا المطر المدرار عند قومه فى صحرائهم من معنى الخصب والنماء والحياة . .

ويتولى قاضى القضاة ابو يوسف شرح هذا الحديث الصادق للخليفة هرون الرشيد فيقول واعظاً له بمعناه (ولو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ، ولخاف الفُسّاق وأهل الدعارة ، وتناهَوْا عما هم فيه) ! .

ذلك أن الظاهر من حكمة تشريع الحدود أنها شرعت ، فى صدد أمور أساسية إذا سلمت للمجتمع ندر أن يقع من أفراده جرائم ، فهى خاصة بالعِرْض والنسب ، وبالمال والكرامة الإنسانية وبالدولة . وإذا الْتزم

الناس فى صددها حدودهم لم يكد يقع منهم عدوان فيما عدا ذلك ، وهو ما نبه عليه قاضى القضاة أبو يوسف من القرن الثانى للهجرة ، حيث أكد أن إقامة الحدود يترتب عليها قلة من يزج بهم إلى السجون ، وخوف الفساق وانتهائهم عن الفسوق . .

فالحدود والتعزيرات فى النظام العقابى للإسلام تتجه كلها إلى وقاية الذين لم يجرموا من مقارفة الإجرام لما يشهدونه من آثاره فيمن وقع عليهم الحد . والحدود بطبيعتها وبالنصوص التى توجب شهود الناس لها معلنة للناس : فعقوبة الزنا الرجم والجلد على أن يشهد الناس . وعقوبة قطع يد السارق تجعل من اليد المقطوعة زاجراً قوياً لضعفاء النفوس عن السرقة ، وكذلك ضرب القاذف والمخمور وقتل الباغى . .

ومع هذه الزواجر فإن النظام العقابى فى الإسلام يتجه فى نفس الوقت إلى فتح باب الإصلاح للمجرم إذا عفا عنه المجنى عليه ، أو ولى الدم فى بعض الأحوال ، وبالصلح فى شئون المال ، أو بتقدير ولى الأمر للتوبة الصادقة ، أو بتقدير القاضى للظروف والأعذار فى التعزيرات ، أو بطريقة توقيع العقوبة ، وغير ذلك مما يثير إليه الفقه والقضاء فى تاريخ المسلمين.

وهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية تتغيا وتستهدف بالتنظيم العقابى أنفس الناس لتقويمها ، من لم يجرم ، ومن أجرم ، ومن كان ضحية الإجرام . وبنفس المقدار اهتمت الشريعة بالمجنى عليه ، فجعلت له حقاً فى شأن المجرم يتعلق بالعقوبة ذاتها ، أو يتعلق بآثارها . أما العقوبة ذاتها فقد جعلت له حق العفو والصفح أو القصاص ليجبر ضرره أو يشفى غيظه .

وجرائم القصاص من القتل إلى الضرب إلى الإيذاء هى أكثر الجرائم عدداً. وللمجنى عليه دائماً حق التعويض . .

وإنما اهتمت الشريعة بإصلاح أنفس الناس لأنها كما شرعها الله دين يهدى للتى هى أقوم . فالنفس الإنسانية هى ميدان عمل الشريعة وإصلاحها الذى تنمو فيه الفضائل . ولا تدع فيه مجالا للانحراف . وبصلاح الأنفس تصلح الجماعة من أقصر الطرق . فتأمر بالمعروف وهى تأتمر به . وتنهى عن المنكر وهى تنتهى عنه . وبهذين يتماسك المجتمع ، ويستقيم النهج . ويأمن الناس . وتستقر الدولة والنظام .

فالنظام العقابى الذى يتوخى صلاح الأنفس لايمكن أن يسيغ إقامة صروح ممردة ، ونظم خالدة للسجون . كما تقيم الدول الأوروبيـــة السجون فتجعلها مؤسسات تضاهى نظام القضاء . بل إن الحبس فى النظام الإسلامى نادر . لأن توقيع الحد هو الأساس ، والجلد على الزنا مائة جلدة خير للجانى أن يقضى فى السجن سنوات قد تصل إلى عشر سنوات. فيحرم حق العمل . وتحرم أسرته من رعايته . ويحرم وطنه من سعيه وجهده ، وتنفق الدولة عليه لتجمده داخل الجدران وهى تحرسه وتطعمه .

فإذا ماكان المسجونون مئات الآلاف فخسارة الدولة ملايين . وليس أقل من ذلك خسارة الأنفس التى تكرس نظم السجون فيها عقلية الإجرام وضراوته . وأفانينه . ولذلك يدخل المجرمون السجن صغاراً ويخرجون منه أو يتخرجون فيه كباراً فى الجريمة . لا ساخطين عليها ، فالسجن كما أثبتت تجاربه وآثاره مدرسة للجريمة كما يعبر عن ذلك الكتاب الغربيون . .

إن الحدود بتوقيعها على الجانى رادعة ومانعة . إنها تردع الذى ارتكبها، وتمنع الذى لم يرتكبها من أن يرتكبها . وتزيد حسنات هذا النظام العقابى الإلهى حسنة أخرى تتمثل فيها الرحمة وإقالة العثرة وذلك باتساع هذا النظام لقبول التوبة ومساعدته عليها .

يروى ابن مسعود أن أول حد أقيم فى الإسلام على سارق أتى به النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى (اقطعوه) ونظر الناس فرأوا وجه النبى متغيراً فقالوا : يارسول الله ،لكأن هذا والله اشتد عليك ! فقال : (كيف لايشتد على وأنتم أعوان الشيطان على أخيكم) فقالوا : فهلا أخليت سبيله يارسول الله ؟ . قال : (أفلا كان هذا قبل أن تأتونى به ، فإن الإمام إذا بلغه حد فليس له أن يعطله) .

وقد شفع على والزبير رضى الله عنهما فى سارق عند صاحب المال فعفا عنه ولم يذهبوا به إلى الإمام ، وما شفعا له إلا سبيلا إلى توبته ، وبعد استرضاء صاحب الحق عليه ، وأنه فيما ظهر من أمره لها عازم على التوبة نادم على مافعل . .

وليس فى أبواب الإصلاح مايمنع التوبة إذا كانت صادقة . فالعفو ، والتوبة صنوان . عفا سعد بن أبى وقاص عمن شرب الخمر لعظم بلائه فى معارك الجهاد الأولى ، فلم يعد الشارب إليها . وعفا على بن أبى طالب عمن قتل فلم يأمر بقتله لعظيم توبته إذ جاء معترفاً بعد أن كان نجا وثبتت الجريمة على شخص آخر . فمثل هذا الرجل لايسوغ أن يذهب باعترافه إلى

القتل بعد توبة نصوح ، وطُهر نفس كامل ، يبلغ بصاحبها أن يفدى بنفسه نفساً أخرى علق بها الموت ظلماً فبرز لها بتوبته لتحيا . . وليموت هو بالقصاص ، مقراً بالحقيقة ، تائباً إلى الله ، مشهداً الناس والإمام على توبته وندمه . .

يقول الله تعالى فى الحياة بالحدود :

« وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ » (البقرة : ١٧٩)

ويقول فى فتح أبواب التوبة والحصول عليها :

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » (التوبة : ١٠٤) .

ويقول :

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (البقرة : ٢٢٢)

ويقول :

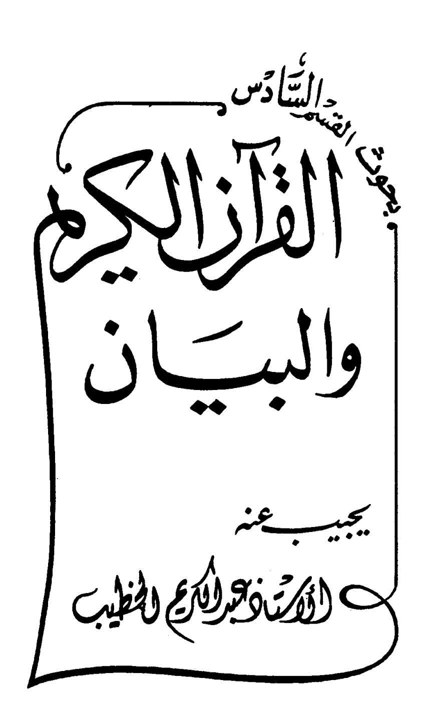
« فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا » (النساء : ١٦)

ويقول :

« وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا » (الفرقان : ٧١)

ووسائل التشجيع على التوبة كثيرة ، والأبواب المفتوحة فى الشريعة الإسلامية أمام المشرع للانتفاع بها شتى ، وهى على كل حال وسيلة قاصدة للاصلاح لايعرفها المشرع الأوروبى الذى نجرى اليوم – منذ عهد الاستعمار – على قوانينه ، ويرقص مجتمعنا على إيقاعاته . . إلى أن نبرأ بنص دستورنا من بقايا القانون الأجنبى ، وتسترجع قوانينا فى ضوء العصر طبيعتها فى الشريعة الإسلامية . . إن شاء الله

* * *


بحوث القسم السادس
القرآن الكريم
والبيان
يجيب عنه
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

السؤال الأول :

يقول الله فى كتابه الكريم :

« الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »

(الرحمن : ١-٤)

ماذا يعنيه معنى هاتين الآيتين من قوة التلازم والارتباط بين الإنسان فى حكمة خلقه ، والإنسان فى مسئوليته عن دينه وشريعة خالقه . وفى قدرته على استبانة الطريق السوى إلى الله وهو يعى هذه الشريعة من خلال لغته وبيانه ؟

الإجابة :

الرحمن اسم من أسماء الله تعالى . وصفة من صفاته الكريمة . فهو سبحانه له الأسماء الحسنى ، كما يقول سبحانه :

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » (الأعراف : ١٨٠)

والإسم الكريم (الرحمن) هو أخص الأسماء به جل شأنه . كما أنه أخص صفات الألوهية ، ولهذا جاءت الأسماء الكريمة : الله . الرحمن . الرحيم . مفتتحاً بها كل سور القرآن الكريم . ماعدا سورة التوبة . هكذا بسم الله الرحمن الرحيم .

وفى الجمع بين الألوهية والرحمة هذا الجمع المتلازم . إشارة إلى أن الرحمن . هو أخص صفات الله تعالى . فبالرحمة خلق الله هذا الوجود . وبالرحمة . أقام كل موجود فيه :

« الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » (طه : ٥٠)

وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

« وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ » (الأعراف : ١٥٦)

وقوله سبحانه :

« رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا » (غافر : ٧)

وننظر بعد هذا . فى قوله تعالى :

« الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »

(الرحمن : ١-٤)

فنجد أن هذا الإسم (الرحمن) — قد جاء مفتتحاً لهذه السورةالكريمة : (سورة الرحمن) حيث لم تسم سورة من سورالقرآن باسم من أسمائهتعالى غير هذه السورة وسورة فاطر ، وغافر . . كما أن هذا الإسم الكريم قد جاء إسماً مفرداً دالا على ذات الله تعالى ، وعلى صفته معا ، فهو سبحانه : الله، وهو سبحانه (الرحمن) .

فالرحمن هو الذى علم القرآن ، رحمة منه وإحساناً ، وفضلا ، وتلك أعظم نعمة أنعم بها جل شأنه على خلقه . . من حيث كان تعليم القرآنهو

الذى يحقق وجود الإنسان ، ويحفظ معالم إنسانيته ، ليكون أهلًا للخلافة التى جعلها الله تعالى له على هذه الأرض . .

والقرآن الكريم كتاب الله ، وكلماته الجامعة لحقائق هذا الوجود ، كما يقول تعالى :

« وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » (النحل : ٨٩)

وكما يقول سبحانه :

« إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » (الإسراء : ٩)

وكما يقول جل شأنه :

« وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » (الإسراء : ٨٢)

ويلاحظ هنا أن النظم القرآنى قدم تعليم الله تعالى (القرآن) على خلق الإنسان :

« الرَّحْمَنُ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ » (الرحمن : ١ – ٣)

مع أن خلق الإنسان – كما يبدو فى ظاهر الأمر – مقدم على تعليم القرآن والسر فى هذا – كما أرى – هو الإلفات إلى هذه النعمة العظيمة ، نعمة تعليم القرآن ، وأن خلق الإنسان ، ووجوده فى هذه الحياة ، لايحقق الحكمة العالية من خلقه ، ولايمكن له من الخلافة على الأرض – إلا إذا تعلّم

القرآن ، علماً يهديه إلى الحق ، ويكشف لبصيرته معالم الطريق إلى خالقه ، فيقيم وجهه إليه ، فى ولاء ، وعبادة وتسبيح . وإنه بغير هذا التعليم ، وهذا العلم ، لايكون الإنسان إنساناً ، بل يكون أدنى منزلة ، وأخف وزناً من عالم البهم . وَرُدَّ إلى أسفل سافلين ، كما يقول الله تعالى :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » (التين : ٤-٦)

وكما يشير إلى ذلك قوله تبارك اسمه :

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » (الأعراف : (١٧٥ – ١٧٦)

وذلك معنى قوله تعالى :

« مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » (الجمعة : ٥)

وتعليم القرآن. وتعلمه . والاستبصار بنور آياته وكلماته . لايكون إلابمعرفة اللسان العربى الذى نزلت به كلمات الله، كما يقول سبحانه :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ » (الشعراء : ١٩٣-١٩٥)

ومن هنا كانت اللغة العربية ، وكان تعلمها ، والوقوف على أسرار بيانهما وبلاغتها ، هو المفتاح الذى تفتح به خزائن القرآن الكريم . وما ضمت عليه من علم الله ، الذى حملته كلماته إلى المؤمنين من عباده كما يقول سبحانه :

« قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا » (الأنعام : ١٠٤)

وإنه بغير اللسان العربى ، الذى يحسنه أهله تظل آيات الله أسراراً محجبة عن البصائر محجوبة عن أعين الناس .

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى :

« خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » (الرحمن : ٣ ، ٤)

إن الله تعالى إذ خلق الإنسان فقد ألهمه القدرة على هذا البيان الذى يرقى به فى أحسن تقويم إلى تعلم القرآن وورود موارده الصافية التى يستبصر بها قلبه . ويعقل بها عقله ، ويستقيم بها طريقه .

ونلمح هذا فيما ذكره القرآن الكريم عن هذا الامتحان الذى عقده الله تعالى بين الملائكة وآدم ، إذ يقول الله تعالى :

« وإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاء

هؤلاء إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ »

(البقرة : ٣٠ – ٣٣)

ففى هذا الامتحان كانت الكلمة التى تفجرت من صدر آدم ، وأفصح عنها لسانه ، هى التى حاجّ بها الملائكة ، واستحق بها أن يكون خليفة الله على هذا الكوكب الأرضى دونهم .

وبهذه الكلمة المبينة التى صحبها آدم معه للقيام بهذه الخلافة قام سلطان الإنسان على الأرض فعمرها بقدر ما حافظ فى أجياله على بيانها ، وما استضاء بشريعة الله وحدوده فى أوعية ألفاظها وأصواتها ومعانيها ، كما كان من المقرر فى سنة الله أن يسقط سلطان هذا الإنسان بعجمة العقل وإبهام البيان . إنه يسقط بعجزه عن تلقى رسالات الله ، ويدمر بهذا العجز ما بناه ، وما عمّره ، بقدر بعده عن الاستماع والفهم والوعى لكلام الله المبين .

هكذا توارث أبناء آدم الكلمة المبينة فى لسانهم ، يذكرونها طوراً ، ويغفلون عنها طوراً آخر ، حتى كان إبراهيم الذى هاجر ببقايا اللغة المبينة من العراق إلى الحجاز حيث تركها لذريته من أبناء إسماعيل يطهرونها من العجمة ، ويطورونها نحو البيان جيلا بعد جيل فى بيداء الأرض ، وبيد



الآفاق المنيرة بالليل ، والمضيئة بالنهار ، حتى استوت على كمالها ، وكمال بنيانها فى هذا اللسان العربى المبين ، الذى نزل به القرآن الكريم نبعاً طهورا خالداً لرسالة الله الخاتمة للرسالات ، والجامعة والمهيمنة على ماتفرق من الدعوات والآيات والبيان .

لقد بلغ العرب على عهد النبى صلى الله عليه وسلم بهذا اللسان العربى المبين الذى تَسَمَّوْا باسمه عربا فى مقابل العجم — لقد بلغوا بهذا البيان هذه الدرجة التى ترفعهم إلى مواجهة كلام الله المباشر لهم . . لقلوبهم وبصائرهم وعقولهم . . من جنس كلامهم ، وأصبحوا بهذه الدرجة من البيان مسئولين مسئولية الإنسان الرشيد عن وعى القرآن ، وتدبره والإيمان بما جاء به ، والعمل والسلوك فى الحياة الدنيا من أجل الحياة الأخرى ، وبأحكامه وأخلاقه وغاياته وشرائعه . الأمر الذى فعلوه جميعاً متتابعين خلال سنوات الدعوة إلا قليلا منهم — وذلك حيث يقول الله تعالى راضياً عنهم ، متما نعمته عليهم فى آخر آيات القرآن الكريم :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (المائدة : ٣)

لقد رضى الله لهم ذلك . وهو العليم بهم . وهو ربهم الذى أعدهم لهذه الآية الكبرى فى حياة البشر . أعدهم للإيمان حين أعدهم للبيان فأعدهم للعلم بالقرآن . وذلك حيث يقول سبحانه :

« اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » (الأنعام : ١٢٤)

وحيث يقول فى إعداد نبيه المصطفى لتلقى القرآن ميسراً بلسانه ولسانهم :

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (الدخان : ٥٨)

وهنا نشير إشارة عابرة إلى قانون يحكم « البيان » فى دعوات الرسل . وفى الآيات التى أيدهم الله بها بين أقوامهم فنقول : إن هذه الآيات البينات قد انقسمت فى مستوى بيانها إلى قسمين : ثم كانت البينات فيه حسية عصرية تخاطب العين قبل العقل ، تنبيها للعقل وذلك بين الأقوام الذين – وإن عاشوا على أرض الوطن العربى – قد انحلت عقدة البيان فى ألسنتهم . وارتضخوا (يقال : هو يرتضخ لكنة أعجمية ، أى لم يخل من شى منها . أو يخلط الكلام العربى بغيره) قدرا من العجمة فى كلامهم بمخالطة الأعاجم . وخضوعهم للحكم الأجنبى كما حدث لبنى إسرائيل فترة إقامتهم القصيرة على ذلك الجزء الصغير من أرض فلسطين تحت حكم الرومان . وفى شغب دائم مع من حولهم من السكان .

لقد كان أنبياؤهم يخاطبون أبصارهم **كما** فعل المسيح ذلك بإحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله . ولكنهم لقسوة قلوبهم . وضعف عقولهم ، وقصور بيانهم لم يؤمنوا . لقد كفروا مع أن الله آتى المسيح البينات الحسية اللائقة بهم حيث يقول :

« وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ »
(البقرة : ٨٧)

ومثل ذلك ما أيد الله به موسى أمام فرعون وملئه . فلقد كان ما فى وسع فرعون من البيان أن يستبين بعينه . ولكنه لطغيانه عجز عن ذلك بينما استطاعه سحرته حين تنبهت عقولهم على ماستبانوه من آية الله فى عصا موسى وذلك حيث يقول الله عن موسى الذى أيده بالأشياء المبينة أمام فرعون

« قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ » (الشعراء : ٣٠)

لقد حدثه موسى عن رب المشرق والمغرب وما بينهما فلم يعقل فرعون شيئاً إلا أنه هو إله قومه المعبود بينهم . فلما أثاره موسى بأن يعرض عليه الشىء المبين ، قال فرعون :

« فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ » (الشعراء : ٣١ - ٣٢)

وكذلك كان شأن بنى إسرائيل مع موسى فإنهم بعد أن رأوا من الله فى تأييده هذه الآيات الحسية ، أو هذه الأشياء المبينة التى امتلأت بها أعينهم وخاصة آية انفلاق البحر ، وغرق فرعون ، وعبورهم ناجين مهرولين إلى سيناء ، فإنهم لم يلبثوا أن كفروا برب موسى وعبدوا العجل بينما كان موسى بعيداً يتلقى وصايا الله إليهم . لقد كفروا لأنه حتى الأشياء المبينة فى الآيات لم تنبه عقولهم المغلقة ، وقلوبهم القاسية وذلك حيث يقول الله فى أمرهم :

« وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ » (البقرة : ٩٢)

ويقول الله فيما جبلوا عليه من قسوة عجزهم عن استبانة البيان فى آيات الله الحسية لهم :

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَو أَشَدُّ قَسْوَةً » (البقرة : ٧٤)

أما القسم الآخر من بينات الله وآياته فكان الآيات السمعية العقلية المباشرة للقلب والعقل ، آيات اللسان المبين ، اللسان العربى ، اللسان الذى جعل الله فى آياته البيان ، وبيان البيان ، الذى علمه الله لمن اصطفى لرسالته من عباده ، ليعلم به القرآن ، وليجعل به الحجة فى القرآن ، وليهدى به من هدى بالقرآن .

وفى معنى هذا البيان يقول الله تعالى :

« الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ » (الحجر : ١)

ويقول :

(قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ) (المائدة : ١٥)

ويقول سبحانه فى أثر هذا البيان السمعى على قلوب وعقول من يتذكرون بآياته .

« إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » (السجدة : ١٥)

ويقول حتى فى وعى أهل الكتاب عندما تعربت ألسنتهم وهم يستمعون

إلى الوحى على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فيضىء لهم بيان الآيات القرآنية بالحق والهدى

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ » (المائدة : ٨٣)

عند هذه الدرجة التى يبلغ بها أهل البيان إلى معرفة الحق . والإيمان به ، يتاح لهم بهذا الانتباه من غفلاتهم بالشرك .. والاستمتاع بالحياة.والإخلاد إلى زينة الدنيا فى الأموال والأبناء والأزواج أن ينتبهوا إلى الآيات المبينة الأخرى فى السموات والأرض — فى الآفاق وفى أنفسهم . . . الآيات الحسية أمام البصر . . والقلبية فى أعماق القلوب . . الآيات التى تتجلى لمن علمهم الله البيان وعلمهم القرآن فى كل لمحة عين ، وسبحة فكر . وتسبيحة قلب . إنها آيات مبينة وخالدة خلود بيان الله فى قرآنه لايحتاج معها المؤمنون إلى ما سلف من آيات الرسل السابقين من إحياء الموتى بإذن الله . أو شق البحر . أو الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . . أو الثعبان المبين.

ولعل سائلا يسأل : ماهذا اللسان العربى ؟ ولم كان شأنه هذا الشأن دون الألسنة كلها ؟ ونقول : هذا سؤال يسأله ، من يقول : لم كان الإسلام الدين الذى ارتضاه الله لعباده ؟ ولم كان محمد صلوات الله وسلامه عليه — صفوة خلقه وخاتم رسله ؟ ولاجواب لهذا إلا قول الحق سبحانه :

« ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »
(الجمعة : ٤)

فإن لم يجد السائل مقنعاً فى هذا ، الذى ربما يتأوله على غير هذا المعنى الذى نشير إليه ويصرفه إلى وجه آخر ؛ يراه فيه — فإنا نقول من شواهد الواقع ما لا يستطيع دفعه ، أو يجد سبيلا إلى المماراة فيه .

ونسأله أولا : هل رأى . أو سمع أن كلاماً يقوم منه شاهد ودليل على أنه كلام الله ، وأنه ليس كلام بشر . غير هذا الكلام العربى الذى نزلت به آيات الله وكلماته ؟

لقد كانت آيات الرسل إلى أقوامهم . وشاهد صدقهم على أنهم مبعوثون من عند الله ، شيئاً آخر كما ذكرنا غير هذا الكلام . فإذا طالبهم أقوامهم بالآيات الدالة على صدقهم ، أمدهم الله تعالى بآيات حسية يراها الناس رأى العين ، كطوفان نوح وريح عاد .. وصاعقة ثمود . وناقة صالح. وعصا موسى . وهكذا .

فهل كان مع محمد — صلوات الله وسلامه عليه — شيء من هذا ؟ وهل كان معه غير آيات الله المنزلة بكلام عربى مبين ؟

إنها آيات الله ، محمولة فى هذا البيان العربى ، سمعها أرباب البيان العربى ، فخشعوا لها ، وأسلموا بين يديها ، وقالوا فيها ما قالوا ، إلا أن يقولوا إنها من معدن كلامنا الذى نعهده ، وإن كنا لا نجد فى نظمه ما هو غريب عنا ، خارج عن لساننا . إنه من لساننا ، ولكننا لاندرى ما السر الذى قصرت أيدينا عنه ، وعجز شعراؤنا وخطباؤنا عن الإتيان بسورة من مثله فكانوا فى هذا على مذاهب شتى ، وعلى أقوال متضاربة فيه . فقال قائلهم :

« إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » (المدثر :٢٤)

وقال آخرون :

« إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ » الفرقان : ٤

وقالوا ، كبراً وعناداً ، وهم يعلمون علم اليقين ، أنه كلام الله ، ليس للبشر إليه سبيل ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى لنبيه الكريم :

« فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » (الأنعام : ٣٣)

ومن هنا كانت كلمات القرآن الكريم آيات ، أى دلائل وشواهد دالة على أنها كلمات الله وآياته ، كما يقول سبحانه :

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ » (الحجر : ١)

وكما يقول سبحانه :

« وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ • يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (الجاثية :٧–٨)

ولهذا أضاف الله سبحانه وتعالى هذا الكلام الكريم إلى ذاته سبحانه ، وجعله حجة قائمة على عباده ، إذ يقول سبحانه :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ » (التوبة : ٦)

فاللغة العربية ، هى وحدها دون سائر ما عند الناس من لغة ، هى التى تخيرها الله سبحانه لتكون آيات بينات ، تقوم منها وحدها الحجة العقلية والقلبية على الناس بمجرد تلاوتها ، وإسماعها لمن يحسن الفهم عنها . .

« وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ » (الكهف : ٢٧)

ومن هنا ، تولى الله سبحانه حفظ كتابه الكريم من أن تبدل كلماته ، أو تحرف آياته ، كما قال تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الحجر : ٩)

فإنه على كثرة ماحاول أعداء الله ، وأعداء دين الله ، أن يبدلوا كلمة من كتاب الله ، فلم تبدل منه كلمة ، ولم يغير منه حرف . بل ظل وسيظل إلى يوم الدين محفوظاً بحفظ الله تعالى له ، على حين دخل التبديل والتحريف فى الكتب السماوية السابقة ، كما يقول الله تعالى فى شأن اليهود . وما أدخلوه على التوراة من تحريف وتبديل :

« قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيرًا » (الأنعام : ٩١)

ولعل سائلا يسأل : لم حفظ الله تعالى القرآن الكريم ، ولم يحفظ سائر كتبه المنزلة ، وكلها من عند الله ؟ . والجواب على هذا : أنه سبحانه قضت حكمته أن ينسخ الديانات السابقة بالقرآن الكريم ، وبالدين الإسلامى

الذى جاء ديناً للإنسانية كلها ، ولهذا جعل سبحانه هذا الكتاب . مصدقاً لهذه الكتب ومهيمناً عليها . كما يقول سبحانه :

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ » (المائدة : ٤٨)

ومعنى تصديق القرآن الكريم للكتب السابقة : أن ما جاء فيها مخالفاً له . فهو مدخول على هذه الكتب ، وليس من عند الله ، وهذا هو معنى الهيمنة . . ولهذا لم يقل الله تعالى عن الكتب السابقة إنه حافظ لها من التحريف والتبديل . كما قال عن القرآن الكريم :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الحجر : ٩)

بل جعل سبحانه حفظ هذه الكتب منوطاً بأهلها فهم مسئولون ومحاسبون على حفظها أو تحريفها . وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

« إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ »
(المائدة : ٤٤)

ففى قوله تعالى :

« والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ »
(المائدة : ٤٤)

إشارة إلى أن هؤلاء الربانيين والأحبار هم الحفظة على ما بأيديهم من كتاب الله ، وأنهم أمناء على هذا ، فإذا ضيعوا هذه الأمانة حوسبوا على ذلك حساب الخائنين لأمانات الله . ولقد خانوا الأمانة وبدلوا ما أنزل الله على رسلهم . ولهذا أيضاً ، ذهبت صحف إبراهيم ، ولم يعد لها أثر ، وما ذلك إلا بتضييع أهلها لها . كما يقول الله تعالى :

« إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى »
(الأعلى : ١٨ ، ١٩)

وإذا كانت هناك بقية محرّفة من صحف موسى ، فإنه لم يبق من صحف إبراهيم شيء ، محرفاً كان أو غير محرف .

وهذا كما قلنا — دليل على أن القرآن الكريم هو الذى اقتضت حكمة الله تعالى ، أن يكون الوارث لكتب الله جميعاً ، والحامل لدينه الذى ارتضاه لعباده والذى يقول الله تعالى فيه :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ » (آل عمران : ١٩)

ويقول سبحانه :

« وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (آل عمران : ٨٥)

لقد بقى القرآن فى حكمة الله لأن بيانه فوق أن يبلى أو أن ينحل وهو من الله كلامه ، وفى الناس هديه ونوره. وإذا كان هذا هو الحق — وهو حق إن شاء

الله — فإن اللغة العربية هى الضمان الوثيق لبقاء القرآن الكريم معلماً للحق ، ومعراجاً لدين الله ، وأنه إذا تبلبل اللسان العربى أو استعجم ، أو ضاع بين اللغات والألسنة — وهذا ما لا يكون إن شاء الله — فإنه لا إسلام ، ولا دين لله على هذه الأرض . . إذ لا إسلام بغير كتاب الله ، ولا دين لله إلا الإسلام . ولاسبيل إلى كتاب الله ، ولا دين لله إلا باللغة التى نزل بها كتاب الله .

ومن هنا كان تعلم اللغة العربية فرضاً واجباً على كل مسلم ، تعلماً يصله بكتاب الله ، إذ لايتم الاتصال بكتاب الله إلا بها ، ولايستدل على دينه إلا بها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولهذا كانت لفتات القرآن الكريم إلى هذه اللغة الشريفة فى كثير من آياته ، كما فى قوله تعالى لرسوله الكريم :

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » (الزخرف : ٤٤)

والذكر لقول الرسول الكريم ، إنما هو لما فيه بقاء لهم على الزمن ، مابقى كتاب الله ، ومابقى مسلم يدين بدين الله ، ويتلو آيات الله ، متعبداً ، وذاكراً ، إذ لا تعبّد ولا ذكر لمسلم إلا باللسان العربى المبين .

يقول ابن تيمية : إن اللسان العربى شعار الإسلام وأهله — ذلك أن اللسان الذى اختاره الله عز وجل لسان العرب ، فأنزل به كتابه العزيز ، وجعله لسان خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم . . ولهذا نقول : ينبغى لكل أحد يقدر على تعلم اللغة العربية أن يتعلمها ، لأنها من دينه . قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من يحسن أن يتكلم العربية ، فلا يتكلم بالعجمية ، فإنه يورث النفاق) يعنى أن لا تكون العجمية لساناً قومياً له ! .

ومعنى أن ذلك يورث النفاق لأن فيه إيثاراً لغير العرب على العرب ، وولاء لغير اللسان الذى خاطبه الله تعالى به ، وجعله محمل دينه وشريعته . فإيثار غير اللسان العربى ولاء لهذا اللسان ، ومجافاة للسان العربى ، والله تعالى يقول فيمن يتولى غير المسلمين :

« وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

(المائدة : ٥١)

وفى الأثر : (من أحب قوماً حشر معهم) وعن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أنه كان يقول : (ماتعلم الرجل الفارسية إلا خَبَّ) فى المعجم الوسيط : خب ، خدع وغش ، فهو خِبٌّ بكسر الخاء وفى الحديث (لايدخل الجنة خب ولا خائن) وفى المثل (ليس أمير القوم بالخب الخدع) ، ولا خب رجل إلا نقصت مروءته) ولم يقصد عمر رضى الله عنه الفارسية بالذات وإنما خصها بالذكر لأن الدولة الفارسية كانت قد دخلت فى الإسلام ، ودخل الفرس فى دين الله ، وخالطوا المسلمين ، فخشى عمر أن يغلب اللسان الفارسى ، وتدخل العجمة على اللسان العربى ــ وحكم أى لسان غير اللسان الفارسى ، هو هذا الحكم .

يقول ابن تيمية :

(ولهذا كان المسلمون المتقدمون . . لما سكنوا أرض الشام ، ومصر ، ولغة خاصتها رومية وأرض العراق وخراسان ولغة أهلها فارسية ، وأهل

المغرب ولغة أهلها بربرية — عودوا أهل هذه البلاد العربية حتى غلبت عليهم بلسانها مسلمهم وكافرهم — وهكذا كانت خراسان قديماً — أى تحسن اللسان العربى فى الصدر الأول للإسلام — ثم إنهم تساهلوا فى أمر اللغة ، واعتادوا الخطاب بالفارسية . حتى غلبت عليهم ، وصارت اللغة العربية مهجورة عند كثير منهم) ثم يقول ابن تيمية : (واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر فى العقل ، والخلق ، والدين تأثيراً قوياً بيناً . ويؤثر أيضاً فى مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين . ومشابهتهم تزيد العقل والدين ، والخُلُق . . واللغة من الدين ، ومعرفتها فرض واجب . فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم الكتاب والسنة إلا بفهم اللغة العربية . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) .

وكتب عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — إلى أبى موسى الأشعرى ، كتاباً يقول فيه : (أما بعد فتفقهوا فى السنة ، وتفقهوا فى العربية ، وأعربوا القرآن ، فإنه عربى) .

وعن عمر رضى الله عنه إنه كان يقول : (تعلموا العربية فإنها من دينكم ، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم) .

ويعلق ابن تيمية على قول عمر هذا ، فيقول :

(وهذا الذى أمر به عمر رضى الله عنه من فقه العربية ، وفقه الشريعة ، يجمع كل ما يُحتاج إليه . . لأن الدين فيه فقه أقوال وأعمال ، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله . وفقه السنة ، هو الطريق إلى فقه أعماله) .

فالترخص فى فقه اللغة العربية . وفى إتقان اللسان العربى ، هو ترخص فى الدين . وقد يبلغ حد الاستخفاف به ، والنفاق فيه .

ونعود ، فنتلوا قوله تعالى :

« الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »

(الرحمن : ١ - ٤)

فنبصر على ضوء هذا البيان المنير أن تعليم القرآن هو النعمة العظمى التى لبس به الإنسان ثوب الإنسانية الكريم ، فكان اختصاصه بهذا الخلق رحمة تتجلى بها عليه رحمة الرحمن . .

ثم إنه لاسبيل لهذا الإنسان إلى تعلم القرآن الكريم إلا إذا تعلم البيان ، ولاسبيل إلى تعلم البيان الذى حمله القرآن إلابتعلم اللسان العربى . وفقه اللغة العربية .

فإذا كان هذا هو شأن اللغة العربية فى وصل الإنسان بالقرآن . وفى إلباسه منه ثوب الإيمان ، حتى يكون هذا المخلوق الذى خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم — فما بالنا لا نعطى لغتنا العربية مكان الإعزاز والإكرام من نفوسنا . ومابالنا نغفل عن دراستها دراسة فاقهة واعية ، تقربنا من كتاب الله الكريم . وتيسر لنا سبيله الذى يسره الله تعالى لكل من ذاق العربية ، وعرف طعوم بيانها وبلاغتها .

ثم مابال كثيرمنا إذا عرف لساناً أعجمياً ، أكل لسانه العربى . أو ستره كما يستر المؤمن عورته .. فلا ينطق إلا بالعجمة يلوكها بلسانه . ويتراطن بها مع صغاره وخلانه ، ويعدهابعض متاعهالذى استجلبه من بضاعة الغرب .

وعده من ذخائره التى يباهى بها ، ويملأ العين منها ؟ وإذا كنا لا نحرّم تعلم اللغات الأعجمية ، ولا نحجُر على المسلم أن يتعلمها — فإن الذى نحرمه . هو أن تخلى اللغة العربية مكانها من لسان المسلم ، وألا تكون لسانه الأثير عنده . والذى يخالط عقله ، ومشاعره ، ويترجم عن أفكاره وخواطره . . فإن المسلم الذى يستبدل اللسان العربى باللسان الأعجمى ظالم لنفسه ، بعيد عن دينه . بعده عن اللسان الذى يترجم عن هذا الدين .

وأكثر ما أفسد على الناس دينهم ، سوء فهمهم لآيات الله . وإقامة هذا الفهم على غير ماعرفت العرب من أساليب بيانها . وذلك عن جهل باللغة العربية . وأساليب مخاطباتها — ولهذا كانت فتنة الخوارج . ناجمة عن هذا الفهم القاسد لقوله تعالى :

« إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » (الأنعام : ٥٧)

فقالوا لعلى كرم الله وجهه حين رضى بالتحكيم بينه وبين معاوية فيما نشأ بينهما من خلاف ، وقتال قالوا : لاحكم إلا لله . متأولين قوله تعالى :

« إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ »

فخرجوا على المسلمين ، وصاروا فرقة شقت عصا الجماعة ، وعاثت فى الأرض فساداً ، تقتل كل من تلقاه من المسلمين ، باعتباره كافراً . .

وقد ذهل هؤلاء الضالون عن معنى الآية الكريمة وعن النظر فى مثل قوله تعالى :

« فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا » (النساء : ٣٥)

وقوله سبحانه :

« يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ » (المائدة : ٩٥)

فعمموا حين كان يجب التخصيص . وما ذلك إلا عن سوء فهم لأساليب البيان العربى ، الذى جاء القرآن جارياً عليها . . لهذا كان تعلم العربية . والتفقه فيها . هو من دين الله . .

عن الحسن البصرى — رضى الله عنه — أنه قيل له : أرأيت الرجل يتعلم العربية . ليقيم بها لسانه ، ويقيم بها منطقه ؟ قال : نعم . فليتعلمها ، فإن الرجل يقرأ بالآية ، فَيَعْيِيه توجيهها ، فيهلك .

وقال رضى الله عنه أيضاً : (أهلكتكم العجمة ، تتأولون القرآن على غير تأويله) .

* * *

السؤال الثانى :

الى أى حد يظهر فى كتاب الله أن اللغة العربية مقوم أساسى لتوجيه قابليات الفطرة السليمة الى الايمان العملى ، والى وعى رسالة الله الخالدة بهذا الكتاب ؟

اشرح مزايا اللغـــة العربية من واقع القرآن الكريم على غيرها من لغات الأمم ، واشرح ما بين التعريب اللغوى والوعى الاسلامى من ترابط عضوى ، وتلازم أبدى فى حياة المؤمنين فى كل زمان ومكان ؟

الإجـــابة :

نزل الكتاب الكريم بلسان عربى مبين ، ولحكمة بالغة ، وتدبير حكيم اقتضت إرادة الله تعالى أن يختار لدينه الذى أراده سبحانه ، ليكون الدين الخالد على الزمن . الجامع للإنسانية كلها ، والخاتم لرسالته إلى عباده — اقتضت إرادته تعالى أن يختار لهذا الدين اللغة العربية ، لتكون لسان هذا الدين ، ومحمل شريعته .

اللغة والرسالة :

ما الحكمة فى أن يختار الله اللغة العربية لتكون محمل رسالته الجامعة الخاتمة إلى الناس جميعاً ؟

والجواب عن هذا السؤال كما أرى من وجوه :

أولا — هذه اللغة هي نتاج أمة . نبتت في بيئة صحراوية فطرية . لم تعبث بها يد الإنسان ، ولم تصطبغ بغير صبغة الله التي أوجدها عليها ، فتواءمت فطرة هذه الأمة ، التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها ، مع فطرة الأرض التي أقلتها والسماء التي أشرقت عليها ، وبهذا ظلت هذه الأمة محتفظة بفطرتها . التي لم يدخل عليها تمويه أو تزويق ، إلا في القليل النادر الذي لم يغير من جوهر الفطرة شيئاً .

ثانياً : أن السلوك الخلقي ، والعملي لهذه الأمة ، كان من البيان والوضوح ، على الصفة التي كانت عليها البيئة الصحراوية من وضوح كل شيء فيها ، وظهوره للعيان . . فليس هناك في هذه البيئة شيء يحجبه شيء . . فكانت الصراحة ، وكان الصدق ، هما المورد الذي يرده العربي ، والنبع الذي يستقي منه .

ثالثاً : وتأسيساً على هذا لم يلعب الخيال بالعقل العربي ، ولم يبعد به عن أرض الواقع الذي يعيش فيه . ولم يلبس حقائق الأشياء ثوباً غير ثوبها الذي خلقه الله عليها . . ومن هنا لم يخلق العربي عالماً خيالياً يعيش فيه ، ولم يقم على مسرح حياته مسرحاً كالمسرح اليوناني يتصارع فيه الآلهة التي اصطنعها خياله . لتتولى عنهم دفع الشرور المتزاحمة عليهم . ولتجلب لهم الخير الذي قصرت أيديهم عنه . . هذا على خلاف العربي الذي يواجه الحياة بخيرها وشرها ، ويلقاها وحده بما معه من حول وقوة فإن انتصر لم يبطره النصر ، لأن بين يديه معارك كثيرة مع الحياة لم

يدخلها بعد ، وإن انهزم لم يلق بسلاحه ، ولم يول هارباً فإن عدوه لن يرحمه ، ولا مهرب له منه .

هكذا العربى فى صحرائه ، وفى تعامله مع الحياة فى بيئته تلك . . إنه لا يخرج أبداً من الواقع ، ولا يهرب من قسوة الحياة بالأمانى الباطلة ، وبالخيال الكذوب . وحتى فى أحلامه إذا طرقه فى نومه خيال يلقى بمراسيه على شاطىء الأمن والدعة ، لم يقبله ، ويتأبى عليه أن يزحزحه من معركة الحياة الدائرة بينه وبينها . يقول شاعرهم :

إِلَى اللهِ أَشْكُوا أَنَّنِي كُلَّ لَيْلَـةٍ   إِذَا نِمْتُ لَمْ أَعْدَمْ طَوَارِقَ أَحْلَامِ
وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَهْوَ لَاشكَّ وَاقِعٌ   وَإِنْ كَانَ خَيْراً فَهْوَ أَضْغَاثُ أَحْلَامِ

وليس هذا عن نظرة تشاؤمية ، ولكنه الواقع الذى لابد من لقائه ، ولقاء الحياة معه ، وإن كان مر المذاق . . إنه لا يقلب وجه الحقيقة ، ولا يصبغه بلون غير لونه ، فذلك شأن الضعفاء الجبناء ، الذين ينسجون من الأوهام حياة يسكنون إليها ، وإنها لأوهى من بيت العنكبوت .

وإذا دعت العربى رغبة ليشرب خمراً ، فليس ذلك ليغطى عقله ، وليقربه من الواقع الذى يعيش فيه ، وإنما هى حال يدعوه إليها إكرام الضيف فى الشتاء القارس ، أو ساعة لهو مع أقران شباب ، يفىء فيها إلى ظل شجرة لحظة من لحظات حياته ، ثم لا يلبث أن ينقشع عنه هــذا الظل ، وإذا هو فى سموم الهواجر ، وتحت وهج الشمس . . يقول شاعرهم :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُـدَا   مَةِ بِالصَّغِيرِ وَبِالْكَبِيـرْ
فَـإِذَا سَـكِرْتُ فَـإِنَّنِى   رَبُّ الْخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيـرْ
وَإِذَا صَحَـوْتُ فَـإِنَّنِى   رَبُّ الشُّـوَيْهَةِ وَالْبَعِيرْ

ويقول عنترة :

وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِى مُسْتَهْلِكٌ   مَالِى ، وَعِرْضِى وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ

إنه الواقع الذى لا مفر منه ، ولا مهرب منه إلا إليه !

وثالثاً : اللغة التى يتعامل بها العربى مع الحياة ، هى لغة الصدق مع النفس ، ومع الحياة، فلا يقول إلا الكلمة التى تنقل مشاعره كما هى . والتى تصور حقائق الأشياء كما هى . .

يقول امرؤ القيس فى وصف ظاهرة من ظواهر الطبيعة النادرة التى كانت — إذا وقعت — تهتز لها الحياة ، وتتبدل وجوهها . . وذلك عندما ينزل المطر أو الحيا ، فتتدفق الحياة فى الكائنات كلها من جماد ونبات وحيوان . .

يقول امرؤ القيس فى هذا :

أَصَاحِ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَهُ   كَلَمْعِ الْيَدَيْنِ فِى حَبِىٍّ[1] مُكَلَّلِ

وَالْبَرْقُ هو أول مبشرات هذا الغيث المرتقب فلْتَتَهيأ الحياةُ لاستقباله

(1) الحبى : السحاب المتراكم . والمكلل: الذى ركب بعضه بعضا .

قعدت له وصحبتى بين ضارج[1] وَبَيْنَ الْعُذَيْبِ بعد مَا مُتَأَمَّلى

فأَضْحَى يَسِحُّ الماءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ[2] يَكُبُّ عَلَى الأَذْقَانِ دَوْحَ الْكَنَهْبَلِ

كأَنَّ ثَبِيرًا[3] فى عَرَانِينِ وَبْلِهِ كَبِيرُ أُناسٍ فِى بِجَادٍ مُزَمَّلِ

كأَنَّ مُكَاكِىَّ[4] الجَواءِ غُدَيَّةً صُبِحْنَ سُلافًا من رَحِيقٍ مُفَلْفَلِ

كأَنَّ السِّباعَ فيه غرقَى عَشِيَّةً بِأَرْجائه القُصوَى أَنابِيشُ[5] عُنْصُلِ

فهذه الصورة التى رسمها امرؤ القيس بكلماته لهذه الظاهرة الفريدة النادرة ، هى صورة تطابق الواقع تمام المطابقة ، بلا تهويل ، ولا تخييل . .

فامرؤ القيس هنا ، يرى هذا المشهد النادر فى الصحراء ، وهو نزول المطر ، وانسكاب الغيث ، فلا يرى أن ينفرد بهذا الخير الذى زغردت به نفسه ، بل يهتف بصاحب له ، يدعوه إلى مشاركته هذا العيد الذى لبست له الطبيعة أجمل أثوابها . .

ثم يأخذ امرؤ القيس فى وصف هذا المطر المنهمر ، وما استقبلته به الطبيعة من فرحة غامرة ، هى فرحة العافية بعد المرض ، والصحة بعد الاعتلال ..

---

(١) ضارج والعذيب : موضعان .
(٢) كتيفة : اسم مكان . ودوح الكنهبل : شجر عظيم .
(٣) ثبير : اسم جبل ، والعرانين : جمع عرنين وهو الأنف .
(٤) المكاكى : ضرب من الطير . والسلاف : الخمر .
(٥) الأنابيش : أصول النبت : والعنصل : البصل البرى .

فهذا الغيث قد بات إلى الصباح يسكب الماء مدراراً ، حتى إنه يميل بالشجر العظيم ، ويكبه على وجهه .. وهذا ثبير . ذلك الجبل العظيم ، قد غطاه الماء ، فبدا كأنه رجل ضخم الهامة ، عظيم الجسم . قد تَلَفّفَ فى برده . وغطى به رأسه .

وهذه طيور المكاكى ، قد صفت أجنحتها . وفتحت أفواهها ، لتستقبل هذا النسيم العطر بعد المطر ، فتنتشى به ، وتسكر منه .

وهذه السّباع والوحوش ، قد دخل عليها الماء فى وكناتها وأوكارها ، فغرست أظفارها ومخالبها فى الأرض ، حتى لا يجرفها السيل ، ويغرقها فى محيطه .

إنها صورة بالكلمات ، تعجز الآلات المصورة ، من سينمائية ، وتليفزيونية وغيرها عن أن تمسك من تلك المشاهد ، ما أمسكت به الكلمات ، من آيات هذه الظاهرة الفريدة ، التى بعثت الحياة فى الجماد ، والنشوة فى الأحياء .

ورابعاً : إن العرب فى هذه البيئة التى أمسكوا أنفسهم عليها ، وشدوا وجودهم بها ، لم يجدوا فى الحياة التى بين أيديهم شيئاً تستجيب له مشاعرهم من تلك الفنون التى يتخذ منها غيرهم متنفساً لمشاعرهم ، ومنطلقا لأحاسيسهم .. فلم يشتغلوا بالنحت ، أو الرسم ، أو التمثيل ، أو غير ذلك مما استغرقت فيه كثير من الأمم جهدها ونشاطها ..

فالنحت مثلا ، ومادته بين يد العرب ، من صخور وأحجار ، لم

تستجب له نفوسهم ، فلم يحاولوا أن يشغلوا أنفسهم بصنع التماثيل للأشياء أو الأشخاص لأن ذلك — كما وقع فى تفكيرهم — صورة ميتة للحقيقة الماثلة بين أعينهم ، وهذا زيف وقلب لحقائق الأشياء .. وكذلك الشأن فى الرسم والتمثيل .. إن واقع الأشياء هو أصدق وأدق من كل مثال ، أو رسم ، أو تمثيل له .

وهكذا نفض العرب أيديهم من كل هذا ، واستغنوا بالأصل عن الصورة . وبالحقيقة عن مشابهها . وفى العرب مشاعر متدفقة ، وأحاسيس مرهفة لابد من إخراجها من عالم المشاعر والأحاسيس الحبيسة فى صدورهم . إلى عالم الواقع ، وإلا فار فائرها واشتد غليانها ، وأحدثت انفجاراً مزلزلا يهد كيان صاحبها إذا لم تجد متنفساً لها إلى خارج ذاته ، وإذا لم تولد كما تولد الأجنة عند تمام حملها فى بطون الأمهات .. فلم يكن .. والأمر كذلك — غير الكلمة يحمّلها العربى مشاعره ، وينفض فيها أحاسيسه وخواطره وأفكاره ..

ومن هنا كانت الكلمة العربية عالماً يضم فى كيانه كل ما استودع العرب فى قلوبهم وعقولهم من مشاعر ، وأحاسيس ، وعواطف ، ومدركات ، وتصورات .

فالكلمة العربية محملة بطاقات كبيرة من المعانى ، والمشاعر ، والأحاسيس ، والتصورات .. إنها تحمل فى كيانها كل ما يطوف بعالم الإنسان الداخلى من مسارب الخواطر .. ومجالى الأفكار ، وشتّى النوازع . أما كيف انفردت الكلمة العربية بهذا من بين اللغات ، فذلك ما فرضته

الحياة البدوية على أهل البادية إذ لم يكن معهم غير الكلمة من زاد يتزودون به فى رحلة تلك الحياة القاسية . يستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم .. فهى الكنز الذى أودعوه كل ما مخضوه من تجارب الحياة ، وما اصطادوه من مسرح الفكر . . فلا عجب أن عرفوا للكلمة وزنها وقدرها فالكلمة عندهم عهد تسترخص النفوس من أجل الوفاء به . وميثاق لا ينقض وعقد لا يحل عقدته أبدا .. إنها كلمة تخرج من الفم دون أن توثق بكتابة . أو يقوم عليها شهور ، وعلى هذا فهى أوثق من كل ما يقوم بين الأفراد والدول من عهود ومواثيق ، مكتوبة ، معلنة على رؤوس الأشهاد .. ومن أجل هذا القدر العظيم للكلمة عند العرب ، كان البيت من الشعر يرفع القبيلة أو يخفضها ، ويعز الرجل أو يذله ويخفض رأسه بين الرجال .

ولا نسوق الأمثال لهذا من الكلمة التى أسعدت قبيلة أو أشقتها .. فديوان الشعر العربى ، والأدب العربى كله ملىء بهذه الأمثال والشواهد ..

ولاشك أن هذا سر من أسرار نزول القرآن الكريم باللسان العربى ، لا ليحمل الشريعة الإسلامية وحدها ، وإنما ليحملها ويحمل معها الآيات البينات التى تشهد له بأنه كلام الله رب العالمين ..

فما شهدت الحياة قبل نزول القرآن الكريم ، ولا بعد نزوله ، ولا إلى أن يقوم الناس لرب العالمين آية خالدة مثله تقوم من أى كلام ، وإن بلغ صاحبه القمة فى البلاغة والبيان ..

إن أى كلام خرج من فم بشر — أيا كانت بلاغته . وأيا كانت محامله من المعانى — تظهر عليه دائما بصمات البشرية ومن هنا تنزع النفوس إلى مجاراته ، وإلى مساماته حيناً ، وإلى سبقه أحياناً ، ولم يوجد ولن يوجد الكلام الذى تنقطع آمال الناس مع وعيه عن مجاذبته أو محاكاته .

أما هذا الكلام القرآنى الربانى العربى ، فهو الكلام الذى أسلم الناس قيادهم له ، ووقفوا بين يديه فى عجب ودهش ، يجدونه قريباً منهم ، تجرى كلماته على ألسنتهم ، فإذا أرادوه على هذه الصورة من النظم وجدوا أن الشمس أقرب إلى أيديهم منه .

ولقد تحدى القرآن الكريم من نسبه من العرب لغير الله ، أن يأتى شعراؤهم أو حكماؤهم أو كهانهم بسورة من مثله ، فما وجدوا إلى ذلك سبيلا وهم يعلمون أنه الحق وإن كابروا فيه . ولو أنهم حاولوا محاكاته ودولتهم غالبة ، ويدهم آخذة بمخانق القلة القليلة من المسلمين يومئذ — لو أنهم فعلوا هذا لقطعوا حجة الرسول عليهم بأنه رسول من عند الله ، بهذا الذى يتلوه عليهم من آيات الله ، ولا ينتهى هذا الصراع المرير الذى أريقت فيه الدماء وأزهقت الأرواح ، ولكن كيف يفعلون ذلك وهم لو فعلوه لكانوا بعلم بيانهم أول من يسخر مما يقولون ، وفى هذا يقول الله تعالى :

« وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىَ عَبْدِنَا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّنْ دُونِ اللهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ • فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ

تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّار الَّتِى وَقُودَهَا النَّاس وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »
(البقرة : ٢٣ ، ٢٤)

وخامساً : فإن هذه اللغة التى نزل بها القرآن الكريم ، إنما تلقاها أهلها ، الذين هم أعرف الناس بها وبمذاقاتها . فكان المشركون مع شركهم ، وعنادهم وتطاولهم بتكذيب الرسول الكريم — كانوا إذا استمع أحدهم إلى آية أو آيات من كتاب الله — خشعوا بين يديها ، وغشيهم الجلال من جلالها ، وإذا هم لكبر فى صدورهم يكذبون ما وقع موقع اليقين فى قلوبهم ، ولا يملكون إلا التهرب من أنفسهم بقولهم :

« إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ » (المدثر : ٢٤)

« لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ » .
(الأنفال : ٣١)

يروى أن الوليد بن عتبة ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، موفداً إليه من قريش يعرض عليه ما يشاء مما تبذله له قريش من جاه ، ومال ، وسلطان ، على أن يمسك عن دعوته .. فلما جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليه ما عرض ، قال له الرسول الكريم : أفرغت ؟ قال : نعم — قال صلى الله عليه وسلم ، فاسمع : ثم تلا عليه الرسول الكريم الآيات الأولى من سورة فصلت حتى إذا وصل إلى قوله تعالى :

« فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »

(فصلت : ١٣)

فقام الوليد من غير وعى ، فوضع يده على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يمضى فى تلاوة الآية إلى آخرها . لقد تمثلت للوليد فى هذه الكلمة أنها رسل من عند الله ، تحمل بين يديها نذر الصواعق والمهلكات التى أخذ الله تعالى بها عاداً وثمود ، وقد رأى العرب ، ورأى الوليد ما تركت هذه الصواعق وراءها مما لم تتركه القنابل الذرية فيمن يرمون بها ! ! وفى هذا يقول تعالى :

« وفى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ » . (الذاريات : ٤١ ، ٤٢)

ويقول جل شأنه :

« وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » . (الحاقة : ٦ ــ ٨)

هكذا كان المشركون فى أول لقائهم لآيات الله مع ما تحمل نفوسهم من كبر وعناد ــ فى وجه هذا النبع المتدفق الرقراق ــ لقد ظل هذا النبع السلسال يغادى تلك النفوس المستكبرة ويراوحها زمناً ، وهو فى كل يوم ينخر فى غفلاتها ، ويفتت من كبريائها وهو مع هذا

فى كبرهم وعنادهم ، حتى إذا كشف عن زيف هذا الكبر والعناد ، واطمأن إلى أنهم لابد يوماً يتخلون فيه عن موقفهم هذا ، ويخلون الطريق إلى هذا النبع ليأخذ مجراه ، وليحيى موات النفوس والقلوب — أخذ له مجرى آخر نحو المدينة وهناك كان عصبه الذى اجتمع عليه المسلمون ، وقامت دولة الإسلام ، ثم لم يلبث أن عاد إلى مجراه الأول ، وإذا الصخور قد اقتلعت ، والأحجار قد تفتتت ، فأسلم من بقى من المشركين ، ودخلوا فى دين الله ، ودخل معهم الناس فى دين الله أفواجاً — هكذا كانت العربية طريقاً مشرقاً هادياً عبرته الرسالة إلى قلوب أهل الدعوة وأشرقت بها كلمات الله فى عقولهم وعمرت بها أنفسهم وإذا القوم آيات من آيات الله فى العلم . والخلق ، والتضحية فى سبيل الله ، والدفاع عن دين الله قد صدق قوله تعالى وهو يعدهم لهداية البشر :

« مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » (الحج : ٧٨)

اللغة وهداية البشر :

ذلك هو فضل اللغة العربية على العرب ، فيما حصّلوه من هذا الخير المنزل من السماء ، وإنه لولا تمكنهم من هذه اللغة ، تمكن الخبير البصير ، لما كان لهم أن يصلوا إلى شىء ذى أثر مما بلغوه وخلفوه وراءهم من آثار فى كل موقع من مواقع الحياة ! .. ومن هؤلاء العرب المؤمنين

من صحابة محمد صلى الله عليه وسلم وحفظة القرآن انتقل فضل هذه اللغة إلى هداية من حولهم من البشر .

لقد أدرك الذين دخلوا فى الإسلام من غير العرب ، فضل اللغة العربية على هذه الأمة ، وأنها لولا اللغة التى تناولت منها ، وبها هذا الخير العظيم المنزل فى كتاب الله ، لما كان لها أن تخرج من عالمها الضيق المحدود ، إلى هذا العالم الرحب الفسيح الذى استجاب لها ، واستظل بسلطانها ..

ولهذا أقبل هؤلاء الذين دخلوا فى دين الله من غير العرب – على تعلم اللغة العربية ، وتوفروا على دراستها ، وأفرغوا لذلك جهدهم ، ورصدوا له السنين الطويلة من حياتهم حتى أصبحوا من أهلها ، بل وقضى كثير منهم شطراً كبيراً من حياته متنقلا فى البادية ، يبيت فى الخيام ، ويحيا حياة البدو ، ويضيف حياته إلى حياتهم ، حتى يولد ميلاداً عربياً بدوياً بينهم . ويكفى أن نشير ها هنا إلى إمام من أئمة النحو واللغة هو سيبويه واضع كتابه (الكتاب) فى النحو الذى يعتبر الأم للنحو العربى . وسيبويه هذا فارسى أحسن الأخذ عن أساتذته العرب مثل الخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء ، وكما نشير إلى إمام عظيم من أئمة الفقه ، وهو الإمام أبو حنيفة النعمان ، أحد أصحاب المذاهب الأربعة وأشهرهم وهو فارسى أيضاً ..

ونخلص من هذا إلى القول بأن اللغة العربية هى الطريق . لا طريق غيره – إلى كتاب الله ، وهى الوسيلة – لا وسيلة غيرها – لمن يريد

أن يتحقق من حقائقه ويطمئن قلبه بها ، وتستجيب جوارحه لها ، ويتجاوب كيانه كله معها ..

وإنه ما خف وزن الدين عند كثير من الناس إلا لأنهم لا يحسنون اللغة التي يتلقون منها ما فى كتاب الله من هدى للبصائر ، وشفاء لما فى الصدور ، فكان تلقيهم لحقائق هذا الدين بعقول غير عقولهم ، وبنظر غير نظرهم ، وشتان بين من يتغذى بفمه ، ويهضم بمعدته ، وبين من يتغذى تغذية صناعية .. إنه يحيا بهذه التغذية ولكنه لا يعرف للحياة الحقيقية طعماً ..

اللغة وحياة العصر :

هذا ، وتثار مشكلة يعلو غبارها بين الحين والحين ، عن قصور اللغة عن مجاراة الحياة المعاصرة ، التي ازدهرت فيها العلوم ، وتنوعت الفنون ، وكثرت المصطلحات العلمية والفنية التي لا مكان لها في قاموس اللغة العربية .. وإنه لكي يعيش العرب عصرهم . ولكي يشاركوا فى هذه العلوم والفنون — عليهم أن يغيروا من قاموس هذه اللغة ، وأن يدفنوا الكلمات التي لم يعد لها حياة فى هذا العصر ، وأن ينقلوا إليها من لغة الغرب كل ما جد عند القوم من مسميات ، ومصطلحات كما ينطق بها أهلها ، حتى يتم التلاقى والتفاهم مع أرباب هذه العلوم والفنون .. هكذا يقولون :

ولو أن هذا الأمر قد تم على وجهه ، لغربت شمس اللغة العربية ،

ولغرقت فى طوفان هذه الكلمات والمصطلحات الأعجمية الواردة عليها — ثم لأصبحنا وقد استغلق علينا فهم كتاب الله وتقطعت بيننا وبينه السبل ، ولصار حالنا كحال أى أعجمى ينظر فى المصحف الشريف أو يستمع لما يتلى من آيات الكتاب الكريم ! !

ونقول لهؤلاء الذين يتهجمون على اللغة العربية ، ويرمونها بالعقم والجمود ، نقول لهم : إن العيب ليس فى هذه اللغة التى وسعت كتاب الله والتى وسعت المدنيات والحضارات التى وجدتها بين يديها ، يوم كان المسلمون أصحاب الدولة والسلطان . كما وسعها أن تجدد هذه الحضارات وتصحح مسارها .. إن اللغة بأهلها ، فلو أن الأمة العربية اليوم كانت هى التى صنعت هذه الحضارة المعاصرة ونازعت الغرب علومه وفنونه ، لكانت اللغة العربية هى اللسان الذى ينطق بما أحدثوا من علم ، وما كشفوا من مخترعات ..

إن ما تثمره العقول ، وما تنتجه الأفكار ، لا يعجز اللسان عن أن يجد له الإسم الذى يطلقه عليه ، أو المصطلح الذى يدل عليه ..

وهل يعجز الناس أن يجدوا لمواليدهم — مهما كثروا — الأسماء التى يطلقونها عليهم ؟

إنا نستجلب أشياء مستعارة ، ليست من صنع أيدينا ولا من نتاج أفكارنا ، ثم نقسر اللغة العربية على أن تتبنى هذه المواليد اللقيطة وتدخلها فى قاموسها ..

وإننا يوم تتحرك عقولنا إلى البحث ، ويوم تعمل أيدينا ما وصلت إليه عقولنا من مخترعات ، سنجد من لغتنا الاستجابة السريعة للكلمات العربية التى نضيف بها تلك المخترعات إلينا ، كما تضع كل شركة صناعية الشارة الدالة على كل ما تصنعه أنه من صنعها .. أما أن تزيف ما صنعه غيرها ، وتضيفه إليها . فتلك قضية أخرى تأبى مروءتنا وأخلاقنا علينا أن نكون طرفاً فيها ..

إن العيب فينا لا فى لغتنا ، وإن القصور هو جنايتنا على أنفسنا لا من جناية اللغة علينا — وإننا من أجل الحياة نكون مع لغتنا . ومع كل كلمة من كلماتها الإسلامية والتى حملها تيار الإسلام مما كان قبل الإسلام .. ولن نسمح بأن تتسلط عليها العجمة أبداً . بل هى العربية لفظاً وبناء وإعراباً ، وحياة وهدى ، وعمراناً وعلماً ، وجهاداً ونصراً إن شاء الله .. نعم سوف يدور الزمن دورته ، فنصحو صحوة مشرقة تعيدنا إلى كتاب الله ، ويومها تبعث العزة فى نفوسنا ، فننهض للعمل والبناء ، ويومها تتفجر ينابيع اللغة العربية ، وتغمر السهل والوعر ، ويومئذ تعود للعرب مكانتهم فى الحياة ، ويعود للغة سابق مجدها ، فتكون لغة العلم والحكمة والأدب والحياة ولسان أهل العلم والحكمة والأدب والحياة

« وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (يوسف:٢١)

* * *

السؤال الثالث :

كيف يمكن فى ضـــوء هذه الحقائق المتصـــلة باللغة تصور حاجة الأمة العربية فى شتاتها الفكرى المعاصر الى لسانها العربى القرآنى المبين لتستعيد من جــديد طريقها الى الله والى الدين الحق ، والى الوحــدة والقوة والرخاء والســلام ، على هــذا الطريق ؟

الإجـــابة :

من الحقائق التى تقع موقع الإيمان : أن اللغة العربية ليست لغة تخاطب وتفاهم بين أفراد الجماعة أو الأمة التى تتحدث بها فحسب ، كما هو الشأن فى اللغات الإنسانية كلها ، وإنما هى لغة وطريق دين معاً حيث هى الدليل — لا دليل غيره — إلى كتاب الله وإلى شريعته .

لغة الدين الحق :

إن أى شريعة — غير الشريعة الإسلامية سماوية كانت أو وضعية — يمكن نقلها . من لغة إلى لغة ، ومن لسان إلى لسان وذلك أنها — أى هذه الشرائع :

أولا : إنما جاءت لجماعة معينة ، محدودة الزمان والمكان ، غير ناظرة إلى غير تلك الجماعة التى جاءت لها . ولغير الجيل الذى واجهته حين مجيئها —

فإذا جاء جيل آخر ، أوجدت ظروف أخرى ، جاءت شريعة أخرى تناسب الجيل الجديد ، وتلائم ظروفه .

ففى الشرائع السماوية التى جاءت قبل شريعة الإسلام . كان كل رسول مبعوثاً من الله إلى قومه خاصة بشريعة مناسبة لهم . ثم يجىء من بعده رسول آخر إلى هؤلاء القوم ، فيقيم فيهم الشريعة السابقة . أو يضيف إليهاأويحذف منها ، حسب ماتقتضيه حكمة الله ومايأذن به الله تعالى له .

وأما الشرائع الوضعية ، فإنها عرضة فى كل يوم للتغيير والتبديل ، والهدم والبناء شأنها فى هذا شأن كل ما تلده عقول الناس ، وما تعمله أيديهم من أفكار وأعمال ، حيث تجرى عليها أحكام الزمن التى تجرى على الإنسان نفسه من صبا إلى شباب إلى كهولة وشيخوخة وموت .

فإذا نقلت هذه الشرائع السماوية أو الوضعية من لسان إلى لسان لم يكن فى نقلها ما يدعو إلى التأثم أو التحرج ، إذ أنه لا يراد بهذا النقل إلا مجرد النظر إليها كأثر من آثار التاريخ ، وكصفحة من صفحاته ، لايلتزم أحد بالأخذ بها .

ثانياً : وتأسيساً على هذا نقول إن نقل هذه الشرائع السماوية والوضعية من لسان إلى لسان إنما هو نقل للمعنى من لغة إلى لغة ، كما تترجم العلوم والمعارف إلى اللغات المختلفة فيأخذ الناس منها ما يأخذون ، ويدعون ما يدعون ، دون حرج فى هذا أو ذاك .

أما الشريعة الإسلامية ، فقد جاءت بهذا اللسان العربى الذى كان من

تدبير الحكيم العليم أن يضمنه محامل تلك الشريعة الخالدة المتجددة الحياة على الزمن دون أن تعرض لها عوارض الشيخوخة والهرم ، بل إنها فى شباب متجدد دائم .. وذلك : أن مضامن هذه اللغة التى حملت شريعة الإسلام تتسع كلماتها وعباراتها لمعان كثيرة . تستخرج من أصولها العامة . فهى — والحال كذلك — أشبه بالشجرة الطيبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . فلها فى الربيع ثمر . وللصيف ثمر . وللخريف ثمر . وللشتاء ثمر . ولكل فصل ثمره الذى إن اختلف لونه وشكله . فلا يختلف مذاقه وطعمه. إنه أشبه بطعام أهل الجنة :

« كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا » (البقرة : ٢٥)

ومن هنا كانت ملاءمة الشريعة الإسلامية لظروف الناس وأحوالهم جميعاً فى كل زمان ومكان على مدى الأزمان ، واختلاف الأوطان ، حيث تستجيب من ينابيعها الغزيرة الصافية لكل مايجد على الناس من شئون الحياة وصروفها .

ولهذا كان إمساك الشريعة الإسلامية باللغة العربية وارتباطها بها هو من صميم هذه الشريعة . ومن الضمانات المؤثقة لخلودها ، وتجدد معطياتها للحياة . حالا بعد حال وزمناً بعد زمن . وعلى عكس هذا إذا نقلت شريعة الإسلام إلى لغة أخرى ، فإنها تظل جامدة على الصورة التى نقلت بها وتصبح عقيما لا تلد للحياة مولوداً . وهذا هو كتاب الله . قد تواردت

عليه الأنظار . ودارت حوله العقول على مدى أربعة عشر قرناً ، والعلماء والمفسرون والفقهاء والمشرعون يستخرجون كل يوم جديداً من خزائنه التى لاتنفد أبداً ، ثم هو مع هذا لايزال محيطاً يقف العلماء على ساحله دون أن يصلوا إلى البعيد من أعماقه .

وانظر إلى القرآن الكريم فى ترجمة من تلك الترجمات . التى قيل إنه ترجم إليها ، إنه صورة واحدة من صور الفهم له حسبما وقع فى فهم من ترجمه . إنه — والحال كذلك — كلام بشرى قد أفرغ فيه مترجمه كل ماعنده . ولاشىء وراء هذا لمن ينظر فيه .

وإذن فلا قرآن بغير اللغة العربية ، ولا إسلام بغير هذا القرآن . . لأن لغة هذا القرآن هى لغة الدين والحق .

خطر العجمة :

وإذن أيضاً ، فالأمة العربية ، لايحفظ عليها كيانها كأمة عربية مسلمة ، إلا القرآن الكريم . الذى هو ترجمان دينها ، ولسان شريعتها ، ويوم يغيب هذا الترجمان . أو يستعجم هذا اللسان — ولا كان هذا اليوم — يوم ينفرط عقد هذه الأمة ، وتغرب شمس دينها ، وتذهب يد البلى بشريعتها . وإذن مرة أخرى فإن اللغة العربية — واللغة العربية وحدها — هى الضمان الوحيد الذى يحفظ على هذه الأمة وجودها ، كأمة لها كيان . ولها دين . ولها شريعة مستمدة من هذا الدين . هذه الحقيقة ينبغى أن تكون حافزاً أبداً فى وعى كل مسلم . وفى يقين كل عربى . وقد كانت تلك الحقيقة . ديناً

من دين الله . وعقيدة راسخة يعتقدها أسلافنا الأولون . من صحابة رسول الله . والتابعين ، ومن جاء بعدهم من عباد الرحمن ، الذين أخلصوا دينهم لله . ونذروا أنفسهم لدين الله ، وشريعة الله .

فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول والعرب عرب ، والقرآن الكريم مائدة المسلمين لايتحولون عنها فى ليل أونهار– يهتف بالناس دائماً: (علموا أولادكم الرماية والعوم ، ورووهم ما يجمل من الشعر ، فإنه ديوان العرب) .

وهذا ابن عباس – رضى الله عنه – كان يجلس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . يتلو على الناس آيات الله ، ويفتيهم فيما يسألون عنه من شريعة الله . ثم ينتقل من هذا الاستماع لما ينشد الشعراء وما يرويه الرواة من الشعر .

وكان العرب المسلمون ، من الخلفاء ، والأمراء والولاة فى العصر الأموى ، وقد دخل فى الإسلام كثير من الأعاجم ومن الفرس والروم وغيرهم ، كانوا يبعثون إلى البادية بأبنائهم ، حتى لا تفسد ألسنتهم بمايطارق أسماعهم من كلام أعجمى .

وكان اللحن سبة وعاراً ، يفر منه العربى كما يفر من الوباء !

روى أن أعرابياً دخل سوق البصرة ، فسمع كلاماً ملحوناً يجرى على ألسنة البائعين والمشترين ، فعجب لذلك، وقال : (سبحان الله ، يلحنون، ويرزقون !) إنه يعد هذا اللحن فى اللغة العربية محادة لله وعدواناً على دينه

المنزل فى كتابه بلسان عربى مبين ، وهو عدوان يستوجب غضب الله الرزاق وهذا حق، فإنه بقدر ماينتقص الإنسان من لغة دينه بقدر ماينتقص من حقائق هذا الدين فى عقله وقلبه وسلوكه .

يقول ابن تيمية رضى الله عنه :

(إن الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربى ، وجعل رسولا مبلغاً عنه الكتاب والحكمة ، بلسانه العربى ، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به — لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته ، إلا بضبط هذا اللسان فصارت معرفته— أى معرفة هذا اللسان— من الدين، وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين فى معرفة دين الله ، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين ، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فى جميع أمورهم).

ثم يقول ابن تيمية فى كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة أصحاب الجحيم) ص ١٦٠ وما بعدها :

(واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر فى العقل ، والخلق ، والدين ، تأثيراً قوياً بيناً ، ويؤثر أيضاً فى مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، ومشابهتهم تزيد العقل والخلق والدين . ولهذا فإن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) .

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى يقول : (أما بعد : فتفقهوا فى السنة ، وتفقهوا فى العربية ، وأعربوا القرآن ، فإنه عربى) .

وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول : (تعلموا العربية فإنها من دينكم).

الاستعمار يحارب اللغة :

ونقول نحن الآن : ماذا عند الأمة العربية من هذا اللسان العربى ؟ . وللحقيقة نقرر أن هناك علماء وشعراء ، وأدباء ، وكتاباً يحسنون هذه اللغة . ولكنهم فى الواقع قلة قليلة فى بحر الأمة العربية ، التى طغت عليها العامية . والتى أصبحت اللسان العام للمجتمع العربى ، وحتى هؤلاء الذين يحسنون اللغة العربية ، من علماء ، وشعراء وأدباء ، وكتاب ، وخطباء — لايستعملون هذه اللغة إلا فى أضيق مجال من حياتهم العلمية أو الأدبية ، فإذا خرجوا من هذا المجال إلى الحياة العامة تحولوا إلى عوام لايستعملون إلا اللسان العامى ! !

ونسأل : ماذا وصل بأمتنا العربية إلى هذه الحال ؟

والجواب عن هذا يتضح فيما يلى :

أولا : هذه العداوة المضمرة والظاهرة لدين الله ، التى يحملها أعداء الإسلام لهذا الدين قديماً ، وحديثاً ، والتى تمثلت فى الحروب الصليبية ، ثم فى الاستعمار لأوطان العروبة والإسلام .

ولما كان هؤلاء الأعداء يعرفون مكانة اللغة العربية من هذا الدين . وأنها الوعاء الحامل له ، وأنهم إذا حطموا هذا الوعاء تبدد هذا الدين وتبخر — لما كانوا يعرفون هذا حق المعرفة ، فقد عملوا على أن يكيدوا

لهذه اللغة بكل كيد يقدرون عليه حتى يجلوها عن أوطاننا ، ويقضوا على اللسان المتحدث بها . وكان من كيدهم هذا أن جعلوا اللسان الأعجمى هو اللسان السائد فى الوطن العربى . وجعلوا المناصب والسلطان لمن يتزيا بزى المستعمر ، ولا تجرى على لسانه إلا الرطانات الأعجمية ، حتى لقد ترك الاستعمار بعد أن جلا عن أوطان العروبة كثيراً من تلك الأوطان وقد نسيت لسانها العربى وكادت تنسى صلتها بها . كما حدث فى الجزائر ، لولا ثورتها التى جاهدت ولا تزال تجاهد لتعريب حياتها من جديد .

ثانياً : قام الاستشراق والمستشرقون بدور بارز فى هذه الحملة المسعورة على اللغة العربية ، وربوا على أيديهم تلاميذ ممن ينتسبون إلى العروبة والإسلام . وغذوهم بغذاء مسموم ، أروهم منه أن اللغة العربية لغة قد عفى عليها الزمن . وأنها كانت لغة بداوة لا تلائم حياة الرجل المتحضر ، وكما تخلى العرب اليوم عن ركوب الجمل ، وسكنى الخيام ، يجب أن يتخلوا عن تلك الأسمال البالية التى يلبسونها على ألسنتهم من تلك اللغة الجافية الخشنة .

وكان من أثر هذه الطعنات الخبيثة المسمومة ، أن قامت دعوات كثيرة من أبنائنا المستعربين تنبح فى وجه هذه اللغة الحية وترميها بالجمود والقصور . فيتردد فى هذا النباح أكثر من صدى يدخل على العوام وأشباه العوام ، بما يصرفهم عن هذه اللغة ، ويزهدهم فيها — أو هكذا زعموا أنه تارة ينبعث من هذا النباح صوت يدعو إلى استعمال العامية لتحل محل العربية فى هذا المجال الضيق المحدود الذى بقى لها ، فتكون العامية هى لغة الأدب

والفن حتى لا يحرم هذا القطاع الكبير من الأمة من حقه فى المشاركة فى العلوم . والفنون والآداب . وكأنما إلقاء العامة فى هاوية العامية أيسر من حقهم فى تعلم العربية والتكلم بها ؟

إن اللغة العربية الفصحى ، تمثل فى نظر هؤلاء الناعبين أرستقراطية متعجرفة . منعزلة . فى برجها العاجى عن الشعوب . . أما وقد صار الأمر فى هذا العصر للشعوب . فلا معنى لتحكم هذه الارستقراطية فيه .

وتارة نسمع من هذا النباح دعوة تدعو إلى ترك الإعراب الذى هو من خصائص اللغة العربية مع التزام تسكين أواخر الكلمات ، فلا رفع ولا نصب.ولا جر ولا جزم أسوة باللغات الأوروبية اللاتينية . أواللادينية !

وأى لغة عربية هذه التى ينتزع منها روحها وأخص خصائصها . وأعظم ميزاتها ؟ وبأى لغة لا إعراب لها نتلو آيات الكتاب الكريم ؟ وبأى وسيلة نفهم معانيه؟ هذا أمر لا يهم هؤلاء الناعبين ولا يعنيهم فى قليل أو كثير ! ! بل يعنيهم بالعكس أن تسوء النتائج ، وينحل اللسان المبين .

وتارة نسمع هؤلاء اللاغين يقولون : وماذا لو تخلينا عن الهجاء العربى ، واستبدلنا بالحروف العربية الحروف الأعجمية ؟ أليس ذلك مما يوفر معاناة النطق بالكلمات العربية من غير لحن ؟ إن الكتابة باللاتينية يحل معها ضبط النطق بالكلمة المكتوبة بها، وليس كذلك اللغة العربية التى لا يؤمن معها الخطأ فى النطق بكلماتها إلا إذا كانت مشكولة شكلا كاملا ، وهذا أمر دونه خرط القتاد ! !

وهذا إن أخذ به ، كان أقل ما فيه من أخطار ، أن تضيع معالم تراثنا كله، وأن يصبح كل ما خطه القلم بالهجاء العربى مهجوراً ، لايرى الناظر فيه إلا جثثاً هامدة صامتة صمت القبور ! !

وتارة ، وتارة ، وتارات ، يتردد هذا النباح ، وهيهات أن ينقطع صداه !

من الشتات إلى الوحدة :

وندع هذا ، لننظر فى واقع اللغة العربية اليوم ، وما يمكن أن يقوم به المصلحون الغيورون من دور فى إحياء اللغة العربية ، وفى رد اعتبارها إليها بين أهلها .

فماذا نجـــد ؟

إننا نجد أوطان العروبة ، قد غلبت عليها العامية ، وهى ليست عامية واحدة يفهم بها العربى أخاه فيما يلقى إليه من كلمات . وإنما هى لهجات متعددة ، لكل قطر لهجته . . فللمصرى لهجة ، وللعراقى لهجة ، وللشامى لهجة ، وللمغربى لهجة ، وللسودانى لهجة . وهكذا . ثم إن فى كل قطر لهجات تتنوع بتنوع أقاليمه ، وبلدانه . فلكل إقليم فى الوطن الواحد لهجته ، وللقروى لهجته ، ولساكن المدينة لهجته . إنها أمم فى داخل أمة !

فأين ــ مع هذه البلبلة فى الألسنة ــ يكون اجتماع أو لقاء فى المشاعر والعواطف والمدركات ؟

وهل تكون هناك ألفة وتلاق بين أفراد أسرة يضمهم بيت واحد ، وهم ألسنة مختلفة تتراطن ولا تتفاهم ؟

إن وحدة اللغة : هى الضمان لوحدة المشاعر والمنازع ، وهى الكفيل بوحدة الهدف والاتجاه ، وبغير هذا التوحد فى اللغة، لا تتآلف القلوب، ولا تتلاقى الأفكار ، ولا تتوحد الصفوف نحو المصير الواحد .

وهذا الذى نقرره ، ليس فى شأن الإنسان وحده ، وإنما هو ملحوظ مشاهد فى عالم الحيوان ، فلكل جنس من أجناس الحيوان لغته التى يتفاهم بها ، ويجتمع عليها ، فللهجوم لغة ، وللتوقف لغة وللفرار لغة ، وللحب لغة ، وللبغض لغة . وهكذا . فما اجتمع حيوان إلى حيوان ، ولا ائتلف طير مع طير ، إلا على لغة متعارف عليهـــا فى الجنس الذى هما منه . من نقيق ، أو ثغاء ، أو نباح ، أو زئير ، أو عواء . وما إلى ذلك من لُغَىَ الحيوان !

فإذا كان هذا شأن الحيوان الأعجم فى اجتماع أجناسها وفصائلها على ما أقدرها الله تعالى عليه من التفاهم بالأصوات ، والحركات والإشارات . أفلا يكون الإنسان العربى الذى علمه الله تعالى أرقى ألسنة البيان بأن يحسن لغة قومه ، ولسان أمته ، حتى يتلقى عنها من وحى الكلمة أفكارها ، وتصوراتها . ويتعرف إلى مشاعرها وأحاسيسها ، فيكون بذلك نغماً منسجماً معها فى لحن الحياة التى يقاسمها حلوها ومرها ؟ . أفلا يكون الإنسان العربى ، الذى أكرمه الله تعالى وشرفه ، فجعل كلامه سبحانه بلسان عربى أولى بالحرص على لغته الشريفة ليتلقى عنها دينه ، ويأخذ منها

شريعته ، ويصور بها بين قومه أفكاره ، وينسج منها خيوط حياته — من أن يتخذ لغة العجم ترجماناً لمدركاته ومورداً لدينه وشعاراً على تبعيته وولائه لعدوه ! ؟

إن الدعوة إلى وحدة عربية تجمع أوطان العروبة التي تفرقت ، لن تجد الاستجابة الصحيحة لها إلا إذا عاد اللسان العربي السليم إلى أهلها. وإلا إذا أخذت اللغة العربية مكانها من إحياء الدين والحياة على لسان كل عربي . حيث تكون الكلمة العربية رسول سلام وإسلام ومودة بينهم ، ومبعث إخاء وتواصل بين قريبهم وبعيدهم ، كما يتواصل الإخوة الأشقاء بعرق النسب الجامع بينهم .

إن هناك عزلة نفسية وعقلية لاشك فيها بين أبناء الوطن العربي الكبير ، عزلة ولدت أولادها المشوهين فى أصوات تلك اللهجات العامية التى تبلغ المئات عدًّا ، وإنه ما ولدت هذه اللهجات إلا فى ظل من العزلة والقطيعة التى فرضها الاستعمار على كل صقع من أصقاع هذا الوطن، وإنه ما اشتد هذا الخلاف فى اللهجات إلا حين صارت الأمة العربية دويلات — تعيش كل دولة تحت وطأة همومها ومشكلاتها التى خلقها الاستعمار لها ، وشغلها بها عن أن تنظر إلى أبعد من شخصها .

إن الأمة العربية صائرة بإذن الله إلى وحدة ، وهذه الوحدة إنما تهتدى إليها الشعوب العربية الآن بوحى من دينها وبإلهام من ضميرها ، وبإحساس من عروقها النابضة بالوعى العربى والحس الدينى .

كل هذه — ولاشك — ينابيع طيبة لإرواء تلك الشجرة المباركة . شجرة القومية العربية : ولكن هذه القومية هى أشبه بالإنسان المتكامل الخلق ينقصه اللسان الذى يبين به عن شخصه ، ويكشف به عن معدنه ، فاللسان للقومية العربية هو الذى يصحح وجودها ، ويمسك عليها حياتها ، ويمدها بالغذاء الذى يبلغ بها مبلغ الشباب. وهنا لا بد أن ننبه إلى أمر ربما أغلقت دونه الآذان ، أو ازورت عنه النفوس أو غصت به الحلوق ، من هذه الدعوة التى نجعلها ركيزة أولى من ركائز الوحدة العربية ، حيث يخيل لبعض أبناء العروبة أنها دعوة ردة وانتكاس إلى الوراء ، فى حال نريد فيها أن ننطلق بأقصى سرعة لنلحق بالعصر الذى كاد أن يفلت منا ، ونحن نتعلق بأذياله. وحتى ليقول القائل من هؤلاء ، ما لنا واللغة الآن ؟ إنها مجرد كلام . . وهل يغنى الكلام فى هذا العصر ، عصر الذرة ومراكب الأفلاك ؟

ونقول لهؤلاء المتلهفين على اللحاق بهذا العصر : مهلا ، فإنكم لن تخطوا خطوة إلى الأمام، ولن تدخلوا عصر الذرة ومراكب الأفلاك إلا بالكلمة. الكلمة العربية المؤمنة التى تتمخض عنها عقولكم ، وتخرج من أفواهكم أنتم لا من أفواه الغرباء الأوروبيين الذين يستخفون بكم ! وهل وصل الذين فجروا الذرة ، وصعدوا إلى الكواكب والأقمار إلا بعد أن عرفوا الكلمات التى فتحت لهم الباب على هذا العصر الذى تريدون اللحاق به ؟

ألا فاعلموا أننا ما قعد بنا الزمن حيث نحن، إلا بعد قصور لساننا العربى ، وانقطاع أسباب التواصل بين عقولنا ، فلم تتزاوج هذه العقول ، ومن ثم لم يكن لها نتاج فى الحياة ! وألا فاعلموا أنكم لو نصحتم لأنفسكم، وأقبلتم

على لغة أمتكم ، دستور دينكم وشريعتكم ، لانقادت لكم الدنيا صاغرة ولفتحتم بهذه اللغة مغالق الحياة . ولأطلعتكم على دفائن أسرارها ، ولأطلعتم عصراً أعظم وأشرف من هذا العصر ، الذى اختنق بالمادية العدوانية التى أعمى دخانها العيون ، وران على القلوب ، وأوشكت نارها أن تأتى على كل ما بنى البانون ، وجمع الجامعون ! !

إن العصر الذى ينشق عنه فجر الأمة العربية ، هو عصر مهتد بنور الله ، مزود بزاد التقوى — وإن عملا يخرج فى ضمان هذا النور الإلهى ، لهو عمل مبارك ، يسعد به أهله ، ويسعد به من يشاركهم فيه ، سعادة موصولة فى الدنيا والآخرة جميعاً .

فإذا كان لنا فى أنفسنا خير ، وكان لنا أن ننشد هذا الخير . ونشد يدنا عليه — فهذا هو الطريق إليه ، طريق اصطلاحنا مع لغتنا . وعودنا إليها من غربتنا . إنها هى الوطن ، وهى الأهل ، وهى العقل ، وهى الماضى . وهى الدين . وهى العلم ، وهى المستقبل ، وهى الطموح ، وهى نور الله فى كلمات مشرقات . وآيات بينات ، وأصوات مسعدات . فلنعد إلى لغتنا المبينة من غربة الحياة . إلى أنس الحياة ، وخضم الحياة ، مع حركة الزمن وسنن الله .

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

تعقيب

بعد الإجابة الوافية التى قدمها الأستاذ العالم عبد الكريم الخطيب فى الصفحات السابقة عن جميع أسئلة هذا القسم نقدم فى الصفحات الآتية نموذجاً من الإجابة عن السؤال الثانى من هذا القسم نفسه ، والذى اخترناه من بين الإجابات التى وصلت إلينا من المفكر الإسلامى المحقق الدكتور محمد رشاد خليل الأستاذ المساعد للثقافة الإسلامية بكلية التربية بجامعة الرياض فى المملكة العربية السعودية .

ونعود هنا فنذكر نص السؤال الثانى :

إلى أى حد يظهر فى كتاب الله أن اللغة العربية مقوم أساسى لتوجيه قابليات الفطرة السليمة إلى الإيمان العملى ، وإلى وعى رسالة الله الخالدة بهذا الكتاب ؟ . . اشرح مزايا اللغة العربية من واقع القرآن الكريم على غيرها من لغات الأمم ، واشرح مابين التعريب اللغوى والوعى الإسلامى من ترابط أساسى ومن تلازم مستمر فى حياة المسلمين .

الإجابة :

اختار الله تعالى لغة العرب لينزل بها القرآن الكريم .

« اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » . (الأنعام : ١٢٤)

لأنها أقدر اللغات على الأداء السليم والدقيق لمعانى القرآن الكريم بحكم

ماتتمتع به من قدرة فائقة على الدقة والإبانة والوضوح ، ولقد كان العرب على الرغم من شركهم بالله ، وانحرافهم عن الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام من أعرف أمم الأرض بالله عند نزول القرآن : لقد عرف العرب الله تعالى وسموه بأكثر الأسماء مناسبة لجلاله . وكانت فيهم بقية من دين إبراهيم ، وكانت فيهم إلى ذلك قوة العقل ، ودقة الفهم ، وسلامة النظر .

ومن يرجع إلى الشعر الجاهلي يجد أن العرب قد عرفوا عن طريق النظر فى أحوال العالم كثيراً من الأسماء والصفات التى سمى الله تعالى بها نفسه فى القرآن الكريم ، بل يجد أنهم قد نجحوا نجاحاً بعيداً فى تحديد العلاقة بين الخالق وبين العالم المخلوق بصورة لم تعرفها أكثر المجتمعات تحضراً فى ذلك الحين . وقد أقرهم القرآن ، على كثير مما سموا به الله تعالى : كما أقرهم على تصور العلاقة بين الله والخالق بعد أن خلص هذه الصورة مما شابها من دواعى الشرك المتمثل فى عبادة غير الله .

وقد ورد اسم الله وإله ورب فى الشعر الجاهلى بنفس المعانى التى وردت بها فى القرآن بعد ذلك ، وجاء فى شعرهم تسمية الله بالرحمن والمؤمن والمعين والرزاق والوارث ، والباق ، والرافع ، والخافض ، والمعز ، والمذل ، والقابض والباسط ، والسميع والبصير والعليم . . . . الخ .

من شواهد ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى :

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » . (الزخرف : ٩)



يقول قيس بن الخطيم :

قَضَى لَهَا اللهُ حِينَ صَوَّرَهَا الْخَا لِقُ أَلَّا يُكِنَّهَـا سُدُفُ

(الديوان ص ٣٩)

ويقول حاتم الطائى :

كلُوا الآنَ مِنْ رزْق الْإِلَهِ وَأَيْسِرُوا فَإِنَّ عَلَى الرَّحْمَـنِ رِزْقَكُمْ غَدًا

ويقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى :

كَتَبَ الرَّحْمَنُ وَالْحَمْدُ لَـهُ سَعَةَ الْأَخْلَاقِ فِينَا وَالضَّلَعْ

وَإِبَـاءً لِلدَّنِيَّـاتِ إِذَا أُعْطِيَ الْمَكْنُوزُ ضَيْمًـا فَكَنَعْ

وَبِنَاءً لِلْمَعَالِي إِنَّمَـا يَرْفَعُ اللهُ وَمَنْ شَاءَ وَضَعْ

نِعَمٌ لِلهِ فِينَـا رَبَّهَـا وَصَنِيعُ اللهِ وَاللهُ صَنَـعْ

قَـدْ كَفَانِي اللهُ مَا فِي نَفْسِهِ وَمَتَى مَا يَكْفِ شَيْئًا لَا يُضَعْ

ويقول ذو الإصبع العدوانى :

إِنَّ الَّذِي يَقْبِضُ الدُّنْيَا وَيَبْسُطُهَا إِنْ كَانَ أَغْنَاكَ عَنِّي سَوْفَ يُغْنِينِي

ويقول النابغة الذبيانى :

وَالْمُؤْمِنُ العائِذَاتِ الطَّيْرَ يَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغِيلِ والْمَسَدِ

وهم يرون إلى ذلك أن مشيئة الله وأمره وإذنه وقضاءه وقدره هى وحدها المتصرفة بأمر الخلق وتدبيره .

يقول قيس بن الخطيم :

يُحِبُّ الْمَرْءُ أَنْ يَلْقَى مُنَـــاهُ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا مَا يَشَــاءُ
(الديوان ص ٥٤)

ويقول سلامة بن جندل :

كَمْ مِنْ فَقِيرٍ بِإِذْنِ اللهِ قَدجَبَرَتْ وَذِى غِنِى بَوَّأَتْهُ دَارَ مَحْرُوب
(مفضليات ص ١٩٢)

عقيدتهم فى الله :

وقد أقر القرآن الكريم عقيدة العرب فى الله وفى الخلق وحاكمهم إليها ، يقول تعالى :

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » . (العنكبوت : ٦١)

ويقول تعالى :

« قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » . (يونس : ٣١)

ومما يؤكد إقرار القرآن الكريم للعرب فى هذه العقيدة أنه لم يرد عليهم شيئاً منها ، كما أن العرب الذين حاوروا الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمر

النبوة والوحى والآخرة، وحاجهم القرآن فى ذلك، لم يجادلوا قط فى أسماء الله وصفاته كما حدث بها القرآن . وليس معنى ذلك أن العرب كلهم كانوا على هذه العقيدة . فهناك عرب اعتنقوا اليهودية خاصة فى اليمن ، وآخرون اعتنقوا المسيحية خاصة فى الشمال — قبيلة تغلب — وآخرون اعتنقوا المجوسية وعبدوا الكواكب خاصة فى الخليج ، وهؤلاء جميعاً قد تأثروا بالمعتقدات الوافدة من خارج الجزيرة ، ولكن اعتقاداتهم لاتشكل اعتقاداً عربياً عاماً — بل إنهم إلى جانب معتقداتهم الخاصة قد شاركوا بقية العرب فى احترام الكعبة والحج إليها — وظلت العقيدة العربية الغالبة هى الحنيفية المحرفة والتى تمثل بقية دين إبراهيم . بالإضافة إلى ماقرروه باجتهادهم الخاص وأقرهم الإسلام عليه .

وترجع مقدرة العرب على تحرير عقيدتهم فى الله على النحو الذى ذكرناه إلى الخاصية العلمية التى تتميز بها اللغة العربية والتى هى سر بيانها ، وهى الميزة التى أنضجوها باجتهادهم عبر القرون ، والتى تتجلى فى مقدرتها الفائقة على إدراك المناسبة الدقيقة بين الاسم والمسمى ، وعلى إنزال الأوصاف منازلها مع اختلاف الموصوف ، وعلى الإدراك الدقيق للعلاقات والفوارق بين عالمى المحسوسات والمجردات ، وعلى القدرة على إقامة العالمين معاً دون خلط أو اضطراب ، فالمعرفة العلمية الدقيقة للعالم ، والتى تجمع بين دقة المطابقة للواقع ، ودقة النفاذ فيه ، ودقة استنباط المعانى والأفكار منه هى التى مكنت العرب من حل أعقد

المشكلات الاعتقادية التى أنهكت المفكرين والفلاسفة عبر العصور شرقاً وغرباً دون الوصول فيها إلى رأى مريح .

وأهم هذه المشكلات هى تنزيه الله الكامل مع إفراده بالأمر والتصرف والتدبير دون أن يقع لبس بين ما يجب له من تنزيه وبين عنايته بالعالم ، وكذلك التسليم لله بالقدرة المطلقة التى تفعل ما تشاء وتخلق ما تشاء وكيف تشاء مع اعتبار العالم كله محدثاً فى الزمان مادة وصورة دون أن يقع فى عقولهم أدنى شك يسأل عنه السائل بالكيف فى إحداث الأشياء من مادة سابقة كما فعل فلاسفة الإغريق ومن تابعهم ، لأن الله فى اعتقاد العرب يُنْشِئُ بمشيئته من الأشياء ما يشاء ، فالخلق عنه (مشيئة) أو أمر : وكذلك التسليم بقدر الله الغالب مع الإقرار بمسئولية الإنسان دون شبهة تعارض بين قدر الله وإرادة البشر ، والتى هى عندهم من خلق الله على عكس ما تذهب إليه معظم الفلسفات ، وكذلك التوكل على الله مع ضرورة العمل دون شك فى أن قضاء الله نافذ ، وكذلك الجمع بين عدل الله ورحمته دون تناقض بين ما يوجبه العدل وبين ما تدعو إليه الرحمة ، وكذلك التسليم بالنظام والسنن والأسباب فى العالم مع التسليم بقدرة الله المطلقة لأن النظام والسنن والأسباب عندهم من قدرة الله وتقديره ، مع الوعى بأن للإنسان حرية تعمل من خلال النظام فى نفس الوقت ..

كل ذلك وغيره من المعضلات الحادة قد واجهه العرب بعقولهم التى بلغت كمالها فى القدرة على تحديد الحدود ، وإدراك الفروق بين ما هو واجب فى حق الخالق أو حق المخلوق ، وكل هذا جرت مناقشته طويلا

فى الشعر الجاهلى بما لا نملك إلا الإشارة إلى طرف منه ، لأن بسطه يحتاج إلى مجال أوسع .

يقول عبيد بن الأبرص :

مَا رَعَدَتْ رَعْدَةٌ وَلَا بَرَقَتْ   لكِنَّهَا أُنْشِئَتْ لَنَا خِلْقَهْ
الْمَاءُ يَجْرِى عَلَى نِظَام لَهُ   لَوْ يَجِدُ الْمَاءُ مُخْرَقًا خَرَقَهْ

(الديوان ص ٩٨)

ويقول عمرو بن كلثوم :

وَأَنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا الْمَنَايَا   مُقَدَّرَةً لَنَا وَمُقَدَّرِينَا

(شرح المعلقات ص ١٥٧)

ويقول لبيد بن ربيعة :

وَلَا أَقُولُ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ   يَاوَيْحَ نَفْسِى مِمَّا أَحْدَثَ الْقَدَرُ

(مختار الشعر الجاهلى ج٢ص٤٢)

ويقول حاتم الطائى :

وَإِنِّى لَمَجْزِىٌّ بِمَا أَنَا كَاسِبٌ   وَكُلُّ امْرِىءٍ رَاضٍ بِمَا هُوَ مُتْلِفُ

(الديوان ص ٧٢)

اللغة رشد :

فليس صحيحاً ما يقوله الذين لا يعرفون تاريخ أمتهم ، ويرددون دعاوى الحاقدين عليها من أن العرب لم تكن لهم معرفة بهذه القضايا

والمشكلات عند نزول القرآن بها، ولذلك لم يناقشوا فيها وسلموا بها تسليم جهل ، وإنما عرفوها حين تحضروا بعد الإسلام ، واطلعوا على فلسفات الإغريق فناقشوها واختلفوا فى فهمها !

وإنما الصحيح أنهم عرفوها عند نزول القرآن بها ، ولم تضق عقولهم عن استيعاب جوانبها ، وفهموها على وجهها الذى جاء به الوحى ، ولم يثر الخلاف حولها إلا حين عرضت على عقول لم تتعرب فضاقت عن فهمها وعن استيعابها على الصورة التى نزل بها الوحى ، فكان ذلك دليلا على كمال فى عقول العرب لم يتم لغيرهم ، وعلى كمال فى لغة العرب لم يتم لغيرها ، ومن أجله اختارهم الله مبلغين لدينه ، واختار لغتهم ليبلغ بها وحيه ، واختار فيهم خير البشر رسولا للعالمين ، وكان ذلك اصطفاء من الله لأبناء إبراهيم — المصطفى — من نسل إسماعيل . واصطفاء من الله للغة العرب من أبناء إسماعيل ، واصطفاء من الله لمحمد صلى الله عليه وسلم من أبناء إسماعيل ، أفصح العرب ، وأزكاهم نفساً ونسباً ، كما حدث عن نفسه صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد ومسلم والترمذى من حديث الأوزاعى عن شداد بن عمار عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم) .

لقد وسعت العربية كتاب الله المبين بكل كماله وجلاله وشموله فكانت تلك شهادة لها من الله بأنها أوفى لغات البشر بحاجات الدين ،

والذى فيه الهداية للبشر أجمعين ، ثم وسعت فى ظل الإسلام كل ثقافات البشر وعلومهم وحفظتها وصححتها ونمتها ، فكانت تلك شهادة من التاريخ بأنها أوفى لغات البشر ، وفى هذه الشهادة يقول العالم اللغوى المدقق الفريد غيوم وهو مستشرق إنجليزى فى كتابه : (تراث الإسلام) كانت جزيرة العرب مهبط الرسالة المحمدية وكثيرا ما استعملت لفظتا (الإسلام) و(العرب) إحداهما محل الأخرى كمرادفين وكانت اللغة والديانة فى أيام الخلافة الإسلامية العظمى وحدة غير قابلة للانفصام ، فالعربية هى (يونانية) العالم الإسلامى . ولحظ الإسلام نزلت رسالته فى وقت نضوج اللغة التام ، وكانت الآرامية مجدبة ومملقة إذ قورنت بالعربية ، حتى العبرية القديمة فى ذروة مجدها فإنها لم تطاول العربية بمرونتها واشتقاقها العجيب . فمن معينها الخالص أمكن نحت تعابير واشتقاق مصطلحات فى غاية الدقة وفقاً لمتطلبات الفنون الجديدة) .

(لقد صلح اللسان العربى للتعبير عن العلاقات بإيجاز أكثر من اللغات الآرية لمرونته وقابليته الاشتقاقية الفائقة فى الإسم والفعل ..

(ويسهل على المرء أن يدرك مدى استيعاب اللغة العربية واتساعها للتعبير عن جميع المصطلحات العلمية للعالم القديم بكل يسر وسهولة لوجود التعدد فى تغيير دلالة الفعل والاسم .

(إن الجذر الثلاثى باشتقاقاته البالغة الألف عداً وكل منها متسق اتساقاً صوتياً مع شبيهه شكلا من أى جذر آخر ، يصدر إيقاعاً طبيعياً لا سبيل إلى أن تخطئه الأذن . نحن (الإنكليز) عندما ننطق بفكرة

مجردة لا نفكر بالمعنى الأصلى للكلمة التى استخدمناها فكلمة (Association) تبدو منقطعة الصلة بـ (Socius) وهى الأصل – فنحن لا نملك هذه اللفظة ولا لفظة (Ad) لكن أصل الكلمة بالعربية لا يمكن أن يستتر ويستدق على المرء عند تجريد الكلمة المزيدة حتى يضيع تماماً . فوجود الأصل يظل بيناً محسوساً على الدوام) انتهى .

وإذن يمكن القول بأن اللغة العربية فى منابعها الأولى تمثل الفطرة السليمة المهتدية بالعقل الصحيح إلى آيات الله فى الكون ، ولذا كانت هذه العربية باشتقاقها وتراكيبها وأساليبها ترجماناً عن الوعى المتيقظ المسدد النظر ، والبرىء من القصور والمغالاة والعجمة ، ولذا كانت اللغة العربية هى اللغة التى اختارها الله تعالى بياناً لكتابه الكريم ، ومقوما أساسيا لتوجيه قابليات الفطرة السليمة ، وإلى الإيمان العملى ، وإلى وعى الرسالة الإلهية الخالدة بهذا الكتاب العظيم ، ومن خلالها ، وعن طريقها أقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على فهم القرآن واستيعابه علما وعملا ، دون أن تختلف عليه قلوبهم وعقولهم . كما اختلفت قلوب وعقول الذين خلفوا من بعدهم بسبب عجمتهم ، ودون أن يثور فيهم هذا الجدل العقيم الذى ثار بين الفرق الاعتقادية حول قضايا ومشكلات وسعتها عقول العرب فلم تبلبلهم ، وضاقت عنها عقول غيرهم فحيرتهم ، ومن ذلك كره السلف الصالح أن يتعرض أحد لتفسير كتاب الله ما لم يكن عالما بالعربية ، يقول مالك بن أنس (لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالا) . ويقول مجاهد : (لا يحل

لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب) « الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٧٩ » .

من أجل ذلك كان الترابط بين التعريب اللغوى والوعى الإسلامى ضرورة أساسية لاستمرار حيوية هذا الدين وفاعليته ، وضرورة لتخليصه مما علق به من ضروب الفهم السيىء والتأويل المنحرف ، ولتنقيته مما شابه من تحريفات الوثنية والزندقة والفلسفات الباطلة .

وإذا كان تعريب العرب شرطاً أساسياً لاستئناف قيامهم برسالة الإسلام الذى حملهم الله أمانته ووضعها فى أعناقهم إلى يوم القيامة :

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » . (الزخرف : ٤٤)

فإن تعريب المسلمين على اختلاف أقطارهم وأجناسهم ولغاتهم ضرورة لازمة لتصحيح إيمانهم بهذا الدين ، ولتصحيح فقههم فيه ، لأن اللسان العربى — كما يقول ابن تيمية — شعار الإسلام وأهله ، واللغات من أعظم شعائر الأمم التى بها يتميزون ، ولهذا كان كثير من الفقهاء أو أكثرهم يكرهون فى الأدعية التى فى الصلاة والذكر أن يدعى الله أو يذكر بغير العربية كذلك كرهوا الخطاب بغير اللغة العربية من غير حاجة فى أسماء الناس والشهور والتواريخ ، وغير ذلك .. وكان الشافعى يقول (سمى الله الطالبين من فضله فى الشراء والبيع تجاراً ، ولم تزل العرب تسميهم التجار ثم أسماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

بما سمى الله به من التجارة بلسان العرب ، و (السماسرة) اسم من أسماء العجم فلا يجب أن يسمى رجل يعرف العربية تاجراً إلا تاجراً ، ولا ينطق بالعربية فيسمى شيئاً بالعجمة ، وذلك أن اللسان الذى اختاره الله عز وجل لسان العرب فأنزل به كتابه العزيز ، وجعله لسان خاتم أنبيائه محمد عليه الصلاة والسلام . ولهذا نقول ينبغى لكل أحد يقدر على تعلم العربية أن يتعلمها ، لأنها اللسان الأولى أن يكون مرغوباً فيه) . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية فإنه يورث النفاق) « اقتضاء الصراط ص ٩٧ » .

والخلاصة أن اللغة العربية مقوم أساسى فى حياة الأمة العربية لتوجيه قابليات الفطرة السليمة للإيمان العملى ، وإلى وعى رسالة الله الخالدة بالقرآن الكريم .

وأن هذه اللغة بما اتصفت به من البيان المتميز لا ترى (البيان) كما تصوره علوم البلاغة الأعجمية (صنعة الكلام) حتى وإن كان صاحب هذه (الصنعة) ساقط العقل ، مختلط النفس ، ممسوخ الفطرة ، فالبيان عند العرب هو الوضوح والظهور ، وهو عند العرب دليل العقل الذى يكشف عن نفسه من خلال هذا البيان المحكم الدقيق ، الذى تظهر به كل ما تكنه النفس محدوداً بالحق من غير فضول أو قصور .

ليس كل كلام إذن مهما بلغ حسنه هو عند العرب بياناً ما لم يدل على مطابقة هذا الكلام لما يريد المرء وما يفعله ، لأن النفس الإنسانية

فى تصور العرب وحدة لا تتجزأ ، والعقل عندهم هو حاكم النفس، والإرادة أداته ، والكلام بيانه ، والسلوك ثمرته .

من أجل هذا كانت اللغة عند العرب دلالة الحياة،وبرهان الوجود بمثل ما هى عندهم دلالة الرشد وبرهان الحق .. ولهذا نرى كيف رفعها الله فى خطابهم إلى مستوى الدليل القاطع على الحق الذى تنزل به عليهم فى القرآن الكريم ، وذلك حيث يقول تعالى لهم :

« فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ »

(الذاريات : ٢٣)

أى إنه – كما يقول الله تعالى – حق لاريب فيه ، كما أنكم لا ترتابون فى كلامهم الذى تنطقون به ، والذى ينتهى إليه عندكم البيان والرشد والحق .

* * *


نماذج
من
إجابات
المشتركين
فى
مسابقة
القرآن الكريم
العدد الثالث

بحوث القسم الأول

مع القرآن الكريم (حول أسمائه وصفاته)

من إجابة الزميل أحمد محمد مروان محاسب بفرع القاهرة

السؤال الثانى :

أذكر عشر صفات مما ورد فى كتاب الله تعالى عن القرآن الكريم واشرح معناها فى الآيات الكريمة التى وردت بها .

الإجابة :

١ – يقول الحق جل علاه :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى والْفُرْقَانِ » صدق الله العظيم . (البقرة : ١٨٥)

والمعنى أن القرآن الكريم وآياته نزل هداية للناس ونوراً يتلمسون بواسطته الطريق السوى ، وكلماته واضحات تفرق بين الحق فيتبعه المهتدى وبين الباطل فيتركه ويبتعد عنه .

٢ – « الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٭ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » . (يوسف : ١ ، ٢)

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً » . (طه : ١١٣)

والمعنى أن الله جل شأنه أنزله قرآناً بلغة العرب واضحاً لا غموض فيه لعل الناس يتعقلونه فيعملوا بما جاء به فينجوا فى الدنيا والآخرة .

٣ - « الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ » . (الحجر : ١)

تنكّرت الكلمة الكريمة (قرآن) للتفخيم : تلك آيات الكتاب الشامل الجامع لكونه كتاباً وكونه قرآناً ظاهراً واضحاً لا غموض فيه .

٤ - « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » . (الحجر: ٨٧)

والمعنى لقد آتيناك ومنحناك يا محمد سبع آيات من التى تثنى وهى آيات فاتحة الكتاب وآتيناك كذلك القرآن الذى عظمناه ورفعنا مكانته .

٥ - « يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » . (يس : ١-٣)

المعنى : — يس . وحق القرآن الفائض بالحكمة العالية إنك يا محمد من المرسلين الذين نرسلهم للأمم لهدايتهم . و« يس » قيل معناه يا إنسان بلغة بنى طىء على أن أصله يا سنين فاقتصر على شطره لكثرة النداء به .

٦ - « ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » . (ص : ١)

المعنى (ص) قيل إنها من الأسرار المرموزة (والقرآن ذى الذكر) أى وحق القرآن الحافل الملىء بالذكر والمواعظ إنك لصادق يا محمد .

٧ - « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » . صدق الله العظيم . (الزمر : ٢٧ ، ٢٨)

المعنى : ولقد مثلنا للناس فى هذا القرآن بكل مثل لعلهم يتعظون - قرآناً أنزلناه بلسان عربى مستقيم لا اختلال فيه ولا اعوجاج لعلهم يخافون ربهم فيتقوه ويقلعوا عن ذنوبهم ويرجعوا إلى خالقهم جل شأنه .

٨ - « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » . (ق : ١)

المعنى : (ق) من الأسرار المرموزة وحق القرآن ذى المجد والشرف على سائر الكتب .

« بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ » . (البروج : ٢١ ، ٢٢)

المعنى : بل هذا القرآن ذو مجد وشرف على سائر الكتب وهو محفوظ ومصون من التحريف .

« إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » . (الواقعة : ٧٧ - ٨٠)

المعنى: إنه لقرآن مكرم معزز عالى القدر عظيم المنزلة عند الله والناس وهو فى كتاب مصون محفوظ لا يمسسه من البشر إلا من كان طاهر

البدن والنفس والقلب والعقيدة وهو منزل من رب الخلق جميعاً جل شأنه وعظمت ذاته وتباركت أسماؤه وكلماته رب العزة والجبروت .

١٠ ـ « فقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً ، يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً » صدق الله العظيم . (الجن : ١ ، ٢)

المعنى : قل يا محمد إنه قد أوحى إلى أنه أصغى إلى القرآن جماعة من الجن فلما عادوا إلى قومهم ذكروا لهم أنهم قد استمعوا إلى قرآن بديع عجيب فى إرشاده ونصحه واتساق أسلوبه ، وبلاغة كلماته ، ورصانة معانيه ، فآمنوا به واتبعوه ، وأخذوا بجمال ما فيه وأجمعوا على ألا يشركوا أحداً وإنما استمسكوا بالعقيدة صادقين متقين مؤمنين بالقرآن ورب القرآن مصدقين بالهادى البشير الذى أنزل عليه القرآن وقام بإبلاغه للإنس جميعاً وقد استمع إليه الجن .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *



بحوث القسم الثانى

القرآن الكريم والعلم

إجابة الزميل أحمد التهامى أحمد إسماعيل

محاسب قسم التأمينات الاجتماعية بإدارة شئون العاملين

السؤال الأول :

هل القرآن الكريم كتاب علمى أو هو كتاب يقوم على العلم ولا يتناقض معه عبر العصور والأزمان؟ اشرح ذلك مستدلا على رأيك بآيات القرآن الكريم .

الإجابة :

بسم الله الرحمن الرحيم

يعتبر القرآن الكريم سبباً للنهضة العلمية بين المسلمين كما حمل لواء الدعوة إلى العلم والنظر فى الكون ، فقد كانت أول آياته المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة إلى التعلم وأمرا به فى قوله تعالى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ • خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ • الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » .

(العلق : ١ ـ ٥)

وتنفيذاً لهذا الأمر الكريم فقد أطلق القرآن للعقل البشرى أن يأخذ بأسباب العلم عن طريق النظر إلى ما فى الكون من آيات وأن يتدبر فى مخلوقات الله ليهتدى إلى سنن الله التى هى النواميس والقوانين التى أبدع عليها جميع مخلوقاته ، ليعلم أسرارها ويسخرها لمنفعته ، وقد كانت هذه الدعوة سبباً فى أن يمعن المسلمون النظر والبحث والاستقراء والاستدلال ، والاستنباط وهذه هى حلقات المنهج العلمى ، وقد أيد القرآن الكريم ذلك .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » . (ق : ٦ – ٨)

وإذا كان القرآن الكريم قد أمرنا بالعلم وبين لنا المنهج العلمى للدراسة والبحث فإن ذلك يؤكد لنا أنه كتاب يقوم على العلم – فقد أمر المسلمين الأوائل بالتعليم والأخذ بمنهج النظر والتجربة فى زمان لم يعرف فيه هذا المنهج كسبيل للدراسة – أما بالنسبة لما تلا ذلك من عصور ومع تقدم ركب الحضارة وازدياد الاكتشافات العلمية فقد نهل العلماء من معين القرآن الكريم ما أعانهم على بناء هذه الحضارة الحديثة ، وما اشتملت عليه من عجائب الاكتشافات ، فما من حقيقة

علمية سواء فى علوم الطب والفلك والحساب وسائر فروع العلم إلا أيدها القرآن .

لقد أثبت العلم الحديث أن الأرض كروية وأن النجوم والكواكب تسير فى مدارات محددة والقرآن يؤيد ذلك فهو سبحانه يقول :

« وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » . (النازعات : ٣٠)

ويقول :

« وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُّظْلِمُونَ • وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ • وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ • لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

(يس : ٣٧ ـ ٤٠)

انظر فى الآية الأولى كيف يصف الأرض ؟ إن معنى كلمة دحاها فى اللغة العربية : الشئ المستدير الذى لم تكمل استدارته ، وقد أثبت العلم الحديث فعلا أن الأرض كروية ، ولكنها غير كاملة الاستدارة ، كما أثبت أن جميع النجوم والكواكب تسير فى مدارات محددة . كل ذلك أثبته القرآن الكريم قبل أن يتوصل إليه العلم الحديث ، والآية المبينة بعدها فى وصف النهار بأنه ينسلخ من الليل كأن الليل هو الكل والنهار بعضه ، أو الليل هو الأصل والنهار استثناء منه ، وفعلا ، أثبت علماء

الفلك أن معظم أرجاء الكون تعيش فى صقيع وظلام . فلا نور ولا حياة إلا فى الكواكب القريبة من النجوم التى تشع الحرارة والضوء كالشمس، وهى نسبة صغيرة من مجموع الكواكب التى يمتلئ بها الكون الفسيح ، والتى تعد بآلاف الملايين ، تفصل بينها مسافات فلكية فوق إدراك العقل الإنسانى تقدر بملايين الملايين من السنين الضوئية .

وخلاصة القول أن القرآن الكريم كتاب يقوم على العلم ولكنه ليس بكتاب علمى يتضمن نظريات علمية محددة ، فقد أثبت العلم نفسه أن النظريات العلمية عرضة للتغيير والأمثلة على ذلك كثيرة ولا حصر لها فى مختلف العلوم والمجالات ، وحاشا لكتاب الله وكلامه أن يكون عرضة لذلك ، ولكنه يتضمن فى بنائه العلمى ما لا يتناقض مع الحقائق العلمية ، وما يظهر به فوق الكتب العلمية علمياً وعصرياً فى كل زمان ومكان باعتباره الكتاب الخاتم الذى دعا إلى الإيمان عن طريق العلم ، فأيقظ القلب الإنسانى من سبات الغفلة ، ونبه العقل البشرى من غفوته بعد أن قطع الإنسان الدهر حائراً بين الدين والعلم حتى وحدهما الإسلام على طريق واحد فى القرآن الكريم .

* * *

بحوث القسم الثالث

القرآن الكريم واقتصاد المجتمع

من إجابة الزميل إبراهيم عبد الفتاح بدر الدين

مشرف فنى تنفيذ بفرع الإسكندرية

السؤال :

كيف ترى فى ضوء القرآن الكريم وتطبيقاته الاجتماعية أن الإسلام سبق النظم الاقتصادية المبتدعة فى أسسه الاقتصادية بقرون طويلة وبخاصة فى مجال منع الاستغلال الاجتماعى والقهر الاقتصادى .

الإجابة :

لقد كان الإسلام سباقاً إلى اكتشاف ضرورة إيجاد نوع من التنظيم الاقتصادى وبخاصة فى مجال منع الاستغلال الاجتماعى والقهر الاقتصادى وتوزيع الثروات الطيبات لكفاية التوازن بين أفراد المجتمع الواحد . فكان تشريع الزكاة الذى يفرض على كل مسلم يدين بالإسلام أن يقدم لبيت المال نصيباً مفروضاً من أمواله ليوزع على الفقراء والمحتاجين وذوى الحاجات والعاجزين عن التكسب .

وذلك بمجرد أن يفيض لديه بعض المال القليل وقد جعل الإسلام تشريع الزكاة ركناً أساسياً من أركان الإسلام بحيث لا يكون المسلم

مسلما إلا به . وقد حرص القرآن على إظهار صفة الحق فى أموال الزكاة بقوله تعالى :

« وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ • لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .

(المعارج : ٢٤ ، ٢٥)

وقال تعالى :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ » .

(التوبة : ١٠٣)

وهكذا سبق الإسلام ما تعتبره الحضارة الحديثة من محاسنها بما يقرب من أربعة عشر قرنا والذى لم نصل إلى تقديره إلا بعد ثورات وانحرافات وحروب دامية ، وهو ما أصبح يطلق عليه اسم العدالة الاجتماعية .

على أن الإسلام قد ذهب إلى أبعد مما حدث فى تقرير جوهر الاشتراكية الحديثة عندما اعتبر العمل لا رأس المال هو المصدر الأساسى للإنتاج وذلك بتحريم الفائدة على رأس المال تحريما غليظا ، بحيث لم يستعمل القرآن الكريم صيغة أعنف من صيغته فى تحريم الربا حيث يقول :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ

فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » .

(البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩)

وتطبيقا لذلك فإن من أقرض آخر قرضا فليس له إلا أن يسترد ما دفع بغير زيادة .

فها هى عظمة الإسلام وهو يقرر هذا المبدأ الاقتصادى ويعتبره أصلا من أصول التعامل فى المجتمع الإسلامى أما النظام الاقتصادى الحديث فيقوم على فائدة رأس المال ويتربع أصحاب البنوك فى العالم كله على عرش السيادة الاقتصادية والتحكم فى أقدار الأفراد والجماعات والأمم والشعوب بالفوائد الربوية التى يتقاضونها على رءوس الأموال .

وعندما قامت الثورة الشيوعية للحد من هذا الطغيان الرأسمالى لم تقف عند حد تقليم أظافر الرأسمالية بل أبت إلا أن تقتلع الرأسماليين وأن تهدر دماءهم فى غير رحمة أو شفقة فنشأت عن ذلك مظالم جديدة وطغيان من نوع جديد يهدر كرامة الإنسان وينكر عليه الحق فضلا عن الحرية .

وذلك كله على خلاف النظام الإسلامى ، الذى وقف على الحد اللازم للحيلولة دون الاحتكار والاستغلال وما يولده ذلك كله من طغيان ، وذلك بنزع زبان رأس المال الخبيث ، وتجريده من سلاحه وسلطانه الرهيب وهو الفائد الربوية تاركاً كل إنسان بعد ذلك يتمتع بثمار عمله وكده .

ولم يقف الإسلام عند حد تشريع القوانين الكفيلة بتحقيق حد أدنى من المعيشة للعاجزين والمحتاجين ولا عند تفويض سلطان رأس المال بإلغاء الفائدة ، بل حرص فوق ذلك وقبل ذلك على جعل ما أسماه الإنفاق فى سبيل الله أى على المصالح العامة والفقراء والمعوزين والمنكوبين والملهوفين من بنى الإنسان على اختلاف أجناسهم وأديانهم وأنواعهم جزءا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية والإيمان بالله فنرى آيات القرآن الكريم تنهمر فى هذه الناحية انهمارا ومن ذلك قوله تعالى :

« وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » .
(البقرة : ١٩٥)

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . (التوبة : ٣٤)

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » . (آل عمران : ٩٢)

ثم يوضح القرآن أنواع البر فيقول تعالى :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ

وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » . (البقرة : ١٧٧)

وقوله تعالى :

« آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » .

(الحديد : ٧)

وذهب التشريع الإسلامى إلى أبعد من ذلك كله حين جاءت النصوص تدعو إلى الإنفاق على الفقراء والمساكين مما يترتب على الكفارات بأنواعها : ككفارة الفطر العمد فى رمضان والفدية عن العاجز فيه عن الصوم ، وكفارة اليمين ، وكفارة الظهار كما نص الشرع الإسلامى على حق الجار وقد أكده القرآن الكريم مراراً فى مناسبات عدة وأخذ عليه المواثيق ومما ورد فيه قول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم :

(ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم به) .

وحديث ابن عمر (لم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه) .

ولذلك فلم يكن عجبا ، وهذه دعوة القرآن ، وهذه تعاليم الإسلام أن شهد المجتمع الإسلامى عبر القرون والأجيال ، جميع نظم الضمان الاجتماعى والتكافل الاقتصادى الذى يتصور المتصورون أنها من ثمار

الحضارة الأوروبية أو العصر الحديث فحق العلاج لكل فرد وحق الرعاية لكل مولود والرعاية الكاملة لكل عاجز وشيخ والطعام لكل جائع كانت دائما وأبدا من الحقوق المقررة فى المجتمع الإسلامى من خلال مئات وألوف المؤسسات التى قامت على نظم الوقف الذى هو نوع من تأميم مصادر الإنتاج للمصالح العامة فتحبس الملكية عن التداول ويحظر التصرف فيها وتوجه ثمارها إلى جهة بر لا تنقطع وعلى هذا الأساس أنشئت دور العبادة ، والمدارس والمعاهد والمستوصفات والمستشفيات وملاجىء اللقطاء .. واليتامى والعاجزين . كما أوجد العمل للسجناء بعد الإفراج عنهم وإطلاق سراح الأسرى وتحرير الأرقاء وإنشاء دور الضيافة لإقامة الغرباء .. إلى مئات وألوف الخدمات العديدة والمتناهية فى الإنسانية والتى لم تقف عند الإنسان بل تعدته إلى الحيوان وطيور السماء وهكذا سبق الإسلام النظم الاقتصادية المبتدعة فى أسسه الاقتصادية بقرون طويلة وبخاصة فى مجال منع الاستغلال الاجتماعى والقهر الاقتصادى .

فأمر الإسلام المسلمين أن يكرسوا حياتهم لتضميد جراح المجروحين ومواساة المحزونين ، والمنكوبين وأنصاف المظلومين ، ونجدة الملهوفين ، وإغاثة اليتامى والمساكين فتشيع البسمة على الشفاة ، والفرح يملأ القلوب ، والأمل والرجاء يعم الجميع .

هكذا جعل الإسلام التكافل بشعبتيه : الإلزامية كالزكاة وغيرها ، والأدبية كالصدقة وغيرها سببا فى مد يد المعونة وإغاثة الملهوف وتفريج

كربة المكروب ، وتأمين الخائف وإشباع الجائع والمساهمة العملية فى إقامة المصالح العامة .

يقول تعالى :

« وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . (آل عمران : ١٠٤)

هكذا انفرد الإسلام بإيجاد نظام اقتصادى يقوم على توزيع الطيبات والخدمات على سائر أفراد المجتمع عن طريق التكافل والتضامن عملا بنص الحديث : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) .

وهى صورة رائعة من صور الوحدة الإنسانية تعجز عن بلوغها كل النظريات المادية فى العصر الحديث وصدق الأستاذ – أحمد حسين – إذ يقول :

(فسيظل الإسلام نورا يهدى التائهين الحائرين والمتخبطين فى الظلام فى دنيا المادة وستظل مبادئه فى الدعوة إلى الإنسانية والعالمية والتآخى بين البشر هدفا سامياً جديراً بالعمل من أجل تحقيق أعلى أساس من الحب وبالحب وللحب) .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

بحوث القسم الرابع
القرآن الكريم والقومية العربية

إجابة الزميل مصطفى على إبراهيم
مساعد أمين مخزن بفرع طنطا

السؤال الأول :

إذا أردنا أن نتحقق من أن الله سبحانه وتعالى كانت له حكمة بالغة فى اصطفاء النبى وقومه الذين حملوا إلى العالمين رسالته الخاصة فسألنا أنفسنا هذا السؤال : لماذا ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية ولم يظهر فى أى مكان غيرها من العالم ، وما الحكمة من ذلك ؟ وضح رأيك ودلل على صحة إجابتك بأدلة من القرآن الكريم .

الإجابة :

لقد ظهر الإسلام فى بلاد العرب وكان ظهوره بين أمة يبدو فيها الكفاءة لحمل رسالته ، وكانت الأمة العربية هى المقصودة برسالة الإسلام وحمل راية الدعوة إليه لاعتبارات منها : بعد العرب عن الاقتناع الصريح بدين من سائر الأديان غير بقية من دين إبراهيم ، وعدم خضوعهم لسلطة دينية تحدد مصائرهم ، وبسبب الفراغ فى سلطة الدولة المركزية فى بلاد العرب ، وغياب الحكومة التى تعلن حمايتها لدين الشعب والمحافظة عليه بالحق أو الباطل ، ثم ظهور اليقظة الدينية بين

هذه الأمة على يد الأحناف ، وتطلعها إلى حياة دينية سليمة ، وكون العرب شعباً كان يتطلع إلى أخذ مكانه تحت الشمس ، مع حماستهم الطبيعية للجهاد المطلوب لنصر الدعوة فى المستقبل وجلدهم على المتاعب الخطيرة ، وتعودهم على الحياة الصارمة ، لزمن طويل .

وقد كان الشعب العربى قلقا لا يعرف الاستقرار النفسى حول العقيدة وكان يثير أسئلة كثيرة حول الشرك السائد بينهم عن غير اقتناع بل لمجرد أنه اتباع موروث عن الآباء كما حكى عنهم القرآن فى قوله تعالى :

« بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ • وَكَذَلِكَ ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَال مُتْرَفُوهَا إِنَّا وجدْنَا آباءنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » . (الزخرف : ٢٢، ٢٣)

وكما نعرف عن الفرس الشعب المجاور للعرب فإنهم كانوا وثنيين ولكنهم كانوا أقوى ثباتاً على وثنيتهم من العرب على شركهم ، وكانت لهم دولة تحمى المذهب الدينى لشعبها ، وكان لملوكهم سلطات تواجه بالعنف أى نبى يظهر فى بلادهم لأنه لا بد أن يمس نفوذهم وكان من الضرورى أن يخضع دعاة الأديان فى بلاد الفرس لتأثير القوة المالكة من السياسيين ورجال الدين المتحكمين فى الناس ومثل ذلك يمكن أن يقال عن الشعوب الأخرى من غير العرب .

لهذه الملابسات كلها وغيرها كان من حكمة الله أن تظهر دعوة الإسلام فى بلاد العرب لأنه الشعب الوحيد الذى توفرت فيه كل المقومات اللازمة لإنجاح الدعوة بعد الإيمان بها .

ويبدو أيضا أن هناك اتجاها لحفظ بلاد العرب من الغزو الأجنبى وحمايتها من سلطة طبقية فيها — ويتضح ذلك فى البيت الحرام — ضد الغزو الحبشى بقيادة (أبرهة) حيث أرسل الله عليهم طيراً أبابيل .. وقد ورد ذلك فى قوله تعالى فى سورة الفيل :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » .

فهكذا كان تفريغ المنطقة العربية من أى سلطة داخلية أو خارجية تمهيدا لظهور رسالة الإسلام ، بمشيئة الله وتأمينا لبيته وحفاظا على الجزيرة العربية التى توحدت به حتى تبقى متحررة من أى سلطان تمهيداً لظهور الإسلام ومعه سلطان الله وحده على من آمنوا بالدين الحق .

* * *

بحوث القسم الخامس

القرآن الكريم والشريعة

إجابة الزميل : طاهر بهنساوى عمر – المحاسب بالأقسام التكميلية

السؤال الثالث :

ينص الدستور الدائم لدولة العلم والإيمان على أن الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع . فما هو الطريق الأمثل فى رأيك للعودة بتشريعنا وقوانيننا إلى هذا المصدر ؟

كيف نعود بتشريعنا وقوانيننا إلى الشريعة الإسلامية ؟!

الإجابة :

فى أوائل القرن الحالى بدأ المسلمون فى بقاع العالم ينتبهون من غفوتهم ويحاولون استعادة مجدهم العلمى ويعملون للرجوع إلى أحكام الفقه الإسلامى .. فقد قام رجال الدين الإسلامى بالكتابة عن الفقه الإسلامى والبحث فى كتبه على مختلف مذاهبها دون الوقوف فى البحث عند مذهب واحد .

كما أن المغفور له الشيخ أحمد إبراهيم أستاذ الشريعة سابقا بكلية الحقوق جامعة القاهرة كان ينادى بوضع قانون شرعى غير مقيد بمذهب معين .

وهكذا بدأت الأنظار تتطلع إلى الفقه الإسلامى من جديد وأخذ المقننون ورجال التشريع يرجعون إلى كتب الشريعة ويتأثرون بها فى الكثير من مواد القانون ، وعلى رأس هؤلاء القانونيين الدكتور السنهورى .

وفى عام ١٩٤٨ صدر القانون المدنى رقم (٣١) مقتبساً الكثير من أحكامه من الفقه الإسلامى . . هذا بالإضافة إلى أن الفقرة الثانية من المادة الأولى فى هذا القانون نصت على :

(إذا لم يوجد نص شرعى يمكن تطبيقه ، حكم القاضى بمقتضى العرف فإذا لم يوجد فبمقتضى مبادىء الشريعة الإسلامية) .

هذا ونجد أن الكثير من مواد وأحكام مختلف القوانين فى بلادنا يتفق مع الفقه الإسلامى .. ولو فى الروح على الأقل ، ونجد مواضع الخلاف محدودة يمكن مع حسن النية إذا تشكلت لجان من رجال القانون والمتحررين من الفقهاء أن يقربوها من الفقه الإسلامى مما يجعل مجتمعنا المعاصر أكثر التصاقا بشريعة الله . كما أن كثيرا من الدول الإسلامية الأخرى جعلت الأساس عند وضع قوانينها .. نصوص الفقه الإسلامى .

ونود أن نشير هنا إلى أن الفقه الإسلامى أصبح موضع اهتمام رجال القانون فى الدول الأخرى غير الإسلامية ، ففى المؤتمر الدولى للقانون المقارن والمنعقد فى مدينة لاهاى عام ١٩٣٢ أعلن الأستاذ لامبير الفقيه

الفرنسى تقديره الكبير للفقه الإسلامى .. وقد أرسل الأزهر مندوبين عنه إلى هذا المؤتمر فى دورته الثانية المنعقدة عام ١٩٣٧ بناء على دعوة موجهة إليه من المؤتمر .

وقد تقدم ممثلو الأزهر إلى المؤتمر ببحثين :

الأول : يوضح المسئولية الجنائية والمدنية فى نظر الفقه الإسلامى .

الثانى : يوضح علاقة القانون الرومانى بالشريعة الإسلامية ونفى ما يزعمه بعض المستشرقين من تأثر الفقه الإسلامى بذلك القانون .

وقد كان من نتيجة ذلك أن قرر المؤتمر بإجماع الآراء :

اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام .

الشريعة الإسلامية صالحة لكل عصر .

اعتبار الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها .

وفى يوليو عام ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولى للحقوق المقارنة مؤتمرا فى كلية الحقوق بجامعة باريس للبحث فى الفقه الإسلامى تحت اسم (أسبوع الفقه الإسلامى) برئاسة المسيو ميو أستاذ الشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق بجامعة باريس . وحضره عدد كبير من رجال الفقه الإسلامى ورجال القانون فى العالم العربى .

وفى خلال المناقشات قال أحد نقباء المحامين السابقين فى باريس :

(كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامى وعدم صلاحيته أساساً تشريعياً يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور ، وبين ما نسمعه الآن مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادىء) .

وفى ختام المؤتمر تم اتخاذ القرارات الآتية بالإجماع :

• مبادىء الفقه الإسلامى لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها .

• إختلاف المذاهب الفقهية ينطوى على ثروة من المفاهيم والمعلومات من الأصول الحقوقية التى هى مناط الإعجاب وبها يتمكن الفقه الإسلامى من أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجياتها .

ثم أوصى المؤتمر بإخراج موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقا للأساليب الحديثة .

وما أوصى به المؤتمرون فى أسبوع الفقه الإسلامى .. لم يكن فى الواقع أول صوت يرتفع بهذا الاقتراح بل سبقت ذلك مجلة المحاماة الشرعية فى عددها السابع من السنة التاسعة عشرة تحت عنوان (إنشاء مجمع فقهى لخدمة الفقه الإسلامى) وفيه أن الفقه الإسلامى حوى من النظم والأحكام ما يكفى المجتمع البشرى فى التشريع فى كل زمان ومكان .. ومع هذا فلم يعتد به المتأخرون ولم ينظموه التنظيم الحسن الذى يمكن من الاستفادة منه بسهولة ، ولو عنوا به لألفوا منه دائرة معارف فقهية خاصة بكل مذهب ، ودائرة معارف فقهية كبرى تحيط بجميع المذاهب بأدلتها ، وتجمع جميع الفتاوى والأقوال منسقة تنسيق دوائر المعارف القانونية الأوروبية وطالبت إدارة المجلة أن تقوم وزارة

العدل والأزهر الشريف بالعمل على إصدار مرسوم بإنشاء المجمع الفقهى تحقيقاً لما ينشده رجال الفقه والقانون والتشريع .

كما أن الدكتور محمد سلام مدكور أستاذ الشريعة بكلية الحقوق جامعة القاهرة .. قد فكر فى حوالى الخمسينات تقريبا فى عمل فهرست تحليلى للموضوعات التى وردت فى كتب الفقه تبين فيه المراجع التى جاء بها كل موضوع أو جزئية .. فيذكر فيه أرقام الأجزاء والصفحات التى ورد فيها الموضوع والجزئية فى كل كتاب من كتب الفقه مع بيان طبعته .

وقام الدكتور بعرض هذه الفكرة على رجال القضاء وعلماء الأزهر ، وحاول فترة من الزمن القيام بهذا العمل ، ولكنه اكتشف مشاق هذا العمل واحتياجه لنفقات ومكتبات وتفرغ ، حتى يكون العمل على وجه مرضى ؛ وقد توقف عن إتمام هذا العمل لعجزه .. ولا يستطيع أحد القيام به إلا إذا أشرفت عليه هيئة حكومية وأمدته بالمال والرجال.

ويقول الدكتور محمد سلام .. «يا حبذا لو تحققت هذه الفكرة .. فإن ذلك سيكون عملا جليلا ومشرفا للدولة وميسراً لسبل الاطلاع على الأحكام الفقهية فى مختلف المراجع ، ويكون بمثابة دائرة معارف لفهارس المسائل الفقهية ، وحقا قد مضت الأيام على هذه الفكرة وعلى القرار الذى اتخذه المؤتمر ، ولم تنشط حكومة من الحكومات العربية ولا جامعة أو مجمع من المجامع لتحقيقها . حتى صدر فى سورية مرسوم جمهورى رقم ١٧١١ فى ١٩٥٦/٥/٣ ونصت مادته الأولى على :

أن تصدر كلية الشريعة الإسلامية فى الجامعة السورية موسوعة للفقه الإسلامى ، غايتها صياغة مباحث الفقه الإسلامى بمختلف مذاهبه وإفراغها فى مصنف جامع مرتب على غرار الموسوعات القانونية الحديثة .

وقد ألف مجلس الجامعة السورية بناء على اقتراح مجلس كلية الشريعة لجنة لدراسة طرائق الموسوعات القانونية وأساليبها وتقابل ذلك تلك الطرق بأبحاث الفقه وأبوابه وتتصل ما استطاعت بكبار رجال الفقه والقانون .

واتصلت اللجنة فعلا بالمسئولين فى الإقليم الجنوبى (مصر يوم أن كانت فى وحدة مع سوريا) وأمكن بعد ذلك أن تعد وزارة الأوقاف بالإقليم الجنوبى مشروع قانون فى عام ١٩٦٠ يقضى بإنشاء مؤسسة تدعى دائرة المعارف الإسلامية .

وهذه المؤسسة ترمى إلى وضع مدونة جامعة للمعارف الإسلامية وفقا للأساليب الحديثة . على أن تتبنى هذه المؤسسة مشروع موسوعة الفقه الإسلامى ، وقد اعتمدت وزارة الأوقاف يومها لهذا العمل خمسين ألف جنيه وصرفت منها فعلا خمسة آلاف جنيه لبعض المهتمين بالأمر من السادة العلماء فى الإقليم السورى .

وكان قد تم وضع مشروع لتنظيم العمل وضم الكثير من المشتغلين بالفقه الإسلامى فى الإقليمين ولكن حتى الآن لم يبدأ التنفيذ الذى ننتظره..»

ويستمر الدكتور محمد سلام مدكور فى كتابه قائلا :

(يا حبذا بعد هذا لو اتجه رجال التشريع فى جمهوريتنا إلى النظر فى مختلف قوانيننا واستمدتها من الفقه الإسلامى بمختلف مذاهبه وما فيه من آراء إذ هى كلها بمثابة آراء فى مذهب واحد كبير هو الفقه الإسلامى فتقوم أسس ما نصدره من قوانين على أحسن ما فى هذا الفقه من آراء وأكثر النظريات ملاءمة لهذا العصر حتى نصل حاضرنا القانونى بماضينا الفقهى المجيد) .

ويستمر الدكتور مدكور فى كتابه قائلا :

ونحن واثقون من أن الفقه الإسلامى بمذاهبه العديدة وآرائه المختلفة إذا استوعبت أحكامه . وأجهد الفقهاء فى العصر الحاضر أنفسهم لمواجهة الحياة مواجهة فعلية غير واقفين عند اجتهاد السابقين إذ أن أحكامهم الاجتهادية قابلة للتغيير والتعديل كلما اقتضت مصالح الناس ذلك والوقوف عندها كما يقول القرافى : ضلال فى الدين وجهل بمقاصد العلماء .

ويقوم الآن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى جمهورية مصر العربية بتحقيق هذا الأمل ، فقد أصدر ثلاثة عشر مجلدا من موسوعة الفقه الإسلامى الذى يقدر أن يصل عدد مجلداتها إلى الستين ويقوم بإعدادها خلاصة المفكرين المسلمين فى أنحاء العالم العربى والإسلامى .

ويقول المستشرق المجرى الأستاذ فبرى :

(إن فقهكم الإسلامى واسع جداً إلى درجة أننى أعجب كلما فكرت فى أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لبلادكم وزمانكم) .

والعرض السابق يوضح لنا كيف نعود بشريعتنا وقوانيننا إلى الشريعة الإسلامية ، ويعرض لنا أيضا أكثر من طريق .. وكان ذلك مستمداً من الآراء والأبحاث والدراسات التى كما رأينا تم مناقشتها على مستوى عالمى ودولى .

وفى هذا الصدد يقترح الدكتور سليمان الطماوى تكوين مجلس استشارى من المسئولين من رجال الدين والقانون على أن يتم عرض كافة مشروعات القوانين على هذا المجلس قبل أن تتولى السلطة التشريعية إصدارها ، وذلك حتى يقرر هذا المجلس مدى مطابقتها للأصول العامة فى التشريع الإسلامى ثم يعرض هذا الرأى على السلطة التشريعية قبل أن تقرر التشريع بصفة ملزمة .

ويقول الدكتور الطماوى إن هذا الحل لا يجافى بحال من الأحوال الأصول الدستورية الحديثة لأن من حق المجالس المنتخبة أن تستعين فى أثناء عملها بآراء الفنيين والمتخصصين لتغطى ما فى أعضائها من نقص بسبب عدم اشتراط التخصص الفنى فى المرشحين . ولهذا تعددت المجالس الفنية على مستوى الدولة فى مختلف المجالات .

لقد كان من رأى الدكتور الطماوى باستمرار أن ذلك غير جائز ، ولهذا إذا أردنا لمثل هذه النصوص أن تطبق وألا تبقى حبراً على ورق ومجرد شعارات جوفاء فإنه من المتعين البحث عن حل يحقق مقتضيات الحياة العصرية ومتطلباتها ولا يخرج فى الوقت ذاته عن أسس الشريعة الإسلامية ومقتضياتها .

ويستمر الدكتور فى شرحه قائلا :

إننا بحاجة ملحة إلى القضاء على كل تنافر ظاهرى بين عقائدنا السماوية وبين مستلزمات حياتنا المعاصرة وهو تنافر لا يقوم على أساس عند الفحص والتمحيص فى غالبيته العظمى .

والحل الذى يقترحه الدكتور الطماوى وهو تكوين مجلس استشارى.. هو حل ميسور عملا ولا يعطل مبدأ من المبادئ المسلم بها دستورياً فضلا عن جدواه وفاعليته فى تحقيق الانسجام التشريعى لأعلى مستوى داخل جمهورية مصر العربية كما أن من شأنه أن يقطع الألسنة التى يطلقها المعترضون ليعطلوا التحرر والتقدم باسم الدين ، والدين منهم برئ .

ويستمر الدكتور الطماوى مؤيداً رأيه المقترح فيقول :

ولا محل للقول بأن مثل هذا الحل سيفرض وصاية على البرلمان وأن من شأنه أن يجمد التطور لأن رأى الجهة التى يقترحها سيكون رأياً استشاريا من حيث المبدأ ويقتصر أثره على تبصير السلطة التشريعية بحكم الشريعة من حيث المبدأ فى التشريع المقترح . ويقول الدكتور الطماوى إنه من دراسته اتضح له أن معظم التشريعات العصرية لا تنافى

مع أصول الشريعة الإسلامية كما شهد بذلك المجتهدون من رجال العصر..
ولما كانت المبادىء التى فرضها الإسلام تقف عند الأصول الكلية ،
وتتسع لما فيه مصلحة الناس ، فإنها لن تكون عقبة فى سبيل التطور .

بعد العرض السابق يتضح لنا :

أننا جميعا فى الدول العربية نؤمن بأن الشريعة الإسلامية شريعة عبادات ومعاملات أيضا — وأنها رسمت كل ذلك على أحدث القوانين وأصلحها وأدومها — مراعية فى ذلك العدالة وهى الأساس الأول لكل تشريع سماوى أو قانون وضعى — وأنها لم تقف أمام أية مشكلة مكتوفة الأيدى بل إن فى قضاياها الكلية من السعة والشمول بحيث تنظم كل معاملة دينية أو دنيوية فى كل زمان ومكان إذ نزلت الشريعة الإسلامية منذ ما يزيد على (١٣) قرنا فوضعت للناس قانوناً ينظم حياتهم ويهديهم إلى الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة .

كما أننا نؤمن بأن المسلمين لم يتركوا شريعتهم وإنما كان ذلك الإهمال بفعل الاستعمار . فلقد ظلت شريعة الإسلام تحكم معاملات الناس وحياتهم حتى ابتلى المسلمون فى البلاد العربية والإسلامية بالاستعمار وحمل المستعمر معه شرائعه وقوانينه عوناً له على التحكم ورغبة منه فى انتزاع شوكة الإسلام من هذه البلاد .

ثم أدرك الشعب العربى الإسلامى هذه الحقائق . . وبالتالى فإن عليه تنقية شرائعه مما دس عليها ، ولكن عليه أن يسلك إلى ذلك طريق التدرج ، وذلك إعمالا لسنة التدرج فى خلق الكون والتدرج فى إصلاح حال المسلمين .

وهذا ما نأمله ونرجوه فى عهدنا الحالى .

وفقنا الله إلى ما هو خير للأمة الإسلامية .

* * *

بحوث القسم السادس

القرآن الكريم والبيان

إجابة الزميل المهندس صفى الدين سعيد صفى الدين

مهندس بفرع أسوان

السؤال الأول :

يقول الله فى كتابه الكريم :

« الرَّحْمٰنُ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الإِنْسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » .

(الرحمن : ١ — ٤)

ماذا تعنيه معنى هذه الآيات من قوة التلازم والارتباط بين الإنسان فى حكمة خلقه . والإنسان فى مسئوليته عن دينه وشريعة خالقه ، والإنسان فى قدوته على استبانة الطريق السوى إلى الله وهو يعى هذه الشريعة من خلال لغته وبيانه ؟

الإجابة :

من المعلوم أن الله لم يخلقنا عبثا

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » .

(المؤمنون : ١١٥)

وإن لخلق الإنسان حكماً عديدة منها :

(١) العبادة : لقوله تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » . (الذاريات : ٥٦)

(٢) الخلافة : لقوله تعالى :

« وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » .

(البقرة : ٣٠)

(٣) العمل والبحث والاجتهاد فى سبيل طلب الرزق :

« فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » . (الملك: ١٥)

(٤) التعارف :

« إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا»

(الحجرات : ١٣)

وكثير غيرها خلق الإنسان من أجله ، وإنه لن يتسنى للإنسان القيام بأداء أنواع العبادات التى خلق من أجلها إلا إذا كان على علم بها ، فرضها ، وتطوعها .. إلخ . كما أنه سوف لا يكون خليفة لله إلا إذا اتصف بصفاته ولن يتسنى له الاتصاف بصفات الله سبحانه وتعالى إلا عن طريق القرآن الكريم لذلك نجد الفرق واضحا جليا بين مسلم يحفظ كتاب الله وبين غيره ، فالحافظ لكتاب الله أقدر وأحلم وأعلم وأعبد .

من كل هذا ومعه غيره يتضح أن هناك تلازما وارتباطا بين حكمة الخلق والمسئولية الدينية ، فالمسئول لا يكون قادرا على القيام بأعباء مسئولياته إلا إذا كان عاملا بأبعادها لذلك جاء التلازم الواضح فى قوله :

«الرَّحْمٰنُ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الإِنْسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» (الرحمن :١-٤)

فلقد اقتضت حكمة الله الحق تبارك وتعالى أن يكون العلم عامة سبيلا للهداية فإنه بغير القراءة لا يهتدى الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ولا يتعرف عليه ، ولا يمضى قدما على طريق الحق والخير !.. ثم يجئ الإنسان على رأس المخلوقات جميعها إذ هو وحده الذى حمل الأمانة أى العقل والتكليف ومن بينها جميعا فيكون هو المتلقى لمجتمع كلمات الله ، القارئ المستبصر ، الذى يكتشف بقراءته دلائل القدرة الإلهية فيؤمن بالله ، ويقوم على خلافته فى الأرض ، ويقيم موازين العدل فيها .

كما أن التلازم والارتباط يظهر واضحا عند إمعان النظر فى الآيات الكريمة من حيث أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وهو قادر على أن يكشف حقائق الأشياء ، ويتعرف عليها ، ويميز بينها بقوله تعالى :

« عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » (الرحمن : ٤)

يكشف عن الحال التى خلق عليها الإنسان فقد خلقه الله تعالى وفيه

استعداد ذاتى لكسب المعرفة وتحصيل العلم . الأمر الذى ليس لكائن غيره إلا ما كان من عالم الجن فعرف الحق والباطل ، والخير والشر ، والنور والظلام ، والهدى والضلال والنافع والضار ، والحلو والمر ، والجميل والقبيح .

والبيان الذى علمه الله تعالى للإنسان ، إنما يتجلى فى صورتين : الكلمة : التى تصدر بها حقائق الأشياء ويتناول بها المعرفة ، والعمل : الذى يحقق معنى الكلمة ويصرح عن مضمونها .

إذن فلا فائدة ترجى من خلق الإنسان إلا وقد خلقه الله وفيه الاستعداد الفطرى والدفع التحريرى للبيان الذى يستطيع به أن يرى ويبصر ويتفاعل ويعمل فينتشر العلم ويبلغ ويأمر وينهى فيكون فى جملته إنسانا قادرا على أن يبين الحق من غيره والشر من غيره ، فيكون مخلوقا لله وبالله وإلى الله .

* * *

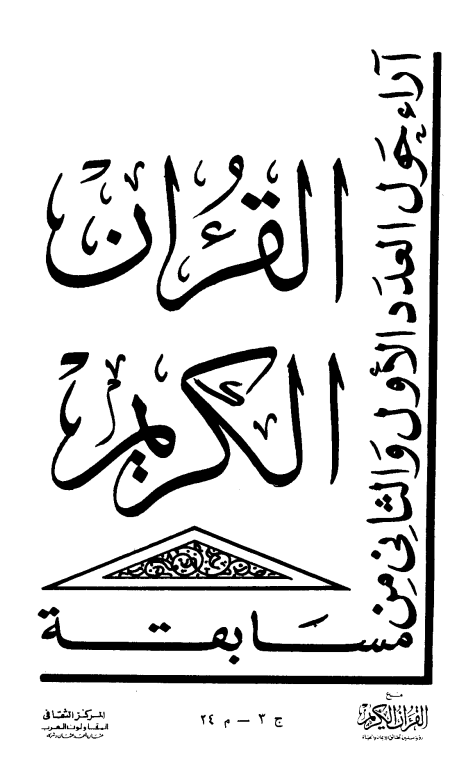
اسماء أوائل الفائزين

مرتبة أبجديــا

١ ــ ابراهيم عبد الفتاح بدر الدين ــ مشرف فنى تنفيذ ــ مرسى مطروح ــ فرع الاسكندرية.
٢ ــ ابراهيم محمد محمد جوهر ــ ملاحظ ثان ــ فرع شبرا .
٣ ــ أحمد التهامى أحمد اسماعيل ــ قسم التأمينات الاجتماعية ــ ادارة شئون العاملين.
٤ ــ أحمد عرفة محمد سليمان ــ م. محاسب الادارة المالية .
٥ ــ أحمد محمد مروان ــ محاسب عمليات ــ فرع القاهرة .
٦ ــ أسامة توفيق شلبى مصطفى ــ مهندس ــ فرع طنطا .
٧ ــ السيد سلبمان منصور ــ محاسب بادارة الميزانية .
٨ ــ جلال عبد العليم سليمان ــ فنى ميكانيكى ــ مشروع الالمونيوم ــ نجع حمادى ــ فرع أسوان .
٩ ــ حسن احمد شاهين ــ موظف بالادارة المالية ــ فرع شبرا .
١٠ ــ سعد كمال أحمد حسن ــ مهندس ادارة التنسيق .
١١ ــ سعيد صادق فوده ــ مساح ــ منطقة مرسى مطروح ــ فرع الاسكندرية .
١٢ ــ سعيد عبد التواب عطية ــ كاتب ــ فرع حلوان .
١٣ ــ سيد حسين محمد سمك ــ مراقب أمن ــ فرع شبرا .
١٤ ــ سيد عبد العزيز سيد على ــ كاتب ــ مرسى مطروح ــ فرع الاسكندرية .
١٥ ــ سيد محمد محمد عثمان ــ أمين مخزن ــ فرع شبرا .
١٦ ــ شعبان البسيونى على هلال ــ سائق عمومى ــ فرع طنطا .
١٧ ــ شعبان سعد عطية ــ أمين مخزن ــ الاقسام التكميلية .
١٨ ــ صابر عبد السيد محمد ــ براد ــ فرع شبرا .
١٩ ــ صفى الدين سعيد محمود ــ مهندس تنفيذ ــ مجمع الالمونيوم ــ نجع حمادى .
٢٠ ــ صلاح الدين محمد على البكرى ــ مساح ــ معهد الهرم .
٢١ ــ صلاح الدين وهبة على ــ ملاحظ قسم صيانة التحركات ــ فرع شبرا .
٢٢ ــ طاهر البهنساوى عمر ــ محاسب ــ بالاقسام التكميلية .
٢٣ ــ عاطف عبد العزيز ــ مهندس ــ ادارة التنسيق .
٢٤ ــ عامر محمد ابو زيد عامر ــ موظف بالادارة المالية .
٢٥ ــ عبد الباقى ابراهيم عبد الباقى ــ ملاحظ تشوينات مشروع الالمونيوم بنجع حمادى.
٢٦ ــ عبد الحميد المرسى محمد ــ ملاحظ تنفيذ ــ نجع حمادى .
٢٧ ــ عبد الحميد بن الامام محمد عطوط ــ م . امين مخزن ــ فرع شبرا .
٢٨ ــ عبد الحميد حامد عبد الحميد عبد البارى ــ عملية مصنع بورتكس ــ فرع طنطا .
٢٩ ــ عبد الرحمن السيد عليوة ــ ادارة التحركات ــ فرع شبرا .
٣٠ ــ عبد الرحمن عمار محمود ــ موظف بالأقسام التكميلية .
٣١ ــ عبد الغنى محمود قاسم ــ سائق درجة ثالثة ــ المعدات البحرية .

٣٢ ـ عبد الله حسين محمد البراوى ـ امين خزينة ـ عملية مخازن الفيوم ـ فرع القاهرة.
٣٣ ـ عبد المجيد محمد أحمد الصياد ـ فرع شبرا ـ ادارة الورش .
٣٤ ـ عبده محمد خليل ـ حداد مسلح ـ مشروع الالمونيوم ـ نجع حمادى .
٣٥ ـ عزت محمد خليل ـ موظف ـ فرع القاهرة .
٣٦ ـ على شعبان عبد العزيز غمرى ـ محاسب فرع القناة وسيناء .
٣٧ ـ على صباح محمود خير الله ـ مشرف فنى تنفيذ مرسى مطروح ـ فرع الاسكندرية .
٣٨ ـ على عبد النبى عز الدين ـ موظف معهد التدريب .
٣٩ ـ عليوه محمد محجوب .
٤٠ ـ فريد أحمد فتح الله الكردى ـ موظف بالسجلات ادارة شئون العاملين .
٤١ ـ محمد ابراهيم سيد أحمد قريطم ـ موظف بالثقافة العمالية ـ ادارة شئون العاملين.
٤٢ ـ محمد أبو بكر محمد ـ مراجع بالمراجعة الداخلية .
٤٣ ـ محمد بهى الدين محمد حسنين ـ نجار مسلح ـ فرع حلوان .
٤٤ ـ محمد عبد الحميد عابدين ـ م. كهربائى عمارة عرابى .
٤٥ ـ محمد عبد الفتاح ابو العلا ـ موظف بالسكرتارية العامة ـ فرع ليبيا .
٤٦ ـ محمد على والى ـ موظف ـ فرع حلوان .
٤٧ ـ محمد على يوسف السعدى ـ براد ـ فرع شبرا .
٤٨ ـ محمد فؤاد عبد المجيد ـ الشئون القانونية ادارة شئون العاملين .
٤٩ ـ محمد فوزى صفى الدين ـ أمين مخزن ـ فرع الاسكندرية .
٥٠ ـ محمد محمد عبد الفتاح شبانة
٥١ ـ محمد محمد محمد الشيخ ـ مشرف امن وحراسات ـ فرع الاسكندرية ـ مرسى مطروح .
٥٢ ـ محمود السيد أبو اسماعيل ـ مركز تدريب . قسم اللحام ـ فرع شبرا .
٥٣ ـ محمود شوقى عبد الرازق ـ محاسب بالادارة المالية .
٥٤ ـ محمود عبد الرحمن عبد الرحمن ـ مشرف فنى تنفيذ مرسى مطروح ـ فرع الاسكندرية .
٥٥ ـ محمود مرسال فرج ـ لحام معادن المنشآت المعدنية ـ فرع شبرا .
٥٦ ـ مصطفى على ابراهيم مصطفى ـ م. امين مخزن ـ فرع طنطا .
٥٧ ـ نجم فرج نجم ـ موظف ـ فرع الاسكندرية .
٥٨ ـ وداد محمد درويش ـ موظف بالادارة الادارية .

* * *


آراء حول العدد الأول والثاني من
القرآن الكريم
مسابقة
مع
القرآن الكريم
المركز الثقافي
المقاولون العرب
ج ٣ — م ٢٤

رسالة من أمريكا

مصدر حديث للمعلومات الصحيحة عن الإسلام

آن آربر — جامعة ميتشجان
الولايات المتحدة
فى ١٥ مايو ١٩٧٥

الأخ الكريم المهندس عثمان أحمد عثمان رئيس شركة «المقاولون العرب» عثمان أحمد عثمان وشركاه — القاهرة

تحية طيبة مباركة وبعد

فى مناسبة حسنة حصلت من بعض الأصدقاء على العددين الأول والثانى من مسابقة القرآن الكريم ، وكان ذلك أثناء مرورى بالقاهرة فى زيارة لبعض أقطار الوطن العربى فى مهمة جامعية حول دراسات مشتركة عن اللغة العربية .. لغة القرآن الكريم .

وعندما عدت إلى أمريكا ، واطلعت مع بعض علماء المسلمين على محتويات هذين العددين وما تضمنته الأبحاث المنشورة بهما ، والقضايا الإسلامية المختارة لموضوعات المسابقة ، تأكد لنا أننا نجد أخيرا ما كنا نبحث عنه من هذه المعالجة الموضوعية للدين ، والفكر

الإسلامى ، بطريقة قائمة على نفس الأسلوب العلمى السائد وجوده فى الغرب اليوم .

لقد تحقق لنا ، وبخاصة بعد المناقشة فى هذه المعلومات مع الطلبة الأمريكيين أنفسهم ، ومع غيرهم من الشباب المسلمين ، ومن الكبار ، أن هذه المسابقة القرآنية التى تنهضون بواجب إصدارها هى مصدر حديث وخصب للمعلومات الصحيحة ، وللحقائق العلمية عن الإسلام، يجد فيه الطالب والأستاذ الجامعى وإمام المسجد فى الولايات المتحدة الأمريكية ما يرغب فى الحصول عليه من هذه الحقائق التى يحويها القرآن الكريم ، مع ما تتضمنه من تعاليم مرشدة ونافعة للإنسانية جمعاء .

وإنه ليسرنى أن أخبركم باستفادتى شخصيا من هذا المصدر القيم فى أبحاث المسابقة القرآنية فى تصحيح بعض الأخطاء الشائع وجودها فى كتب المستشرقين المتداولة فى أمريكا ، أو فى الأقوال التى يلقونها فى محاضراتهم .

وكذلك فإن بعض أئمة المسلمين هنا ممن اطلعوا على المسابقة قاموا باختيار محاضراتهم ومواعظهم الدينية من موضوعات هذين العددين . وأقول لكم شاكرا إن التوفيق قد حالفنا فى هذه المحاضرات والندوات والمواعظ بسبب رئيسى واحد هو أن طريقة معالجة هذه الموضوعات الإسلامية الأساسية فى ضوء القرآن الكريم كانت تتناسب — كما ذكرت — مع العقلية الغربية والعالمية المعاصرة ، لأنها تسير

بموجب الطريقة العلمية الحديثة التى يتقبلها الشباب المعاصرون سواء من المسلمين أو من غيرهم فى أمريكا .

وأذكر من أسماء الزملاء الذين يشاركوننى الإعجاب بعملكم وجهدكم فى كتب المسابقة القرآنية الأستاذ الإمام عادل مطيع الأسير مدير المركز الإسلامى فى توليدو ، والأستاذ الإمام محمد أديب خروب مدير المركز الإسلامى فى ديترويت ، وكذلك صديقى الدكتور عثمان أحمد عثمان مدير المركز الإسلامى فى مدينتنا آن آربر عاصمة ولاية ميتشجان ، وفيها الجامعة التى أعمل بها .

إن الجميع هنا يتمنى النجاح والاستمرار لهذه المسابقة ، كما يسرنا أن تنتشر مطبوعاتها فى بلاد الغرب ، وبخاصة فى الأوساط الجامعية والمراكز الإسلامية فى أوروبا وأمريكا ، وذلك لأنها كما تحققنا بالفحص والتمعن والتجربة تقدم أكبر خدمة عصرية للثقافة الإسلامية ، ولتجديد التراث الإسلامى العظيم بطريقة مقبولة وصحيحة ، وكما أنها مرجع حديث يوفر من حيث الشكل والمضمون نشر الحقائق العلمية فى الفكر الإسلامى ، والمنهج القرآنى ، بين الشباب من الطلاب ، وغيرهم ، كما جاء من ذلك على سبيل المثال فى موضوع العلم فى القرآن فى الكتاب الثانى ، وما جاء عن الجهاد ، وعن مكانة المسجد ووظائفه فى المجتمع الإسلامى ، وعن الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية ذات الخصوبة المتجددة فى كل عصر ، وغير ذلك من الموضوعات التى يمكن للطلبة أن

يستفيدوا منها على جميع المستويات ، بل وفى رسالاتهم وأطروحاتهم الجامعية .

إننى وأصدقائى من العرب والمسلمين هنا ندعو الله أن يجزيكم عن هذا الجهد خير الجزاء ، وأن يوفقكم للاستمرار فى خدمة الإسلام الثقافية بهذه الطريقة الصحيحة التى تتناسب مع حاجات ومفاهيم هذا الجيل المعاصر ، فى الوطن العربى ، وفى غيره من بلاد العالم المتقدم وحيث يوجد عرب ومسلمون ..

والسلام عليكم ورحمة الله .

دكتور / راجى محمود رمونى

استاذ اللغة العربية بجامعة ميتشجان
بالولايات المتحدة الأمريكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أما بعد — فقد تتبعت بمزيد من الاهتمام تلك الخطوات المباركة التى تخطوها أسرة « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » فى سبيل نشر الثقافة الدينية بين أفراد أسرتها .

إن من يتعرف على هذه الأسرة الكريمة ، يعرف أنها لا تقوم على تبادل المنفعة ، وإنما تقوم على أسس إنسانية كريمة . دفعتها لبث هذه الثقافة بين أفرادها دعما لأواصر الحب والتعاون المثمر ، ونهوضاً بالتفكير السوى الذى يكفل التعادل بين التيارات المختلفة التى تجتاح عالم اليوم .

إن الأسلوب الجديد الذى تسلكه المؤسسة فى بث الثقافة الإسلامية أسلوب عصرى مع الالتزام بالحقائق وأسلوب نافع وجذاب ، يثير الشوق إلى القراءة الجادة المثمرة .

وإن فى الأجوبة المنشورة ما يدل على مدى الصدق والقدرة العلمية على البحث والتنقيب .

إن الأسئلة الموجهة تتطلب الإجابة من واقع الكتاب والسنة ، ليجتمع الناس حول الينابيع الصافية النقية لهذا الدين الكريم الذى فيه الشفاء للبشرية مما تعانيه من مذاهب وضعية هدامة .

إن الثقافة الدينية تخلق النفس المستقيمة السوية المهذبة .

ولقد سألت نفسى وقد نجحت هذه التجربة الرائدة فى « المقاولون العرب » عن إمكان تكرار نجاحها فى المؤسسات الأخرى . وكان الجواب أن « المقاولون العرب » قد اختصوا بنخبة ممتازة من المؤمنين الدعاة الذين يمتازون مع سعة الاطلاع بالغيرة الصادقة والإيمان الحق .

أهنىء « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » بهذا النجاح وهذه الغيرة الخالصة لله . مع أملى أن يستمر هذا المجهود المبارك فى بث الدعوة بدءاً من :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » (العلق : ١)

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا » (المائدة : ٣)

مهندس

احمد عبده الشرباصى

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأخ رئيس المركز الثقافى(شركة المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه)

تحية مباركة من عند الله ، وبعد .

فلقد اطلعت بابتهاج بالغ على العمل الإسلامى الاجتماعى العظيم الذى تبنته مؤسستكم العامرة ممثلا فى العددين الأول والثانى من مسابقة القرآن الكريم .

وأشهد أننى رأيت أن مؤسسة المقاولون العرب لا تقوم بتشييد صروح عمرانية فقط ، وإنما تقوم كذلك ببناء النفوس السوية متخذة فى ذلك أعظم الأسس وأقواها وهو القرآن الكريم .

وإذا كان القرآن الكريم قد صرح بأنه ما فرط فى شىء ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا مجالا من مجالات الحياة الإنسانية إلا عالجه ورسم أمثل الطرق لإنهاضه بما يتلاءم مع طبيعة البشر وحاجات النفس ، فإن أفضل ما تؤدب به المجتمعات هو القرآن الكريم .

إن العمل الذى تقوم به المؤسسه الآن (مسابقة القرآن الكريم) أصبح فى هذا الوقت ضرورة حتمية ، فنشر الثقافة القرآنية ، وبيان أهداف الدين ومراميه يصبح رسالة مفروضة فرض عين فى وقت بدت فيه نيوب الإلحاد البغيض والانحراف الدينى المقنع وبخاصة أن بعض الأفاعى الملحدة بدأت تخرج من جحورها متخفية وراء الدين ، ومتحصنة بحرية الكلمة .

وبعد أن رأينا بعض القيادات الإسلامية تستعلى على أن تنزل إلى عامة الجماهير لتبصيرها وتوعيتها إلا إذا لفتها أضواء الإعلام وعدساته .

إننى أريد أن أفاجأ ببعض قياداتنا الدينية فى مساجد الله يوم الجمعة ، وفى رحاب الجامعات دون إعلانات سابقة ودون عدسات معينة تنبه الناس إلى موجه عاتية بدت بداياتها ولا تعرف نهايتها .

وأخيراً فإن أملنا كبير فى استمرار هذه المسابقة الكبرى الكريمة وتوسيع قاعدتها . وإذا كان هناك من يرى أن مستوى الأسئلة عال فإنه يمكن أن توضع مجموعات ، بعضها لفريق بحيث تقترب الأسئلة من مستوى هذا الفريق وبعضها لمستوى آخر .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمود احمد سعد

محمود سعد

مدير مدرسة الأورمان النموذجية

بسم الله الرحمن الرحيم

جمع الفوز . . بالدين والدنيا

الأخ . . . .

السلام عليكم ورحمة الله :

من مقر عملى بالمملكة العربية السعودية أكتب إليكم ، لأشكر الله بعد أن علمت — من طريق البريد — أن إجابتى فى العدد الثانى من مسابقة القرآن الكريم عام ١٣٩٤ قد فازت بالمركز الأول .

لقد أسعدنى ذلك كثيراً ، وكنت أتمنى لو كنت بالقاهرة لأشارك إخوانى المتسابقين فرحة هذا الاحتفال السنوى بنجاح المنهج التثقيفى الإسلامى الذى تنهض به المقاولون العرب « عثمان أحمد عثمان وشركاه » عن طريق هذه المسابقات القرآنية الدورية حول معانى وحقائق القرآن الكريم .

لقد كان لهذه المسابقات بأسئلتها ، وإجاباتها النموذجية ، فضل توجيهى إلى مذاكرة القرآن الكريم ، وإلى مواصلة الاطلاع على كتب التراث ، والكتب الإسلامية العصرية ، حتى يزداد علمى وفهمى لأركان الإسلام وحقائقه وأهدافه ، مما يساعدنى على صدق التقرب إلى الله ، وعلى ، العمل الصالح فى طاعته وعلى الإسهام فى خدمة المجتمع المسلم بعزيمة المؤمن الصادق ، وإخلاصه ، وعلمه .

هذا ويسرنى أن أذكر بهذه المناسبة أن شركة « المقاولون العرب »

عثمان أحمد عثمان وشركاه . قد كرمتنى قبل فوزى بالمسابقة تكريماً آخر فى عملى ، وذلك بأن منحتنى فى أول عام ١٩٧٤ أعلى علاوة امتياز نظير أدائى المخلص للعمل ، فكان هذا التكريم المضاعف الذى يشمل أمر الدنيا وأمر الدين فضلا من الله أدين به لشركة « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » ، ولنظمها العملية التربوية ، وأشكر الله عليه أولا وآخراً. وجزاكم الله عن جميع العاملين ، وجميع القارئين لكتب المسابقة القرآنية ، أحسن الجزاء . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

اخوك
مهندس / على نايل
حايل — المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »

(آل عمران : ٥٣)

القرآن كتاب الله .. ومن تفقه فيه كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب . وإن مسابقة القرآن الكريم التى أعدها المركز الثقافى بشركة (المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه) لتدعو المتسابق وكذلك القارىء إلى معرفة دين الله وكتابه القويم ، وما تعرض له فى جميع جوانب حياتنا على مر السنين . وتضيف إلى الأذهان العديد من المسائل الهامة والجديدة التى شملها الدستور الإلهى .

.... إن كتاب الله المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد هو مأخذ الأشياء على ما هى عليه ، وكنز دقائق العلوم لرجوعها إليه . إذ ما من شىء إلا ونصه فيه ، إما بالتصريح أو بالإيماء لمن يعيه :

« مَافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْء » (الأنعام : ٣٨)

.. وحقيقة مزايا هذه المسابقة لا تحصى ولا تعد ... وتعالوا بنا نستعرض قول معاذ بن جبل حيث يقول : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية .... وطلبه عبادة ... ومدارسته تسبيح ... والبحث عنه جهاد ... وتعليمه من لا يعلمه صدقة ... وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ... يرفع الله به

أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة وسادة يقتدى بهم ... فى الخير تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ذلك لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم . وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى والتفكير فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل . وبه يوعد ... وبه يوحد ... وبه يمجد ... وبه يتورع ... وبه توصل الأرحام ... وبه يعرف الحلال والحرام) .

ونظراً لما تحويه هذه المسابقة من موضوعات تجذب القارئ لمعرفة تفاصيلها والتساؤلات التى تطرأ بالأذهان ، أرى تجزئة المسابقة وظهورها أكثر من مرة خلال العام على أن تتناول كل مسابقة ناحية معينة من أمور ديننا القويم مثل التفسير — الأحاديث — العبادات ... إلخ .

وإننى لأتوجه لمركز الثقافة العمالية والقائمين على ازدهاره المزيد من النجاح والتقدم فى هذه الرسالة السامية .

« رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »
(البقرة : ٢٠١)

« رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَاتَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَالَاطَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرِ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »

(البقرة : ٢٨٦)

مهندس / عبد الله عبد الهادى

مدير معهد التدريب بالهرم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » (القمر : ١٧)

هذه آية من كتاب الله تبارك وتعالى تتحدث عن تيسير آيات كتاب الله للناس ليأخذوا أنفسهم بها .

وإذا كان الزمن — بفعل ظروف مختلفة — قد باعد بيننا وبين تفهم كلمات الله فهما يعيننا على مسالك الحياة ودروبها المختلفة ، فإننا الآن بعون الله نعيش زمنا تحاول فيه أجهزة مختلفة العكوف على كتاب الله لتقديمه للناس فى ثوب يساعدهم على معايشة الحياة من خلاله ، وقد كان كذلك بالفعل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما سئلت السيدة عائشة رضوان الله عليها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت (كان خلقه القرآن) .

وقد أسعدنى كمؤمن أن أرى (المقاولون العرب) وهى هيئة مختصة بالتعمير البنائى ، أسعدنى أن أراها وهى تعنى بالقرآن وتقدم دراسات جادة حوله من خلال مسابقاتها القرآنية وتحاول من خلال هذه الدراسات معايشة القرآن بصورة عصرية ليعايش الناس القرآن فى حياتهم .

وكأنها بذلك تؤكد مشاركتها فى التعمير الإنسانى من خلال القرآن بجانب مشاركتها فى التعمير البنائى من خلال التقدم العلمى الحديث .

وكأنها بذلك تؤكد ضرورة اعتماد الحضارة الإنسانية الحديثة على القرآن ، وتلك غاية محمودة دون شك .

وبذلك فإن (المقاولون العرب) تعين على تحقيق الشق الأول من الآية :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » (القمر : ١٧)

ويبقى الشق الثانى مطروحاً للاجابة عليه :

« فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » (القمر : ١٧)

وتلك مسئوليتنا جميعاً أن نحقق القرآن فى سلوكنا قولا وعملا . فذلك هو السبيل الوحيد لبناء حضارة إنسانية تتخلص من مشاكل العصر وأدوائه .

ويكفى أن القرآن ذكر الله ، وذكر الله ، كفيل بتخليص الإنسانية من القلق الذى تعيشه نتيجة انخراطها الشديد فى الحياة المادية .

على أنى متفائل جداً بإمكانية تحقيق النهج القرآنى فى سلوكنا . لأن هذا النهج هو سلوك الفطرة النقية الخالصة التى فطر الله الناس عليها .

ومهما حاول الإنسان التخلص من هذه الفطرة فإنه لا سبيل له إلى ذلك ، لأنه بذلك يحاول التخلص من نفسه وذاته وليس ذلك بمستطاع .

تحية تقدير وإعزاز للمركز الثقافى بـ« المقاولون العرب — عثمان أحمد عثمان وشركاه » الذى أخذ على عاتقه محاولة محو الأمية الدينية ، وأرجو أن يكلل الله مسعاه بالنجاح والتوفيق .

محمد عبد العزيز عبد الدايم

المذيع بإذاعة القرآن الكريم

مجلة منبر الإسلام

تقوم بتقييم تجربة « المقاولون العرب »

فى مجال محو الأمية الدينية

إذا كانت تجربة « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » فى مجال الانشاء والتعمير هى حديث الناس فى الوطن العربى والعالم كله .

فإن تجربتها فى مجال الثقافة الدينية المرشدة هى الأخرى تجربة رائدة وأولى من نوعها . كان لصدور العدد الأول آثار طيبة وفوائد عظيمة للعاملين بالشركة وخارجها .

وفى « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » نرى أن محو الأمية الأبجدية والأمية الفكرية يسيران فى خطين متوازيين .

وأنت فى « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » تجد مستويات متنوعة ، وتخصصات مختلفة ، ولكنها جميعاً تلتقى فى انسجام تام ، بفضل هذه التجربة الإنسانية التى تضع أمامهم مبادىء الإسلام وثقافته من خلال القرآن الكريم ، وسنة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الثقافة التى تنبع من الإيمان الصادق ، هى — كما يقول المهندس عثمان أحمد عثمان — « اهتمام أصيل بالنسبة لجميع أفراد الشعب سواء بصفتهم الفردية أو من خلال تجمعهم الإنتاجى والاجتماعى . . . وهذه الثقافة الدينية فى صميمها ليست إلا المنهج السليم لتربية نفس الإنسان ،

وبناء إنسانيته ، لكى يكون بأخلاقه وأهدافه فى المستوى اللائق لبناء المجتمع الذى يعيش فيه ، والشعب الذى ينتمى إليه » .

•• والآن : تعال بنا — عزيزى القارىء — لنتعرف معاً على مقومات هذه التجربة ، وكيف ولدت ؟ وإلى أى حد نجحت ؟

مولد التجربة

إن تجربة «المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » لم تكن وليدة الصدفة بل سبقتها تجربة أخرى رائدة مهدت إليها تلك ، هى «محو الأمية الأبجدية » بين العاملين فى الشركة .

وحين أقبل شهر « رمضان » المعظم عن عام ١٣٩٢ هـ كان فرصة للتفكير فى عمل جديد يكون امتداداً لتجربة محو الأمية الأبجدية ، عمل يكون من ورائه إثارة شوق العاملين إلى مزيد من التدريب على مزيد من الثقافة الدينية المرشدة .

وبدأ « مركز المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه ، للثقافة العمالية ومحو الأمية » يفكر فى العمل الجديد ، ويعد له . وراح المشرفون على المركز يسألون أنفسهم :

• أليست هناك أمية أخرى أشد خطراً من هذه الأمية الأبجدية . . ؟

• أليست هناك أمية أخرى فى معلومات ثمينة تحتاج إلى أن نكشف الحجب عنها أمام جميع العاملين وبمساعدتهم وجهدهم . . ؟

• أليست هناك أمية فكرية فى معلومات أساسية دينية قادرة بمفاتيحها الكثيرة أن تفتح المغاليق أمام فكرنا المتطلع والمتشوق ليشهد ويدرك ويعى معانى ومشاهد هذا العلم الزاخر الكبير على آفاقه . . علم الدين . . والقرآن الكريم ؟

• أليس فى شهر رمضان المعظم نزل القرآن ؟

وأليس القرآن هو علم الإيمان ، وعلم الحياة ، وعلم العلم .

فماذا نعرف عن أحداث وأخبار هامة تتصل به . . ؟

وماذا نعرف عن شرائع وأحكام تتكامل فيه . . ؟

وماذا نعرف عن حقائق وعوالم تشع منه . . ؟

ما هو حجم ثقافتنا العامة عن كل أو عن أكثر ما يتعلق بهذا الكتاب العزيز ، وعن كنوز العلم وحلول القضايا فيه ، بينما نحن نستهدى به ونستقبل عصر بناء دولتنا العصرية ، دولة العلم والإيمان .. ؟

•• وأمام هذه الأسئلة بدأت ملامح التجربة تتضح أمام المسئولين عنها .

وكانت الإجابة عليها — كما يقول الأستاذ عبد الفتاح عساكر :

« فلنجرب أن نكتشف بالصدق والشجاعة والحماسة قدر ومدى ما نملكه من هذه المعرفة ، وأن تكون تجربتنا لهذا الاكتشاف حافزاً فى حد ذاتها لمزيد من العلم المتعلق به ، ودافعاً بالتالى إلى الاقتراب المشوق من مناراته ، والانتظام الواعى فى تلاوته وتدبره والعمل بما فيه » .

•• وهكذا ولدت هذه التجربة فى صورة مسابقة تدور حول القرآن الكريم ، مسابقة نحو هذا القدر من العلم والإدراك الواجب توفره لكل العاملين فى «المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه» ، وهو القدر الذى يجب فى نفس الوقت — عن طريق هذه المبادرة — أن نوجه من خلال صفحات « منبر الإسلام » اهتمام جميع العاملين والمواطنين خارج « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » إلى تحصيله ، وإلى ابتكار جميع الحوافز لزيادته ، والإفادة من محاولة التطبيق لما يدعو إليه من مكارم الأخلاق ، ومن حدود الله ووصاياه أملا فى أن نبلغ حد التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان خلقه القرآن ، وعمله القرآن ، وجهاده القرآن . . .

•• وبدأ مركز المقاولون العرب للثقافة العمالية ومحو الأمية فى طرح أسئلة العدد الأول من هذه التجربة الرائدة فى أول يوم من رمضان ١٣٩٢ موضحا معها الشروط والحوافز .

وتشتمل أسئلة المسابقة على ستة أقسام متصلة الأسباب فى كل قسم منها عدد من الأسئلة انتهت فى مجموعها إلى ثمانية عشر سؤالا فى جملة هذه الأقسام الستة التى كانت كالآتى :

* **القسم الأول : حول القرآن الكريم .**
* **القسم الثانى : القرآن الكريم والإيمان .**
* **القسم الثالث : القرآن الكريم والتاريخ**
* **القسم الرابع : القرآن الكريم والقومية العربية .**

* القسم الخامس : القرآن الكريم والمجتمع .
* القسم السادس : القرآن الكريم والجهاد .

وأمام هذه الموضوعات الواسعة الآفاق والشاملة لأكثر أساسيات النظر والتدبر فى كتاب الله أعطيت مهلة واسعة للمتسابقين حتى تؤتى التجربة ثمرتها فى خلق الحافز الذاتى لمزيد من الثقافة القرآنية القادرة على تنشيط الوجدان المؤمن للدارس المستزيد وتطوير عقلية علمية له مستمدة من صميم المنهج القرآنى ، ومعززة بنظرة صحيحة للتاريخ ، وفكرة سليمة عن الواقع ، واستباق متكامل نحو المستقبل .

** وحتى تكتمل الفائدة أصدرت (المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه) كتاباً فى ٢٢٨ صفحة ضم الإجابة النموذجية لأسئلة المسابقة بأقلام المتخصصين ، ثم نماذج من إجابات المشتركين فى المسابقة .

التجربة تتكرر

ولقد كان النجاح الكبير الذى أحرزه هذا الكتاب الأول حافزاً على الاستمرار فى عقد المسابقات القرآنية التى شقت طريقها الرائد فى مجال التثقيف الدينى الذاتى ، إذ صدر هذا الشهر الكتاب الثانى عن هذه التجربة وتضم أيضاً ستة أقسام ، ثلاثة منها رأيناها فى المسابقة الأولى وهى :

* القرآن الكريم والقومية العربية .

- **القرآن الكريم والمجتمع .**
- **القرآن الكريم والإيمان .**

وإن كانت الأسئلة فيها قد اتخذت أبعاداً جديدة غيرها فى التجربة الأولى .

أما الأقسام الثلاثة الجديدة فكانت كالتالى :

- **القرآن الكريم والعلم .**
- **القرآن الكريم وحقوق الإنسان .**
- **القرآن الكريم والحضارة .**

•• وقد صدر الكتاب بكلمة للرجل الذى وقف وراء التجربة حتى أتت ثمارها « المهندس عثمان أحمد عثمان » وقد وجه النداء إلى العاملين فى « المقاولون العرب » فقال :

« . . لقد تعلمنا معاً أيها الأخوة والأبناء بطول السنوات الماضية أن نجاح شركتكم « المقاولون العرب » قد اعتمد – مثل أى عمل ناجح آخر – على ما نسميه بممارسة « العلاقات الإنسانية » التى أصبح بها جميع العاملين من خلال علاقات العمل أسرة واحدة قوية الترابط أثناء العمل وبعده » .

« فإذا كانت العلاقات الإنسانية تعد الآن علما أساسيا من علوم الإنتاج فى العالم الحديث فإنكم فى « المقاولون العرب » لم تنسوا مطلقا أن هذه العلاقات الإنسانية بكل قابلياتها للنمو والازدهار إنما تنبع فى

تاريخنا وحياتنا من علم الإيمان الذى ينبع بدوره من وعى « القرآن الكريم » ومن تدبر آياته ومعانيه ومن تنمية ثقافته وأهدافه بين جميع المواطنين » .

« لهذا فإنكم عندما تجعلون من « القرآن الكريم » بهذه المسابقات مصدرا لثقافتكم الدينية الصحيحة فإنكم فى الحقيقة إنما تستلهمون من كتاب الله فى نظمه وتشريعه وآدابه وعلومه هذا المعمار الإلهى الخالد الذى نزل به الوحى بكلام الله على النبى صلى الله عليه وسلم ليتم به بناء الإنسان المؤمن وعمارة قلبه وتثقيف عقله وتوضيح غايته وتمهيد طريقه » .

« وبهذا وحده يتحقق النجاح للمؤمنين – كما حدث من قبل – فى عمارة الدنيا وفى استخدام الموارد وفى إقامة المنشآت وفى توظيف وإدارة الأعمال » .

« الأمر الذى أدركتم منه – ولاشك – مدى الارتباط الوثيق بين مشاركتكم فى إنجاح هذه التجربة القرآنية الرائدة وبين حرصكم على إنجاح الأهداف الإنسانية والعمرانية التى تضطلع بها شركتكم » .

التجربة للجميع

إذا كانت « المقاولون العرب » عثمان أحمد عثمان وشركاه فى كتابها الأول قد أهدت هذه التجربة الرائدة مثالا وأسوة لجميع القادرين على مثلها فى جميع المؤسسات والمنظمات والشركات والهيئات بين

فئات القوى العاملة من العمال والفلاحين والشباب المثقفين والمهنيين .. فإنها فى كتابها الثانى تنشر جانبا من رسائل الكثيرين من المسئولين وأهل الرأى الذين تتردد فى رسائلهم أصداء نجاح هذه التجربة .

ماذا يعنى نجاح هذه التجربة

إن نجاح هذه التجربة الثقافية التى تنبع حقائقها من علوم وثقافة القرآن الكريم إنما يعنى — والكلام للأستاذ عبد الفتاح عساكر —

« إن الثقافة الصحيحة فى بلادنا العربية لا يمكن أن تكون « مستوردة » لأننا نملك مصادرنا للثقافة الأصيلة » .

« كذلك فإن نجاح هذه التجربة يعنى أن الثقافة الدينية النابعة من الإيمان والقرآن ليست قاصرة عن الوضوح بذاتها ولا عن التعبير المعاصر عما يكمن فى أجوائها من الحلول والمبادرات القادرة على بناء التقدم فوق ساحاته بالنسبة لمجتمعنا الجديد ، مجتمع المؤمنين ومجتمع دولة العلم والإيمان » .

« إن تنوير مجتمعنا المعاصر بهذه الثقافة القرآنية هدف أصيل تؤكده هذه المرحلة الحاسمة بأعظم الآمال بعد العاشر من رمضان ، وإن الثقافة مطلوبة باتساع وكثافة الجماهير فى كل المواقع ، وبين الرجال والنساء جميعا ولأهل المدن وأهل القرى على السواء والمثقفين والمتعلمين دون فرق ، إنها ثقافة أساسية لكل الأجيال » .

وبعد :

فإننا من فوق صفحات « منبر الإسلام » نحيي « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » التي قدمت المثل والقدوة في مجال العمران المادي وهي الآن تقدم مثلا آخر ناجحا في مجال العمران النفسي .. في مجال بناء الإنسان العصري المزود بطاقات الإيمان والثقافة الدينية المرشدة .

• ونستأذن قارئنا على أمل أن نلتقي به ، لنقدم له تقييما للتجربة الثالثة للمقاولون العرب في مجال الثقافة الدينية التي تنبع من : علم الإيمان .. علم الحياة .. علم العلم .. علم القرآن الكريم .

مجلة منبر الإسلام
عدد رجب ١٣٩٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس عثمان أحمد عثمان

وزير الإسكان والتعمير

تحية طيبة وبعد :

تلقيت بوافر الشكر والتقدير العدد الثانى من الكتاب الذى أصدره (المقاولون العرب) عثمان أحمد عثمان وشركاه والخاص بالإجابات لمسابقة القرآن الكريم ، التنزيل الإلهى الخالد الذى يفيض بالحب والخير ، ويؤكد الولاء للمسئولية والواجب ، ويدفع موكب الحياة نحو الأفضل والأكمل .

وإنه ليسرنى أن أعرب عن خالص التقدير للفكرة ، وراء إصدار هذا الكتاب ، والمضمون الذى احتواه ، والصورة التى أخرج بها راجيا أن يكون مصدر نفع للمسلمين وللمؤمنين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

نائب رئيس الوزراء
ووزير الداخلية

ممدوح سالم

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأخ المهندس عثمان أحمد عثمان
وزير الإسكان والتعمير

تحية طيبة وبعد :

تلقيت بمزيد من السرور كتاب شركة (المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه) الخاص بالإجابات النموذجية عن « مسابقة القرآن الكريم » التى أجراها المركز الثقافى بشركتكم فى شهر رمضان الماضى بين العاملين بها .

وإذ نبارك هذه الجهود العظيمة فى مجال الثقافة الدينية والتى نأمل أن تكون تجربة رائدة لجميع القادرين على مثلها فى المؤسسات والشركات والمنظمات الأخرى ، نسأل الله لكم وللعاملين فى هذه التجربة التوفيق نحو بناء دولتنا العصرية .

وتفضلوا بقبول خالص تحياتى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رئيس مجلس الشعب

مهندس سيد مرعى

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس عثمان أحمد عثمان
وزير الإسكان والتعمير

تحية طيبة وبعد :

تلقيت بمزيد من الشكر كتاب شركة (المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه) الخاص بالإجابات النموذجية على مسابقة القرآن الكريم .

ولاشك أن النجاح الكبير الذى لقيه العدد الأول والذى سيلاقيه بإذن الله العدد الثانى لخير دليل على مدى أهمية هذه التجربة الهامة فى غرس بذور الإيمان بين المواطنين . وإنى إذ أحيى جهودكم فى هذا الصدد لأتمنى لهذه التجربة كل نجاح حتى نساهم جميعا فى إقامة دولة العلم والإيمان .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وزير الخارجية

اسماعيل فهمى

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس عثمان أحمد عثمان
وزير الإسكان والتعمير

تحية طيبة وبعد :

تلقيت ببالغ السرور رسالتكم الرقيقة مرفقا بها العدد الثانى من كتاب شركة (المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه) والخاص بالإجابات النموذجية عن « مسابقة القرآن الكريم » .

ويسرنى ونحن فى شهر رمضان المعظم (شهر العبور) أن أتقدم لكم بوافر الشكر والتقدير على إهدائكم القيم ، كما أغتنم هذه المناسبة لأعبر لسيادتكم عن صادق الود وخالص التقدير ، راجيا لوطننا العزيز دوام التقدم والازدهار والله ولى التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وزير التجارة الخارجية

فتحى أحمد المتبولى

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس عثمان أحمد عثمان
وزير الإسكان والتعمير

تحية طيبة وبعد :

تلقيت بمزيد من الشكر والامتنان العدد الثانى من كتاب (المقاولون العرب) عثمان أحمد عثمان وشركاه الخاص بالإجابات النموذجية عن « مسابقة القرآن الكريم » .

وبهذه المناسبة يسعدنى أن أعبر لكم عن خالص التقدير راجيا من الله العلى القدير أن يسدد خطاكم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وزير شئون رئاسة الجمهورية

مهندس/ عبد الفتاح عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس عثمان أحمد عثمان
وزير الإسكان والتعمير

تحية طيبة وبعد :

فقد تلقيت بمزيد من الشكر والتقدير ، العدد الثانى من كتاب شركة (المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه) والخاص بالإجابات النموذجية عن مسابقة القرآن الكريم .

وأنتهز هذه الفرصة لأشيد بالأسلوب الهادف الذى تتبعه الشركة فى نشر الثقافة الدينية الصحيحة .

والله أسأل أن يوفقكم دائما لما فيه الخير

وتقبلوا فائق احترامى ،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وزير الدولة
لشئون مجلس الوزراء

دكتور / يحيى الجمل

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس عثمان أحمد عثمان
وزير الإسكان والتعمير

تحية طيبة وبعد :

تلقيت شاكرا كتابكم المرفق به العــدد الثانى من كتاب شركة (المقاولون العرب) عثمان أحمد عثمان وشركاه والخاص بالإجابات النموذجية عن مسابقة القرآن الكريم التى أجرتها شركة المقاولون العرب .

ويسعدنى فى هذه المناسبة أن أشيد بما احتواه هذا الكتاب من معلومات قيمة تزيد من الثقافة القرآنية وتضع لبنة فى دولة العلم والإيمان التى أقام صرحها الرئيس المؤمن محمد أنور السادات .

وإنى أرجو من الله لكم ولجميع العاملين (بالمقاولون العرب) مزيداً من التقدم فى مختلف مجالات النشاط .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وزير الصناعة والتعدين

مهندس / ابراهيم سالم محمدين

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس عثمان أحمد عثمان
٣٤ ش عدلى — القاهرة

تحية طيبة وبعد :

تسلمت بمزيد الشكر والامتنان العدد الثانى من كتاب شركة «المقاولون العرب » (عثمان أحمد عثمان وشركاه) والخاص بالإجابات النموذجية عن « مسابقة القرآن الكريم » التى أجراها المركز الثقافى « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » فى شهر رمضان الماضى بين العاملين بها .

وإنى أنتهز هذه الفرصة لأبعث إليكم بخالص التهنئة على هذا العمل العظيم والذى هو ثمرة اهتمامكم ، راجياً لكم دوام التوفيق مع أطيب التمنيات .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

دكتور / محمد لطفى دويدار



رئيس جامعة الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب
(عثمان أحمد عثمان وشركاه)

تحية طيبة وبعد :

تلقيت شاكراً نسخة من العدد الثانى من كتاب الإجابات النموذجية لمسابقة القرآن الكريم الذى أعـده المركز الثقافى « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه »

ويسعدنى أن أهنئكم على هذا العمل المثمر ، وتلك التجربة الرائدة فى مجال الثقافة الدينية فى ظل دولة العلم والإيمان راجياً لكم وللعاملين بالشركة المزيد من التوفيق .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وزير الكهرباء

مهندس / احمد سلطان اسماعيل

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس حسن بهجت حسنين
نائب رئيس مجلس الإدارة
المقاولون العرب – عثمان أحمد عثمان وشركاه
٣٤ ش عدلى – القاهرة

تحية طيبة وبعد :

تلقيت بمزيد الشكر العدد الثانى من الكتاب الخاص بالإجابات النموذجية عن مسابقة القرآن الكريم التى أجراها المركز الثقافى « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » ولقد لمست المجهود الكبير الذى تقوم به شركتكم الموقرة فى نشر الثقافة الدينية التى نحن فى مسيس الحاجة إليها فى وقتنا هذا ..

ولما لم يكن لى حظ تسلم العدد الأول – فإنى أكون شاكراً لو تفضلتم بإرساله .

وأكرر لكم شكرى الخالص وتهانينا القلبية ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رئيس مجلس ادارة
شركة الزيوت المستخلصة ومنتجاتها

مهندس / عثمان رفعت

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس حسن بهجت حسنين
نائب رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب
عثمان أحمد عثمان وشركاه

تحية طيبة وبعد :

تلقيت بمزيد من الامتنان والتقدير العدد الثانى من الكتاب الخاص بالإجابات النموذجية عن مسابقة القرآن الكريم .

ولقد أسعدتنى هذه الخطوات المباركة الطيبة والتى اتجهتم فيها بالعاملين نحو نبع الهداية الصافى ومصدر النور الإلهى « القرآن الكريم »، مستهدفين فى رحابه الطاهرة الثقافة الأصيلة والمنهج السليم لتربية الإنسان .

ولا يسعنى فى هذا المقام الجليل .. مقام بنور القرآن الكريم وموقف شركتكم من بعث هذا النور وإضفاء قدسيته وجلاله على جموع العاملين . . فى هذا المقام لا يسعنى إلا أن أتوجه إلى سيادتكم وجميع الإخوة الذين يعملون فى هذا المشروع العظيم بخالص الشكر والتقدير سائلا المولى تبارك وتعالى لكم كل التوفيق والسداد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مهندس / على السيد رخا

رئيس مجلس ادارة المحلات الصناعية
للحرير والقطن (اسكو)

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس حسن بهجت حسنين
نائب رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب
عثمان أحمد عثمان وشركاه
٣٤ ش عدلى – القاهرة

تحية طيبة وبعد :

نتشرف بإحاطة سيادتكم بأننى قد تسلمت العدد الثانى من كتاب شركة المقاولون العرب « عثمان أحمد عثمان وشركاه » الخاص بالإجابات النموذجية عن مسابقة القرآن الكريم التى أجراها المركز الثقافى « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » بين العاملين بها فى شهر رمضان الماضى وإذ يسرنى أن أقدم شكرى لسيادتكم على إتاحتكم هذه الفرصة العامية لى للاطلاع على هذا العمل الطيب وأن أشيد بالجهود المثمرة وأصحابها الذين فكروا ثم نفذوا بهدف نشر الثقافة الدينية بين جماهيرنا العاملة فالمرجو أن يستمر بذل مثل هذه الجهود ليس فى موقع عمل واحد ولكن فى كل مواقع العمل .

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »

(التوبة : ١٠٥)

وذلك حتى يكون البناء والتشييد متيناً وحتى نحقق أهداف وطننا العزيز نحو العزة والكرامة والتقدم .

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

دكتور / فاروق حسين جرانه
رئيس مجلس ادارة شركة مصر للصناعات والكيماويات

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس — نائب رئيس مجلس الإدارة
شركة المقاولون العرب
٣٤ ش عدلى — القاهرة

تحية طيبة وبعد :

يسعدنا أن نتقـدم بالشكر على إهدائكم العدد الثانى من كتابكم الخاص بالإجابات النموذجية عن مسابقة القرآن الكريم (المرفق بخطابكم الوارد إلينا بتاريخ ١٦ / ١٢ / ١٩٧٤) .

ونحن إذ نسجل تقديرنا لهذه التجربة التى تعتبر مثالا طيباً وأسوة حسنة فى مجال الثقافة الدينية للقوى العاملة ، نأمل موافاتنا بعدد عشر نسخ من هذا الكتاب الجليل وذلك لخدمة أكبر عدد من العاملين بشركتنا من هذه الثقافة الدينية .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مهندس / مختار ابراهيم محمد

رئيس مجلس ادارة شركة مصر
للهندسة والسيارات

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس نائب رئيس مجلس إدارة المقاولون العرب
عثمان أحمد عثمان وشركاه

تحية طيبة وبعد :

وصلتنا رسالتكم الرقيقة .. وما أروع ما حملت إلينا .. آيات بينات من الهدى والفرقان وهذا ما يعجز اللسان عن كل ما يقال لإعطاء تلك التجربة الرائدة حقها من التقدير والإكبار ونحن إذ ندعو الله أن يكون لنا شرف الاقتياد بها .. نسأله أن يوفقنا جميعاً إلى السير على دستور الدساتير والعمل بأحكامه حتى نكون بحق خير أمة أخرجت للناس .. ودعاء صادق للمركز الثقافى للمقاولون العرب بمزيد من الأعمال الخلاقة الرائدة فى طريق الإيمان والإنسان المؤمن بعقله وقلبه الواضح فى طريقه وهدفه .

وإذ نشكر لسيادتكم .. نرجو أن تقبلوا فائق تحياتنا وعظيم تقديرنا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مهندس / احمد محمود الشواربى

رئيس مجلس ادارة شركة القاهرة
للاسكان

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس نائب رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب
عثمان أحمد عثمان وشركاه
٣٤ ش عدلى — القاهرة

تحية طيبة وبعد :

فقد تلقيت ببالغ الشكر والتقدير كتابكم المرفق به نسخة من الإجابة النموذجية للمسابقة الثانية للقرآن الكريم التى نظمتها شركتكم الرائدة فى مجال التعمير .

ولا يسعنى إلا أن أتقدم لسيادتكم بأصدق التهانى بهذه المبادرة الطيبة فى تعميق المفاهيم الدينية الرشيدة بين العاملين بما لها من عظيم الأثر فى بناء النفوس لتحقيق التوازن بين احتياجات الإنسان الروحية والمادية .

والله تعالى نسأل أن يوفقنا فى جهودنا المخلصة لبناء مصر الخالدة على أسس من العلم والإيمان .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد عبد الوهاب الطباخ

رئيس مجلس ادارة شركة مصر
للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس نائب رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب
(عثمان أحمد عثمان وشركاه)

تحية طيبة وبعد :

تلقيت بمزيد الشكر والامتنان خطاب سيادتكم المؤرخ ١ / ٧ / ١٩٧٤ المرفق به العدد الثانى من كتاب الإجابات النموذجية عن مسابقة القرآن الكريم التى أجراها المركز الثقافى « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » فى شهر رمضان المبارك بين العاملين بها .

ولاشك أنكم قد سننتم بذلك سنة حسنة لكم أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فلا خير لنا من كتاب الله تعالى ما لم نتخذه إماماً ونوراً فى هذه الحياة .

وفقكم الله إلى خيرى الدنيا والآخرة ووفقنا إلى أن نقتفى أثركم فى هذا المضمار .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أحمد محيى الدين مصطفى سالم

مدير عام مكتب بيع الاسمنت المصرى

الأخ : القــارئ . .

سيكون فضــلا منك أن تقرأ بتقبل وإمعان هذا الكتاب « إجابات مسابقة القرآن الكريم » فى إطــار محاولتنا الذاتية أن نسهم كوحدة إنتاجية فى خدمة الثقافة القرآنية فى بلادنا ، تحت شعار « المزيد من حفظ وفهم القرآن » فى مجتمع « دولة العلم والإيمان » متخذين واحداً من طرق كثيرة لنشر هذه الثقافة وهو طريق المسابقات والحوافز . .

وسيكون فضلا آخر منك أن تجد من وقتك واهتمامك مايسمح لك بأن تسهم أيضاً فى تحريك ودعم هذا الاتجاه الثقافى ، وذلك بالإجابة برأيك محددا وواضحاً عن الأسئلة الآتية :

س ١ — ما هو رأيك فى فكرة المسابقات القرآنية أساساً ، وفى إمكان تعميمها كوسيلة من وسائل نشر الثقافة القرآنية ، ومحو الأمية الدينيــة ؟ .

س ٢ : ما هى ملاحظاتك عن الإيجابيات والسلبيات فى شكل وأسلوب هذه المسابقة التى نفذناها كتجربة أولى بين العاملين فى شركتنا « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان » ؟

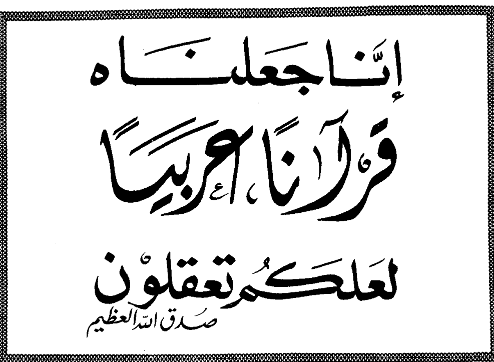
س ٣ : ما هى آراؤك واقتراحاتك للتحسين أو لابتكار أساليب جديدة على نفس الطريق ؟

هذا ، ونرجو أن يصلنا رأيكم على العنوان الآتى :

المركز الثقافى
المقاولون العرب « عثمان احمد عثمان وشركاه »
٣٤ شارع عدلى — القاهرة

دُعاء الرّسُول عليه الصّلاة والسّلام عند ختم القرآن

اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي بِالْقُرْآنِ ۝ وَاجْعَلْهُ لِي إِمَامًا وَنُورًا ۝ وَهُدًى وَرَحْمَةً!
اللَّهُمَّ ذَكِّرْنِي مِنْهُ مَا نَسِيتُ ۝ وَعَلِّمْنِي مِنْهُ مَا جَهِلْتُ ۝ وَارْزُقْنِي تِلَاوَتَهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ۝ وَاجْعَلْهُ لِي حُجَّةً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ !



بحوث الأعداد التي صدرت عن المركز الثقافي

المقاولون العرب

بحوث العدد الأول

- حول القرآن الكريم
- القرآن الكريم والتاريخ
- القرآن الكريم والقومية العربية
- القرآن الكريم والإيمان
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم والجهاد

###

- القرآن الكريم والإيمان
- القرآن الكريم والعلم
- القرآن الكريم وحقوق الإنسان
- القرآن الكريم والحضارة
- القرآن الكريم والقومية العربية
- القرآن الكريم والمجتمع

بحوث العدد الثالث

- مع القرآن الكريم حول أسمائه وصفاته
- القرآن الكريم والعلم
- القرآن الكريم والاقتصاد المجتمع
- القرآن الكريم والقومية العربية
- القرآن الكريم والشريعة
- القرآن الكريم والبيان

بحوث العدد الرابع

- القرآن الكريم والإيمان
- القرآن الكريم والدعوة
- القرآن الكريم والأسرة
- القرآن الكريم والعمران
- القرآن الكريم والاقتصاد
- القرآن الكريم واللغة العربية

بحوث العدد الخامس

- القرآن الكريم والتاريخ
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم والتدبر
- القرآن الكريم واللغة العربية
- القرآن الكريم وعلم الغيب
- القرآن الكريم والأمومة

###

- القرآن الكريم وسيرة النبي
- القرآن الكريم وبرهان الإيمان
- القرآن الكريم واللغة العربية
- القرآن الكريم والتدبر
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم وبنو إسرائيل

بحوث العدد السابع

- القرآن الكريم وسيرة إبراهيم
- القرآن الكريم وشهر رمضان
- القرآن الكريم والتفكير
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم واللغة العربية

###

- القرآن الكريم وأهل البيت
- القرآن الكريم وبنات شعيب
- القرآن الكريم والروح
- القرآن الكريم والسعادة
- القرآن الكريم والقرن الخامس عشر

محتويات بحوث العدد الثالث

القسم الأول

القسم الثانى

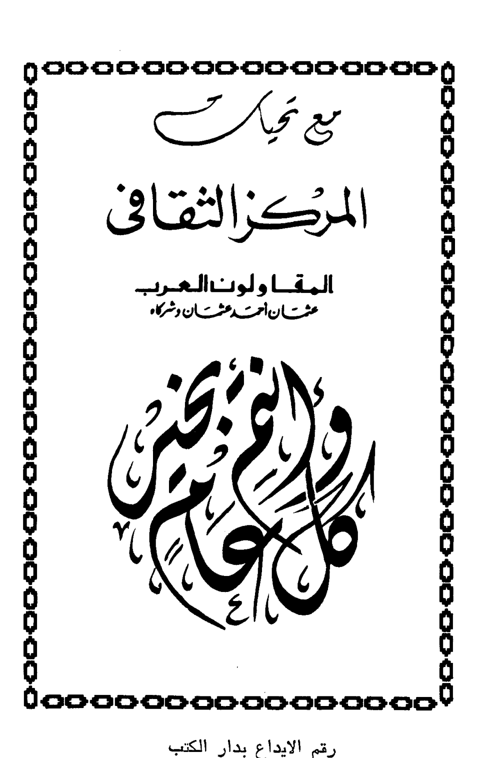
القسم الثالث

القسم الرابع

القسم الخامس

القسم السادس

الموضــــوع	الصفحة



رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٠/٢٢٥٣

مطابع الأهرام التجارية